معاوية

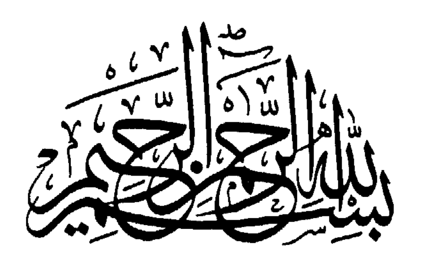
أمام محكمة الجزاء

الشيخ مهدي القرشي

دار الرسول الأكرم (ص)
دار المحجة البيضاء

مُعاوية

أمام محكمة الجزاء


بسم الله الرحمن الرحيم

مُعَاوِيَة

أمام محكمة الجزاء

الشيخ مهدي القرشي

قدّم له كاتب كبير

دار المحجّة البيضاء

دار الرسول الأكرم «ص»

الطبعة الأولى
١٤١٨هـ.١٩٩٨م



دار المحجة البيضاء للطباعة والنشر والتوزيع = بيروت - لبنان ص ب ١٤/٥٤٧٩

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً حتى إذا جاؤها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم تأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين، قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين، وسيق الّذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً حتى إذا جاؤها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين، وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين﴾.

(سورة الزمر: ٧١ ـ ٧٤)

الإهداء

أقدم مجهودي هدية متواضعة لرمز الكمال، والمثل الأعلى للإنسان الأمثل: الإمام علي أمير المؤمنين، وأمين الله في أرضه وحجّته على العباد أجمعين، الذي ما شبع من طعام قطّ، وكان أخشن الناس مأكلاً وملبساً وكان ثوبه مرقوعاً بجلد تارة، وليف أخرى، ونعلاه من ليف، وكان يأتدم إذا ائتدم بخلّ أو ملح[1]، ومن رصّ أس العدالة الاجتماعية على الأرض، لتعم معطياتها بني الإنسان، فيتفيأوا ظلالها ويجتنوا ثمارها، وقد شهد له مناوئه وخصمه الخليفة عمر: (أما والله لأن وليتهم لتحملهم على الحق الواضح والمحجة البيضاء)[2] ومن بلغت فضائله من العظم والجلالة والانتشار والاشتهار. مبلغاً يسمح معها التعرض لذكرها، والتصدي لتفصيلها، وكان أبرز مصداق لقول المتنبي:

تجاوز حد المدح حتى كأنّه   بأحسن ما يثنى عليه يُعاب

وقال الجواهري:

تعداد مجد المرء منقصة إذا   فاقت مزاياه عن التعداد

وقد اخترتُ (معاوية) موضوعاً لكتابي لأجل المفارقة بين الحق

---

(١) شرح النهج لابن أبي الحديد: ١/٢٦.
(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ١/١٨٦.

والباطل، وبين الفضيلة والرذيلة، كما قال الشاعر:

ونـذمهـم وبهـم عـرفنـا فضلـهُ وبضـدهـا تتبيـن الأشيـاء

وقال آخر:

ضـدان إذا اجتمعـا حُسنـا والضـد يظهـر حسنـه الضـد

وقد كان الإمام علي يسعى بكل طاقاته الخيِّرة لتثبيت مبادىء الخلافة الدينية، ومعاوية يسعى بكل خداعه ومكره لتثبيت الدولة الدنيوية ومعذرة إليك يا أبا الحسنين من ضحالة معرفتي وقصر باعي.

(إنّ الهدايا على مقدار مهديها).

نزيل قلعة سكر ـ العراق
مهدي القرشي

فاتحة الكتاب

كنت في أيام رسول الله ﷺ كجزء من رسول الله ﷺ ينظر إليّ الناس كما يُنظر إلى الكواكب في أفق السماء، ثم غض الدهر مني، فقُرن بي فلان وفلان، ثم قُرنت بخمسة أمثلهم عثمان، فقلت: واذفراه[1]. ثم لم يرض الدهر لي بذلك؛ حتى أرذلني، فجعلني نظيراً لابن هند وابن النابغة. لقد استنت النصال حتى القرعى[2].

الإمام علي عليه السلام

(١) الذفر: الرائحة الخبيثة.
(٢) شرح النهج لابن أبي الحديد: ٢٠ ـ ٣٢٦.

تقديم باقر شريف القرشي

(١)

إذا كان البحث على صعيد الحق والعلم فأحرِ به أن يكون داعية وفاق ووئام، وسبب تقارب والتئام، ورائد محبة وسلام.

إذا عني البحث في خدمة الحق، وأخلص في أداء الواجب فإنه خليق بأن يحتل القمة، ويكون من مصادر الإشعاع والبعث، ومن عوامل النهوض والارتقاء التي تساهم في البناء الفكري والاجتماعي للأمة. إنَّ البحوث العلمية التي تتسم بالأصالة والجدة هي التي تلقي الأضواء على الأحداث الجسام، وتكشف عن أبعادها وواقعها، ومالها من الأثر التكويني في تغيير مجرى الحياة والتاريخ...

وتميز هذا الكتاب في بحوثه بهذه الظاهرة، وتفرد للإخلاص للحق، فكشف غطاءً صفيقاً تستر به معاوية مع الطغمة من رفاقه، ظلوا قابعين بلباس الدين أسدلوه على نفوسهم وأقره عليهم من لا حريجة له في الدين، قالوا: إنهم في الرعيل الأول من حضنة الإسلام، وفي الصدر الأول من حماته، وهم فيما أثر عنهم من أحداث تثبت أنهم لا علاقة لهم بالدين، ولا صلة لهم بواقعه، وإنما خصومه وأعداؤه، حاولوا قلع جذوره، ومحو سطوره، وإزالة رصيده، وذلك بما صعدوه من عمليات التخريب والهدم ضده، وبما أقاموه من شبكات تخريبية تهدف إلى تصفية الحساب مع الإسلام، والقضاء على

جميع العناصر الحية، التي يتميز بها المجتمع الإسلامي ولقد كشف هذا الكتاب ببحوثه الحرة المشرقة الغطاء عن الواقع الجاهلي المتمثل في معاوية وحزبه، وأثبت بأدلته الرصينة أنهم سوءة من سؤات التأريخ وأنهم من أقذر مَن عرفتهم الإنسانية انحرافاً عن الحق، وانغماساً في الآثام، وارتكاساً في الإجرام.

وفيما أحسب أنّ إبراز هؤلاء على واقعهم وتجريدهم من الصفة الدينية، إنما هو خدمة كبرى للتأريخ الإسلامي الذي يجب أنْ ينزّه عن كل دخيل منحرف في سلوكه، وأنه لا بدّ أن يصاغ واقعه على منطق الحق، وتستمد عناصره من سيرة عظمائه المصلحين الّذين حملُوا مشعل النهضة الفكرية، ورفعوا شعار الحرية والعدالة والمساواة.. من سيرة هؤلاء العظماء ومن واقع حياتهم يجب أنْ يصاغ التاريخ الإسلامي ليكون تأريخاً حيّاً تتجسّد فيه عظمة المقاومة الإيجابية، وروح الثورة العارمة ضد قوى البغي والجور والطغيان.

وإنَّ من الظلم للإسلام، ومن الخيانة للتاريخ أنْ يُعد معاوية وأمثاله من الجلادين واللصوص من بناة المجد الإسلامي، ومن عظماء المسلمين.

(٢)

ولمّا انطلقت الدعوة الإسلامية تشق أجواء التاريخ، وتصنع للإنسان فجر حضارته، وتمنحه حقوقه العادلة في ظل نظام رفيع مستقر حافل بكل ما تتطلبه الحياة من مناهج اقتصادية وسياسية واجتماعية، تضمن للإنسان كرامته وحقه في الحياة. وثقلت رسالة النبي ﷺ العظيم على مجتمع لم يعرف النظام والدعة والاستقرار، ولم يألف إلاّ العيش على موائد النهب والظلم، فهبت طلائعه إلى مناجزة الدعوة وإخماد نورها، وإجادة الفوضى والاضطراب في الأرض، وكانت الأسرة الأموية هي المتصدية لوضع أساليب

المقاومة الإيجابية، وتنسيق المخططات العسكرية ضد رسالة الإسلام، وقد قامت بما يلي من الأعمال الرهيبة:

١ ـ المبالغة في إيذاء النبي ﷺ والاستهانة بشخصيته العظيمة، فقد ذكر المؤرخون أنَّ الحكم بن أبي العاص كان إذا مرَّ النبي ﷺ يمر خلفه فيغمز به ويحكيه ويخلج بأنفه وفمه[١] وكان عقبة بن أبي معيط يأتي بالروث فيطرحه على باب رسول الله ﷺ [٢] وقد بصق هذا الأثيم بوجه النبي ﷺ[٣] وقد اشتركت المرأة الأموية مع رجالهن في مناهضة الرسول ﷺ ومناجزته، فكانت أُمُّ جميل بنت حرب أخت أبي سفيان تحمل الشوك والعضاة[٤] فتطرحه في طريق رسول الله ﷺ إذا خرج إلى الصلاة ليعقره[٥] وكانت هند زوج أبي سفيان تحمل أشد الحقد والعداء للنبي ﷺ فكانت تحرّض المشركين على مناجزته وقتاله، ولما انتهت واقعة بدر بقتل أهلها لم تظهر عليهم الحزن والحداد محرّضة بذلك على الطلب بثأرهم، وظلّت كامدة لحزنها حتى أخذت ثأرها في واقعة أُحد فمثّلت بحمزة أفظع التمثيل وأشنعه، إلى غير ذلك من مواقفها المعادية للإسلام التي ذكرها المؤرخون. ويعرضها المصنف في بحوث كتابه وهي تدلّ على مدى ما تحمله الأسرة الأموية من العداء العارم والكراهية المبالغة للرسول الأعظم ﷺ.

٢ ـ وتصدّت الأسرة الأموية إلى تخذيل الراغبين في الدخول في الإسلام يقول حويطب في حديث له مع مروان بن الحكم: «والله لقد هممت

---

(١) أنساب الأشراف: ٥/ ٢٧.
(٢) طبقات ابن سعد: ١/ ١٨٦ ط مصر.
(٣) الغدير: ٨/ ٢٧٣.
(٤) العضاة: جمع عضة وهي الشجر العظيم الذي له شوك، النهاية: ٣/ ٢٥٥.
(٥) مجمع البيان: ١٠/ ٥٥٩.

بالإسلام غير مرة، كل ذلك يعوقني أبوك، يقول: تضع شرفك، وتدع دين آبائك، لدين محدث، وتصيرنا بعار»[1] إلى غير ذلك من الوسائل التي استخدمها الأمويون لتخدير الناس وصرفهم عن الدخول في الإسلام.

٣ ـ وتتابعت الأحداث الرهيبة على النبي ﷺ بعد عمّه أبي طالب حامي الإسلام وناصره، فأجمعت قبائل قريش على قتله، وأحاطت القوى المسلّحة بداره، في غلس الليل تحرسه، فخرج ﷺ هارباً منهم إلى يثرب، وأبقى الإمام أمير المؤمنين علياً عليه السلام في فراشه موهماً عليهم بأنه هو النبي ﷺ وهذه العملية الفدائية من أهم الخدمات التي قدّمها الإمام للإسلام، فقد أنقذ بها الرسول الأعظم ﷺ ووقّاه بنفسه من شرّ عظيم.

وعلى أي حال فإنّ النبي ﷺ حينما استقرّ في يثرب أخذ أبو سفيان يثير عليه الأحقاد، ويوغر الصدور ويؤلّف الجموع، ويقود الجيوش لمناجزته، فكانت الهجمات العسكرية تتوالى على المسلمين، وهي تستهدف إزالة الوجود الإسلامي من يثرب وإعادة السيطرة الجاهلية عليها.

وقد مُنيت جميع المخططات التي وضعها أبو سفيان بالخيبة والخسران، فقد أعزّ الله رسوله، وأيّده بنصره، وأذلّ المشركين والكافرين. وعلى أيّ حال فإنّ الأسرة الأموية قد تميّزت من بين القبائل القرشية ببغضها العارم، وكراهيتها الشديدة للنبي ﷺ.

(٣)

ويعود السبب في عداء الأمويين للإسلام إلى أمرين:

١ ـ التنافس الشديد بين الهاشميين والأمويين، ومصدره هو التباين الذاتي بينهما، فالأسرة الهاشمية تمثل الشرف والنبل والنخوة والحمية، وسائر

---

(١) تأريخ ابن كثير: ٨/ ٧٠.

النزعات الخيرة، والأسرة الأموية تمثّل الأنانية والخسّة، واللؤم، ولم يؤثر عنهم أيّ بادرة من بوادر الخير والمعروف، يقول فيهم الجاحظ: «ليس لهم قدم مذكور ولا يوم مشهود، فلا سابقة ولا جهاد، وإذا كان شيءٌ من هذا فإنما يكون فيما يضر الناس»[1].

إنَّ النفوس الأموية مليئة بالحقد، ومترعة بالكراهية للهاشميين الأمر الذي دعاهم إلى مقاومة الدعوة الإسلامية، وعدم الإيمان بها. وقد أدلى بذلك الحكم بن هشام في حديث له مع أبي جهل يقول له: (تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، حتى إذا تحاذينا على الركب، وكنا كفرسي رهان، قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك مثل هذا، واللات لا نؤمن به، ولا نصدقه)[2].

إنهم لم يؤمنوا بالنبي ﷺ وجحدوا رسالته، وأصروا على غيّهم وتمرّدهم، ولما أخذتهم سيوف المسلمين، وظهر أمر الله وهم له كارهون، أظهروا الإسلام بألسنتهم، ولم ينفذ إلى مشاعرهم ـ حقناً لدمائهم، وصيانة لأرواحهم.

٢ ـ وقد نفرت طباع الأمويين من الإسلام، وكرهوه إلى حدّ بعيد وذلك للأمور التالية:

أ ـ إنَّ الإسلام يتنافى مع ميولهم وأطماعهم، وذلك بما سنّه من النظم الاقتصادية الخلاّقة الهادفة إلى تطوير الحياة الاقتصادية، ورفع مستوى المعيشة، وذلك بأمره بالعمل وحثّه على الكسب، ومنعه على الاحتكار والاستغلال والربا وغيرها من الوسائل التي توجب تضخم الثراء الفردي على حساب الأمة بغير وجه مشروع، وهذا النظام بطبيعته يناهض الحياة الاقتصادية

---

(١) حياة الإمام الحسن: ١/ ٢١.

(٢) المصدر السابق.

السائدة في مكة وغيرها من بلاد الجزيرة العربية التي ألفت النهب، والعيش على موائد السلب، واستحبت الربا والغبن والظلم. لقد أعلن الإسلام تحريمه لهذه الأمور منذ بزوغ نوره، ودعا إلى مناهضتها ومقاومتها بجميع الطرق والوسائل.

وقد ثقل على الأمويين وسائر القوى النفعية ذلك، فهبت إلى مناجزة الدعوة الإسلامية، وإعلان العداء المسلّح عليها.

ب ـ إنَّ الإسلام ساوى بين جميع الناس وهدم جميع الحواجز التي بينهم، وجعلهم سواسية كأسنان المشط لا فضل لأحد على أحد إلاّ بالتقوى وعمل الخير. وكانت هذه المساواة العادلة تتنافى مع طبيعة المجتمع الجاهلي الذي بُني على التفاوت والتمايز والتفاخر.

لقد ورمت أنوفُ الأمويين وغيرهم من سادات قريش، وتميزوا غيظاً وموجدة حينما ساوى الإسلام بينهم وبين الرقيق والدهماء ولم يرَ لهم فضلاً أو تفوقاً عليهم، وأنّهم جميعاً على صعيد واحد أمام الله والقانون.

وآمن الرقيق والضعفاء بالإسلام، وسارعوا إلى حمايته غير حافلين بتعذيب جبابرة قريش لهم، ولا بما يلاقونه من صنوف التنكيل والاضطهاد والإرهاق، وقد صمدوا أمام الأعاصير، وسخروا أي سخرية بأوثان قريش وأصنامهم وعاداتهم وتفكيرهم، وأظهروا أنهم سيحتلون قمة الشرف وذروة المجد، لإسراعهم إلى الإيمان بالإسلام، وحمايتهم لمبادئه ورسالته.

وقد ورمت قلوب الأمويين وجبابرة قريش من ذلك، فهبوا إلى إعلان الحرب على الرسول الأعظم ﷺ ومناجزة مَن آمن به بما يملكون من وسائل الحرب.

ج ـ ولم يألف الأمويون وسائر القوى الجاهلية، طبيعة النظام والحضارة التي أعلنها الإسلام في مجالات الحياة العامة كصيانة الحقوق، وذلك بما رسمه من الحدود التي تقضي على روح الاعتداء والبغي.

(٤)

واندحرت القوى الجاهلية بعد فتح مكة، ودمرت جميع قواعدها وأوكارها تدميراً ساحقاً، وانتصر الإسلام انتصاراً عظيماً، فقد خفقت ألويته الفاتحة في الجزيرة العربية، وهي تحقق المزيد من الانتصارات والفتوح، وأسرعت القبائل العربية إلى اعتناق الإسلام، والدخول في حضيرته، وقد دخل الأمويون فيمن دخل في الإسلام، ولكن لا عن إيمان بهديه، وتبصّر لواقعه، وإنما كان عن خوف عميق، وذعر شديد، فقد علموا أنّ سيوف المسلمين ستأخذهم إن لم يبادروا إلى اعتناق الإسلام.

وقد قابلهم المسلمون بمزيد من الاستهانة والتحقير، فاعتزلوهم ولم يشاركوهم في أي أمر من أمورهم، وذلك لما يعتقدونه فيهم من الإسلام المبطن بالكفر، مضافاً إلى ما لاقوه منهم في بداية الدعوة الإسلامية من الاضطهاد والتنكيل.

واستشف الرسول الأعظم ﷺ ـ من وراء الغيب ـ أنّ الأسرة الأموية تشكّل خطراً عظيماً على المسلمين، فأمر بنفي الحكم بن أبي العاص مع ولده إلى الطائف، وظلّوا منفيين طيلة خلافة الشيخين[1] وقد استأذن الحكم قبل نفيه على النبي ﷺ فقال ﷺ: «إئذنوا له لعنة الله عليه وعلى من يخرج من صلبه إلاّ المؤمنين، وقليل ما هم ذووا مكر وخديعة، يعطون الدنيا وما لهم في الآخرة من خلاق»[2].

وقد لعن رسول الله ﷺ مروان بن الحكم وهو في صلب أبيه[3] ولما وُلد جِيىء به إليه ﷺ فقال هو الوزغ ابن الوزغ الملعون ابن الملعون[4].

---

(١) أنساب الأشراف: ٥/ ٢٧.
(٢) السيرة الحلبية: ١/ ٣٣٧.
(٣) مجمع الزوائد: ١٠/ ٧٢.
(٤) مستدرك الحاكم: ٤/ ٤٧٩.

كما قابل ﷺ أبا سفيان وابنه معاوية بمزيد من الاستهانة والذم، فقد رأى ﷺ أبا سفيان مقبلاً على حمار، ومعاوية يقوده، ويزيد ابنه يسوقه فقال ﷺ: «لعنَ الله القائد والراكب والسائق»[1]. وأقبل أبو سفيان ومعاوية فقال ﷺ: «اللهم عليك بالأقيعس»، وسأل ابن البراء أباه عن الأقيعس فقال له: «إنه معاوية»[2].. وقد اختص معاوية عن بقية أسرته بالاستخفاف والاستهانة فقد أقبلت إمرأة إلى رسول الله ﷺ أرادت التزويج بمعاوية فنهاها ﷺ عن ذلك وقال لها: «إنه صعلوك»[3].

وقال ﷺ لأصحابه: «إنه يطلع من هذا الفج رجل يحشر على غير ملتي، فتشوّق إليه المسلمون، وإذا بمعاوية قد طلع منه[4]. ودعا ﷺ على معاوية وابن العاص فقال: «اللهم اركسهم في الفتنة ركساً، اللهم دعّهم إلى النار دعّا»[5].

لقد كان معاوية من الصعاليك الساقطين في نظر المسلمين، حتى أن أحد أشراف العرب وفد على النبي.ﷺ فلما أراد الانصراف منه أمر ﷺ معاوية أن يخرج خارج المدينة معه، وكان الحرّ شديداً، ومعاوية حافي القدمين، فقال للرجل: أردفني خلفك.

أنت لا تصلح أن تكون رديف الأشراف والملوك.

ألا فاعطني نعليك أتقي بهما حرارة الشمس.

أنت أحقر من أنْ تلبس نعلي.

---

(١) تاريخ الطبري: ١١/ ٣٥٧.
(٢) كتاب صفين: ٢٤٤.
(٣) تاريخ الخميس: ٢/ ٢٩٦.
(٤) تاريخ الطبري: ١١/ ٣٥٧.
(٥) وقعة صفين: ص ٢٤٦، مسند أحمد: ٤/ ٤٢١.

ما أصنع وقد احترقت رجلاي؟

امش في ظل ناقتي، ولا تصلح لأكثر من هذا[1].

تعساً للزمان، وأفٍ للدهر، مثل هذا الصعلوك النذل صيروه (كسرى العرب).

وقد استشف ﷺ من وراء الغيب أنّ معاوية سوف يلي أمور المسلمين، فحذّرهم منه ودعاهم إلى مناهضته فقال ﷺ: «إذا رأيتم معاوية يخطب على منبري فاضربوا عنقه».

وكان الإمام الحسن إذا حدث بهذا الحديث يقول متأثراً: «فما فعلوا ولا أفلحوا»[2].

هكذا كان معاوية في زمان النبي ﷺ مهان الجانب، محطم الكيان، يلاحقه العار، ويتابعه الخزي يتلقى من النبي الاستهانة والتحقير. ورأى النبي ﷺ بني أمية في منامه ينزون على منبره نزو القردة والخنازير فتألّم ﷺ وأنزل الله عليه قوله: **﴿وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلاّ فتنة للناس﴾** وما رُؤي ﷺ بعد ذلك ضاحكاً[3].

وعلى أي حال فإن الأسرة الأموية قد حطم الإسلام كيانها، وبقيت

---

(١) حياة الإمام الحسن: ٢/١٣.

(٢) تناولت لجان الوضع والتحريف التي وضعها معاوية إلى تغيير الحديث الشريف وتحريفه، فرووه بصورة أخرى، رواه الخطيب في تاريخه عن جابر مرفوعاً، قال رسول الله ﷺ «إذا رأيتم معاوية يخطب على منبري فأقبلوه فإنه أمين» وروى الحاكم في تاريخه عن ابن مسعود قال رسول الله ﷺ: «إذا رأيتم معاوية على منبري فأقبلوه فإنه أمين مأمون» ومتى كان ابن هند أميناً أو مأموناً، أبمحاربته لوصي رسول الله ﷺ وباب مدينة علمه، أم لولوغه في دماء المسلمين التي تكشف عن واقعه الجاهلي وعدم إيمانه وعدم تحرجه في الدين؟

(٣) تاريخ الخطيب: ٩ ـ ٤٤، تفسير الطبري: ٥/٢٧٧، أسد الغابة: ٣/١٤.

ذليلة، ليس لها أي مركز اجتماعي في حياة النبي ﷺ وطيلة خلافة أبي بكر فقد بقت على ما هي عليه من الذلّ والهوان.

(٥)

ولمّا آل الحكم في الإسلام إلى الخليفة الثاني: عمر بن الخطاب، عني بالأمويين أي عناية، فأعاد إليهم النضارة بعد الذبول، ودفع بهم إلى المراكز الاجتماعية المهمة في الإسلام، فاستعمل يزيد بن أبي سفيان والياً على الأردن، وعهد بولاية الشام إلى معاوية، ولما هلك يزيد ضم إلى معاوية عمل أخيه، وقد شكر له أبو سفيان ذلك[١].

وقد بالغ عمر في تسديد معاوية وتركيزه فأعطاه من الصلاحيات ما لم يعطها لغيره من الولاة.

لقد كان عمر دقيق المحاسبة لعمّاله، وشديد المراقبة لهم، فقد تعتع بخالد بن الوليد عامله على (قنسرين) حينما بلغه أنه أعطى الأشعث عشرة آلاف، فأمر به فاعتقله بلال الحبشي، وقيّده بعمامته، وأوقفه بين يديه على رجل واحدة، وهو مكشوف الرأس، مهان الجانب أمام رجال الدولة، ووجوه الناس، فسأله عن العشرة آلاف أهي من ماله أم من مال الشعب؟ فإن كانت من ماله فهو الإسراف وإن كانت من مال الأمة فهي الخيانة، ثم عزله عن منصبه، ولم يولّه حتى مات.

وكذلك تعتع أبا هريرة، وأهانه فقال له: «علمت أني استعملتك على البحرين بلا نعلين!! ثم بلغني أنك ابتعت أفراساً بألف دينار وستماية دينار، فقال له أبو هريرة: «كانت لنا أفراس تناتجت، وعطايا تلاحقت» فلم يعن به ورد عليه قائلاً: «حسبتُ لك رزقك، ومؤنتك، وهذا فضل فأده» فثار أبو

(١) الفتنة الكبرى.

هريرة وقال له: «ليس لك ذلك» فوثب إليه عمر وقال له: «بلى وأوجع ظهرك» ثم علاه بالدرة حتى أدماه، وأخذ منه الأموال، وعزله عن منصبه.

وشدة عمر مع عماله يعرفها المتتبع، فقد وصفت بالشدة والصرامة، فقد عزل كلاًّ من أبي موسى الأشعري، وقدامه ابن مظعون، والحارث بن وهب[1] وغيرهم، ولكنه وقف مع معاوية موقفاً يباين سيرته مع عماله، فلم يحاسبه ولم يراقبه، وفوّض له العمل برأيه، يعمل ما يشاء، وقد قال له: «لا آمرك ولا أنهاك» وقد تواترت لديه الأخبار بأن معاوية قد انحرف على الطريق القويم، فبدد في ثروات الأمة، ولبس الحرير والديباج، فقال:

«ذاك كسرى العرب».

ومتى كان هذا الصعلوك كسرى العرب، وقد أذلّه الإسلام وحطمه، ـ كما دَللنا على ذلك ـ وعلى تقدير أن يكون كسرى العرب، فهل يُباح له ما حرّم الله، ويبتعد في سلوكه عن القيم الإسلامية التي حرّمت على ولاة المسلمين، البذخ والإسراف من بيت المال، كما أنه ليس من واقع الإسلام في شيء، الكسروية التي أضفاها الخليفة على معاوية.

ومهما يكن من أمر فإنّ معاوية كان أثيراً عند عمر إلى حدّ بعيد، فقد منحه ولاية الشام الذي هو من أهم الأقطار الإسلامية يتصرف فيه حيثما يشاء، فلم يصغ إلى أي شكاية ضده، فقد منحه الرضا والقبول، وقد سعى جماعة من خيار الصحابة والمتحرجين في دينهم ضده، وعرضوا عليه مخالفاته للسنّة، فزجرهم وأثنى عليه عاطر الثناء وأطيبه، فقال لهم: «دعونا من ذمّ فتى من قريش من يضحك في الغضب، ولا ينال ما عنده إلاّ على الرضا، ولا يؤخذ من فوق رأسه إلاّ من تحت قدميه»[2].

---

(١) الإصابة في ترجمة الحارث بن وهب.

(٢) الاستيعاب المطبوع على هامش الإصابة: ٣/ ٣٧٧.

وهذا الثناء يحمل في طياته أعمق الود والولاء، وهذا ما أطغى معاوية وأرهف عزمه، ودفعه إلى تنفيذ خططه الأموية الرامية إلى الاستيلاء على الحكم، واستعباد المسلمين وإذلالهم.

ولم يكتفِ الخليفة الثاني بهذا التأييد لمعاوية وإنما نفخ فيه روح الطموح، ودفعه إلى اتخاذ جميع الوسائل للظفر بالخلافة، فقد قال لأعضاء الشورى: «إن تحاسدتم وتقاعدتم، وتدابرتم وتباغضتم، غلبكم على هذا الأمر معاوية بن أبي سفيان» وكان إذ ذاك أميراً على الشام[1].

وليس من شك في أن ذلك قد بلغ معاوية، وحسب له ألف حساب. ونحن بدورنا نسأل لِمَ هذا الاهتمام البالغ بشأن معاوية دون بقية عمّاله وولاته، فهل أسدى معاوية نفعاً للمسلمين، أو قام بعمل إيجابي خدم به القضية الإسلامية، حتى يستحق هذا الإكبار والتقدير؟!!.

وهل انحصرت الصلاحيات الإدارية في معاوية حتى يولّيه أمر هذا القطر العظيم؟

والشيء المهم الذي قام به عمر في بناء الكيان الأموي، هو أنه حوّل الخلافة الإسلامية لهم بأسلوب عميق دلّ على مدى براعته السياسية، فقد فتل حبل الشورى، وهَمَّ على تنفيذ مخططه الرهيب المؤدي إلى حتمية انتقال الخلافة للأمويين فقد اختار لأعضاء الشورى جماعة أكثرهم من الحزب الأموي والحاقدين على الإمام أمير المؤمنين عليه السلام فقد اختار عثمان عميد الأمويين، وعبد الرحمن بن عوف صهر عثمان، وسعد بن أبي وقاص، وأخواله بني أمية، واختار طلحة التيمي وهو من أسرة أبي بكر الذي نافس الإمام على الخلافة، ولم يكن هناك أحد من أعضاء الشورى ممن يميل للإمام

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ١/ ١٨٧.

ما سوى الزبير بن العوام. وأناط أمر الشورى وانتخاب الخليفة من بعده بعبد الرحمن بن عوف، فجعل رأيه مصدر الصواب، وفصل الخطاب، ولما عرض ذلك على الإمام خرج وهو ملتاع حزين فالتقى بعمّه العباس فبادره قائلاً:

يا عمّ لقد عُدلت عنّا.

مَنْ أعلمك بذلك؟

لقد قرن بي عثمان... وقال «كونوا مع الأكثر» ثم قال: «كونوا مع عبد الرحمن». وسعد لا يخالف ابن عمه عبد الرحمن، وعبد الرحمن صهر لعثمان وهم لا يختلفون، فأما أن يوليها عبد الرحمن عثمان أو يوجليها عثمان عبد الرحمن»[1].

لقد كشف عليه السلام بحديثه المؤامرة التي دبرها عمر ضده، وأنه قد حوّل الخلافة عنه، وقد كوت هذه الصور المؤلمة مشاعره وعواطفه، فراح يقول بعد سنين:

«حتى إذا مضى ـ يعني عمر ـ لسبيله جعلها في جماعة زعم أني أحدهم، فيالله والشورى متى اعترض الريب فيّ مع الأول منهم، حتى صرتُ أقرن إلى هذه النظائر».

أجل والله متى اعترض الريب فيه مع أبي بكر حتى صار يقرن بهؤلاء، فهل فيهم مَنْ هو كفؤ للإمام في دينه وعلمه وجهاده وسابقته للإسلام، ولكنّ الأحقاد والضغائن المترعة بها نفوس القرشيين هي التي دعتهم أن يقفوا مع الإمام مثل هذا الموقف المرير.

وعلى أي حال فإنّ الخليفة الثاني هو الذي أقام الأسرة الأموية وأفاض

---

(١) الطبري: ٥/ ٣٥.

عليها جميع مقومات الحياة، بعدما أماتها الإسلام وحطّم كيانها.

ومن المؤسف حقاً إنّ الخليفة الثاني قد وجّه جميع الضربات القاسية إلى العترة الطاهرة التي هي عديلة القرآن الكريم، فقد كان من أشد الحاقدين عليها، والمنافسين لها، فهو أول من نادى بهذا الشعار:

لا تجتمع النبوة والخلافة في بيت واحد.

وقد علل ذلك في حديثه مع ابن عباس، بأنّ بني هاشم إذا آل إليهم الحكم في الإسلام، فإنهم يجحفون في المسلمين، ويعلون عليهم.

وهذا الحديث عار عن الواقعية والأصالة، فإنّ العترة الطاهرة قد استمدت أخلاقها من رسول الله ﷺ فهي أشبه الناس به في ورعه وعلمه، والتزامه بحرفية الإسلام، وهي بعيدة كل البعد عن الإجحاف بالناس، والعلوّ عليهم، فقد زكاهم الله، ونفى عنهم كل زيغ، وأذهب عنهم الرجس، وطهّرهم تطهيراً، وأمر بمودتهم وحبّهم، وجعلهم النبي ﷺ سفن النجاة وأمن العباد، وعدلاء الذكر الحكيم، وأنه حرب لمن حاربهم، وسلمٌ لمن سالمهم. فهل خفي ذلك على أبي حفص وحُجِبَ عنه، حتى وصفهم بما هو مجافٍ لواقع سيرتهم وخلقهم.

لقد تنكر عمر يوم السقيفة لجميع ما أثر عن النبي ﷺ في عترته وذريته، فراح يشتد ومعه الشرطة والجنود، وهو يحمل مشعَل النار ليحرق بيت علي، فهجم وهو مغيظ محنق يصيح بأعلى صوته: «والذي نفس عمر بيده ليخرجن أو لأحرقنها على مَن فيها»[1].

---

(١) تهديده بحرق دار الإمام أمير المؤمنين تبعت بالنصوص المتواترة، ودوّنه أغلب المؤرخين وفيما يلي بعض المصادر التي دونته: الإمامة والسياسة: ١/ ١٢ ـ ١٣، شرح النهج لابن أبي الحديد: ١/ ٣٤، تاريخ الطبري: ٣/ ٢٠٢ ط دار المعارف، تاريخ أبي الفداء: ١/ ١٥٦، تاريخ اليعقوبي: ٢/ ١٠٥، أعلام النساء: ٣/ ٢٠٥، الأموال لأبي عبيد: ص ١٣١، مروج =

فعذلته طائفة، وحذرته من عقوبة الله قائلة له إنّ فيها فاطمة.

فزجرهم وقال غير مُبال ولا مكترث «وإن وإن».

واقتحم على الإمام داره فأخرجه منها بعنف، وانطلق به إلى أبي بكر، وهو يلحّ عليه بضرب عنقه إن لم يستجب لبيعته، فأسرعت إلى إنقاذه حبيبة النبي ﷺ وبضعته فاطمة الزهراء عليها السلام فخاف أبو بكر أنْ تندلعَ نيران الثورة وترجع إلى المسلمين حوازب أحلامهم، فأطلق صراحه، وطفق علي عليه السلام يبكي أمرّ البكاء متجهاً إلى مثوى الرسول ﷺ وهو يناجيه بهذه الكلمات الحزينة التي خلطها بدموع عينيه قائلاً:

«يا ابن أمّ إنَّ القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني»[1].

لقد بالغ عمر في اضطهاد العترة الطاهرة وإنزال أشدّ الضربات القاسية بها، وقد اشترك هو وصاحبه بفرض الحصار الاقتصادي عليها، فقد قاما بما يلي:

١ ـ منع فاطمة فدكاً، ومصادرتها، وقد منحها رسول الله ﷺ لها، وقد طلب منها أبو بكر أن تقيم البيّنة على دعواها، فقدمت له عليّاً والحسن والحسين وأمَّ أيمن، فردّ شهادتهم، ورجعت وديعة النبي ﷺ ووحيدته، تتعثّر بأذيالها من الألم والخيبة.

أفهل حجبت عن الشيخين آية التطهير وآية المباهلة، وآية المودّة، وآية الولاية، وسورة هل أتى، وغيرها من آيات الذكر الحكيم التي أشارت بفضل أهل البيت عليهم السلام؟

= الذهب: ١/ ٤١٤، الإمام علي لعبد الفتاح مقصود: ١/ ٢١٣.

(١) حياة الإمام الحسن: ١/ ١٥٣ وفيه عرض مفصّل للأحداث الرهيبة التي رافقت بيعة أبي بكر.

وهل خفيت عليهم الأخبار التي آثرت عن النبي ﷺ في فضل عترته، وقد حفظها المسلمون، وأجمعوا على روايتها وتدوينها، وكان آخر ما فاه به النبي ﷺ في فضلهم، وهو على فراش الموت أن قال للمسلمين:

«أيها الناس يوشك أن أقبض قبضاً سريعاً فينطلق بي، وقد قدمت إليكم القول معذرة إليكم، ألا إني مخلف فيكم كتاب الله عز وجل وعترتي أهل بيتي».

ثم أخذ بيد علي فرفعها وقال:

«هذا علي مع القرآن، والقرآن مع علي، لا يفترقان حتى يردا عليّ الحوض»[1].

أما كانَ هذا كافياً لتصديق شهادة العترة الطاهرة، وإقرار يد الصديقة على فدك وعدم مقابلتهم بهذه القسوة والجفوة؟

وقد أثّر هذا الحرمان والإجحاف في نفس الصدّيقة تأثيراً بالغاً، فخلدت إلى الحزن والبكاء، حتى ذبلت منها غضارة العمر، وصارت كأنّها صورة جثمان، فقد فتكت الأمراض بجسمها النحيل، وأضر الأسى بقلبها الرقيق المعذّب، ولما شعرت بدنو الأجل المحتوم منها، استدعت الإمام أمير المؤمنين عليه السلام وعهدت إليه أن يواري جسدها الطاهر في غلس الليل البهيم، ولا يُشعِرُ بذلك أبا بكر وعمر وسائر مَن يواليهما، وهو دليل على مدى كراهيتها وبغضها للرجلين[2].

---

(١) الصواعق المحرقة.

(٢) جاء في الحديث عن النبي ﷺ في حق فاطمة: «إن الله يغضب لغضبك ويرضا لرضاك» ذكره الحاكم في مستدركه: ٣/١٥٣، وابن الأثير في أسد الغابة: ٥/٥٢٢، وابن حجر في تهذيب التهذيب: ١٢/٤٤١، والذهبي في ميزان الاعتدال: ٢/٧٢ والمحبّ الطبري في ذخائر العقبى: ص ٣٩.

وقد نفذ الإمام عليه السلام وصيتها فدفنها في ظلام الليل، وأخفى ذلك على أبي بكر وعمر[1]. ورجع عليه السلام بعد مواراته للصدّيقة، وهو حزين النفس، خائر القوى، قد أحاطت به الشجون وألم به الأسى، وقد أعرض عن القوم فلم يشترك معهم في أي شأن من شؤون دولتهم وحكمهم.

٢ ـ واقتضت سياسة أبي بكر وعمر أن يمنعا العترة الطاهرة الذي فرضه الله لها، وقد نصّ عليه الكتاب العزيز، قال تعالى: ﴿**وما غنمتم من شيء فإنّ لله خمسه ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم التقى الجمعان والله على كل شيء قدير**﴾[2].

وقد أرسلت سيدة النساء إلى أبي بكر أن يدفع لها ما بقي من خمس خيبر، فأبى أنْ يعطيها شيئاً[3].

والسبب في ذلك ـ فيما نحسب ـ إضعاف أهل البيت اقتصادياً حتى لا يجدون أي مجال لمناجزته ومنازعته.

وعلى أي حال فقد جهد عمر بالذات في إذلال العترة الطاهرة، وغض من شأنها، ودفعها عن مقامها الذي عينه لها رسول الله صلى الله عليه وآله.

وكان يثير الأحقاد ويوغر الصدور على سيد العترة وزعيمها الإمام أمير المؤمنين عليه السلام فقد دخل عليه السلام إلى الجامع النبوي، وعمر جالس فيه، وقد احتفت به جماعة من الّذين وترهم الإمام بسيفه في سبيل الدعوة الإسلامية، فقال عمر: «هذا قاتل أبيك» وقال لآخر: «هذا قاتل عمك» فانبرى إليه الإمام

---

(١) مسند أحمد: ١/ ٦ ـ ٩، البداية والنهاية: ٦/ ٣٣٣، صحيح مسلم: ٢/ ٧٢، سنن البيهقي: ٦/ ٣٠٠، مستدرك الحاكم: ٣/ ١٦٢.

(٢) سورة الأنفال: آية ٤١.

(٣) النص والاجتهاد: ص ١١١.

قائلاً له: «ما لك تُثير عليّ أحقاد قوم قد وترهم الإسلام، فإني لم أصب منهم ما أصبت إلاّ من أجل الإسلام وإعلاء كلمة الله»[1].

والشيء المهم أنّ هذه الإجراءات التي اتخذها عمر وأبو بكر ضد العترة الطاهرة هي التي فسحت المجال لمعاوية وغيره للتطاول على الإمام أمير المؤمنين، ومنازعته حقه، وقد أدلى بذلك معاوية في رسالته التي بعثها لمحمد بن أبي بكر، وقد جاء فيها:

«كان أبوك وفاروقه أول من ابتزه ـ يعني علياً ـ حقه، وخالفاه على أمره، على ذلك اتفقا واتسقا، ثم دعواه إلى بيعتهما فأبطأ عنهما، وتلكأ عليهما، فهمّا به الهموم، وأرادا به العظيم[2] ثم إنه بايع لهما، وسلّم لهما، وأقاما لا يشاركانه في أمرهما، ولا يطلعانه على سرّهما، حتى قبضهما الله...

وأضاف يقول: فإن يكُ ما نحن فيه صواباً، فأبوك استبدّ به ونحن شركاؤه، ولولا ما فعل أبوك من قبل ما خالفنا ابن أبي طالب، ولسلمنا إليه، ولكن رأينا أباك فعل ذلك به من قبلنا، وأخذنا بمثله»[3].

وهو تعليل وثيق للغاية، فإنه لولا منازعة الشيخين للإمام وابتزازهما حقه، لما وجد معاوية سبيلاً إلى إعلان التمرّد والبغي على الإمام.

ومهما يكن الأمر فإنّ الخليفة الثاني هو الذي أعاد مجد الأمويين ورفعهم إلى المراكز الحساسة في المجتمع الإسلامي، ومنح الخلافة إلى عميدهم عثمان بن عفان، بعدما كانوا لا يحلمون بأيّ مجد لهم في ظل الخلافة الإسلامية.

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد.

(٢) أراد بذلك محاولة الشيخين لقتل الإمام كما أشرنا إليه فيما تقدم.

(٣) المسعودي على هامش ابن الأثير: ٦/٧٨ ـ ٧٩.

(٦)

وانتهت الشورى الأموية التي فُرضت على المسلمين إلى فوز الأمويين بالحكم، فقد ارتقى دست الخلافة عثمان بن عفان، وحين توليته لمنصب الحكم، عمد إلى جعل مقدّرات الأمة الاقتصادية والسياسية بأيدي الأمويين وآل أبي معيط، وحملهم على رقاب المسلمين، فاتخذوا مال الله دولاً، وعباد الله خولاً، وهذا ما أخبر به الرسول ﷺ وحذّر منه.

وكانت أول بادرة صدرت من عثمان في تعزيز الأمويين، أن أصدر أوامره بالعفو عن الحكم بن أبي العاص الذي نفاه رسول الله ﷺ إلى الطائف، وظل منفياً طيلة خلافة الشيخين، وعند عودته إلى يثرب رآه المسلمون وهو بأقصى حال من الذل والهوان، فكان عليه مئزر خلِق وهو يسوق تيساً، فدخل دار عثمان ثم خرج، وعليه جبة خز وطيلسان[١]. وأوصله بمائة ألف[٢] وولاّه على صدقات قضاعة، وقد بلغت ثلاثمائة ألف درهم، فوهبها له[٣] وقد أدّى ذلك إلى شيوع السخط والإنكار عليه من قبل الأخيار والمتحرجين في دينهم.

لقد سخّر عثمان جميع أجهزة الدولة الإسلامية لصالح الأمويين وتركيزهم، ومنحهم الفرص المؤاتية لبلوغ أهدافهم، ونيل أمانيهم، والحصول على أضخم الثروات حتى ملكوا جميع أسباب القوة والنفوذ.

وراح الأمويون يعلنون ما أضمروه من الكفر والإلحاد، وقد أعلن زعيمهم أبو سفيان كلمة الكفر والإرتداد، فقد خاطب شباب الأمويين قائلاً لهم: «يا بني أمية تلاقفوها تلقف الكرة، فوالذي يحلف به أبو سفيان ما من

---

(١) تاريخ اليعقوبي: ٢/ ٤١.

(٢) المعارف: ص ٨٤.

(٣) أنساب الأشراف: ٥/ ٢٨٢.

جنة ولا نار، ومازلت أرجوها لكم، ولتصيرن إلى صبيانكم ورائه»[1].

وسمع ذلك عثمان فلم يؤثر عنه أنه ردعه أو زجره أو عاتبه، وإنما راح يغدق عليه أموال المسلمين، فقد وهبه مائتي ألف من بيت المال[2].

فهل هذه الأموال ملك لبني أمية أم لعثمان بالذات، حتى تمنح لأبي سفيان؟

وانطلق أبو سفيان إلى قبر سيد الشهداء حمزة، فركله برجله وقال: «يا أبا عمارة، إنّ الأمر الذي اجتلدنا عليه بالسيف أمس في يد غلماننا يتلعبون به»[3]. ثم مضى مثلوج القلب، ناعم البال. ودخل على عثمان بعد أن فقد بصره فقال: «اللهم اجعل الأمر أمر جاهلية، والملك ملك غاصبية، واجعل أوتاد الأرض لبني أمية»[4].

فهل يصح من خليفة المسلمين وولي أمرهم، أنْ يغضي عن أبي سفيان بعدما قال كلمة الكفر، فيمنحه الرضا والقبول، ويغدق عليه الأموال والهبات؟

ومهما يكن الأمر فإنّ عثمان انطلق يبني لبني أمية الملك والسلطان ويؤسس لهم الدولة، ويمكنهم من رقاب المسلمين، وللاستدلال على ذلك نعرض ما يلي:

١ ـ وزراؤه:

وعمد عثمان إلى اتخاذ الأمويين وزراء له، وكان من أبرزهم مروان بن الحكم، فكان مستشاره الوحيد، فلم يصدر أمراً إلاّ عن رأيه، حتى قيل أنه هو الخليفة لا عثمان، ولم يؤثر عنه أنه اتخذ وزيراً أو مستشاراً من صلحاء المسلـ ـين وأخيارهم. وكان ذلك من أسباب النقمة الكبرى عليه.

---

(١) مروج الذهب: ١/ ٤٤٠.
(٢) شرح النهج لابن أبي الحديد: ١/ ٦٧.
(٣) حياة الإمام الحسن: ١/ ٣١٢.
(٤) تاريخ ابن عساكر: ٦/ ٤٠٧.

٢ ـ هباته للأمويين:

ومنح عثمان بني أمية الثراء العريض، وأجزل لهم المزيد من العطايا والهبات، حتى صارت ثروة الأمة وإمكانياتها الاقتصادية محصورة فيهم، بينما يرزح المجتمع الإسلامي في كابوس من الفقر والحرمان. ونعرض فيما يلي بإيجاز لبعض هباته لهم:

أ ـ الحارث بن الحكم

ووهب عثمان إلى الحارث بن الحكم ثلاثمائة ألف درهم(١) ووردت إبل الصدقة إلى المدينة فوهبها له(٢). كما أقطعه سوقاً في المدينة يعرف بتروز، بعد أن تصدّق به رسول الله ﷺ على المسلمين(٣).

ب ـ عبد الله بن سعد

ومنح أخاه من الرضاعة عبد الله بن سعد بن أبي سرح جميع ما أفاء الله به من فتح افريقية بالمغرب، وهي من طرابلس الغرب إلى طنجة، ولم يشرك في عطائه أحداً من المسلمين(٤).

ج ـ سعيد بن العاص:

ومنح عثمان سعيد بن العاص، مائة ألف درهم(٥) وهو من فسّاق بني أمية وفجّارهم.

---

(١) أنساب الأشراف: ٥/ ٥٢.

(٢) أنساب الأشراف: ٥/ ٢٨.

(٣) شرح النهج لابن أبي الحديد: ١/ ٦٧.

(٤) شرح النهج لابن أبي الحديد: ١/ ٦٧.

(٥) الأنساب: ٥/ ٢٨.

د ـ الوليد بن عقبة:

والوليد بن عقبة أخو عثمان من أمّه، وكان فاسقاً فاجراً، لا يرجو لله وقاراً. قدم الكوفة فاستقرض من عبد الله بن مسعود أموالاً طائلة من بيت المال، فأقرضه، وطلبها منه عبد الله، فكتب الوليد إلى عثمان بذلك، فرفع عثمان مذكرة إلى ابن مسعود، جاء فيها: «أما أنت خازن فلا تعرض للوليد، فيما أخذ من بيت المال» فطرح ابن مسعود المفاتيح وقال:

«كنتُ أظنُّ أني خازن للمسلمين، فأما إذا كنتُ خازناً لكم فلا حاجة لي في ذلك» واستقال بالوقت من منصبه وأقام بالكوفة[1].

هـ ـ مروان بن الحكم:

ومنح عثمان مروان بن الحكم ما يلي من الأموال:

١ ـ أعطاه خمس غنائم افريقية، وقد بلغت خمسماية ألف دينار[2] وقد أثار عليه ذلك سخط الأخيار والمتحرجين في دينهم، وقد هجاه عبد الله بن حنبل بقوله:

سأحلف بالله جهد اليمين ... ما ترك الله أمراً سدى

ولكن خلقت لنا فتنة ... لكي نبتلي أو تبتلى

فإن الأمينين قد بينا ... منار الطريق عليه الهدى

فما أخذا درهماً غيلة ... وما جعلا درهماً في الهوى

دعوتَ اللعينَ فأدنيته ... خلافاً لسنة من قد مضى

وأعطيت مروان خمس العبا ... د ظلماً لهم وحميت الحمى[3]

---

(١) حياة الإمام الحسن: ١/ ٢١٧.

(٢) تاريخ أبي الفداء: ١/ ١٦٨.

(٣) تاريخ أبي الفداء: ١/ ١٦٨.

٢ ـ منحه ألف وخمسين أوقية ولا نعلم أنها من الذهب أو الفضة[١].

٣ ـ أعطاه مائة ألف من بيت المال، فجاء زيد بن أرقم خازن بيت المال بالمفاتيح، فوضعها بين يدي عثمان وهو يبكي[٢] على الإسلام مما حلّ به.

٤ ـ أقطعه فدكاً ووهبها له[٣].

هذه بعض هبات عثمان للأمويين، وقد نقم عليه المسلمون، وطالبوه بتنفيذ السياسة الإسلامية، التي تحرم على المسؤولين التلاعب في مقدرات الأمة وإمكانياتها الاقتصادية ولكن عثمان لم يستجب لذلك، وراح يهب أموال المسلمين للأمويين.

وقد وصف الإمام أمير المؤمنين عليه السلام رائد العدالة الاجتماعية الكبرى في الأرض هذه السياسة التي سلكها عثمان بقوله: «إلى أن قام ثالث القوم يعني عثمان ـ نافجاً حضنيه بين نثيله ومعتلفه، وقام معه بنو أمية يخضمون مال الله خضمة الإبل نبتة الربيع».

وهذا أروع ما توصف به السياسة المنحرفة، التي تتخذ الحكم وسيلة للثراء على حساب الأمة، وتجريدها من مقوماتها الاقتصادية.

وعلى أي حال فإنّ عثمان قد سلّط الأمويين على الخزينة المركزية، وخصهم بخيرات البلاد، وجعل الثروة العامة محصورة فيهم، وهو أمر لا يقرّه الإسلام، ولم يعهده المسلمون فإنّ ثروة الأمة يجب أن تبسط على الجميع، حتى يقضى على شبح الفقر والحرمان.

---

(١) سيرة الحلبي: ٢/ ٨٧.
(٢) شرح النهج لابن أبي الحديد: ١/ ٦٧.
(٣) تاريخ أبي الفداء: ١/ ١٦٨.

ولاتـه وعُمالُـه:

وعمد عثمان إلى حصر الوظائف العامة بأيدي الأمويين، فمنحهم سلطات الأقاليم الإسلامية، ونعرض فيما يلي إلى ذلك:

١ ـ ولاية الكوفة:

وكان سعد بن أبي وقاص والياً على الكوفة فعزله عثمان عنها، وولّى عليها الوليد بن عقبة وهو من فجّار بني أمية وفسّاقهم، وكان الأولى أن يعهد بهذا المنصب الخطير إلى أهل الكفاية والقدرة من المهاجرين والأنصار الّذين أحسنوا البلاء في الإسلام، ليتولوا إدارة هذا المصر العظيم الذي هو من أهم الأمصار الإسلامية في ذلك الوقت، إلاّ أنه لم يعنِ بذلك، وقدم مصلحة الأمويين على المصلحة العامة[١].

٢ ـ ولاية البصرة:

وعزل عثمان أبا موسى الأشعري عن ولاية البصرة، واختار لها ابن خاله عبد الله بن عامر، فولاها إياه، وهو ابن أربع أو خمس وعشرين سنة[٢]. وبلغ ذلك أبا موسى، فقال للناس: «يأتيكم غلام خراج ولاج كريم الجدات والخالات والعمات يجمع له الجندات»[٣].

لقد عهد عثمان بولاية هذا الثغر المهم إلى فتىً خراج ولاج ـ كما يقول أبو موسى الأشعري ـ لأنه ابن خاله، ولم يعهد إلى أحد من خيار الصحابة وثقاتهم أمر هذا القطر العظيم، ليقوم بإصلاح الناس وهدايتهم[٤].

---

(١) حياة الإمام الحسن: ١/ ٢٣٠.
(٢) الاستيعاب المطبوع على هامش الإصابة: ٢/٢٥٣.
(٣) الكامل: ٣/٣٨.
(٤) حياة الإمام الحسن: ١/٢٤٣.

٣ ـ ولاية مصر:

وحبا عثمان أخاه من الرضاعة عبد الله بن سعد بن أبي سرح ولاية مصر، وجعل بيده أمر صلاته وخراجه[١]. وكان ذا تاريخ أسود حافل بالعار والموبقات، وقد كلف المصريين فوق ما يطيقونه، وساسهم سياسة عنف وجور، وأظهر عليهم الكبرياء حتى سئموا من حكمه، وخف أحرار مصر إلى عثمان يشكونه إليه، فلم يستجب لهم، وجرت بينهم وبينه أحداث رهيبة أدّت إلى انضمام المصريين إلى صفوف الثوار، واشتراكهم في الإطاحة بالحكم القائم[٢].

٤ ـ ولاية الشام:

وأقرّ عثمان على الشام معاوية بن أبي سفيان، وزاد في رقعة سلطانه ونفوذه، فضم إليه فلسطين وحمص، وأنشأ له وحدة شامية بعيدة الأرجاء، وجمع له قيادة الأجناد الأربعة، فكانت جيوشه أقوى جيوش المسلمين، ثم مدَّ له في الولاية أثناء خلافته كلها كما فعل عمر، وأطلق يده في أمور الشام أكثر مما أطلقها عمر، فلما كانت الفتنة، نظر معاوية فإذا هو أبعد الأمراء في الولاية عهداً، وأقواهم جنداً، وأملكهم لقلوب الرعية[٣].

لقد أتاح عثمان الفرصة إلى معاوية، فمكنه من جميع أسباب القوة، وزوده بجميع الطاقات العسكرية والمالية، حتى أصبح من أقوى الولاة وأكثرهم نفوذاً، وأصبحت مقاومته من الصعوبة بمكان.

هؤلاء بعض ولاة عثمان من الأمويين، وقد أثاروا عليه نقمة الأخيار

---

(١) الولاة والقضاة: ص ١١.
(٢) حياة الإمام الحسن: ١/ ٢٤٩.
(٣) الفتنة الكبرى.

وسخط العامة، فقد عدلوا عن القصد، ومالوا عن الطريق القويم، وساسوا الأمة سياسة عنف وجور.

وعلى أي حال فإنّ عثمان قد بذل جميع طاقاته، وسلك غير الجادة في سبيل تركيز أسرته، وتمليكها جميع أسباب القوة والنفوذ، وقد أثارت عليه الأحقاد هذه السياسة النكراء التي لم يألفها المسلمون، فهبوا جميعاً إلى مناهضته والإطاحة بحكمه.

ويضاف إلى سياسته هذه المبنية على الأثرة والاستغلال تنكيله واضطهاده لأعلام الإسلام والبانين لصروحه، كعمار بن ياسر، وأبي ذر، وعبد الله بن مسعود وغيرهم، وقد أدّى ذلك إلى تظافر القوى الإسلامية واجتماعها على خلعه، فأبى أن يخلع ثوباً ألبسه الله ـ كما يقول ـ وبقي مصمماً على سياسته المؤدية إلى نهب بيت المال وصرفه على بني أمية وآل أبي معيط، وعلى منح أقربائه أهم الوظائف في الدولة الإسلامية، كما بقي مصرّاً على اتخاذ مروان بن الحكم وزيراً له، ولما لم يتنازل عن ذلك ولم يستجب لمطالب الثوار، أحاطوا به أربعين يوماً، فقتلوه شرّ قتلة، ولم يسمحوا للمسلمين أن يواروه، وقد تكلم بنو أمية مع الإمام أمير المؤمنين في أن يتوسّط في أمره ليسمحوا الثوار لهم بمواراته، فذاكرهم الإمام في ذلك فاستجابوا له على كره، فواروه في حش كوكب: مقبرة اليهود.

وقد خلقت حكومة عثمان أسوأ الآثار في المجتمع الإسلامي، فقد باعدت بين المسلمين وبين دينهم، وفتحت بينهم باب الفوضى والفساد.

(٧)

وتناهبت سيوف الثوار جسم الخليفة عثمان، وتركوه مرمياً على وجه الأرض، لا يسمحون بمواراته، ليكون عبرةً لكل حاكم يضل عن الطريق، ويميل عن القصد.

وفزع الثوار إلى أمير المؤمنين عليه السلام وهم يهتفون لا إمام لنا غيرك يطأ بنا الطريق، ويوضح لنا القصد، وينير لنا السبيل. ورفض الإمام إجابتهم، لعلمه بما آلت إليه حالة البلاد من الفساد، والقلقل والاضطراب من جراء الحكم السابق، وان بني أمية الّذين يملكون أضخم الثروات التي نهبوها من بيت المال سيبذلونها بسخاء على مناهضة حكمه.

وأحاط الثوار بالإمام، وهم يتوسلون، ويتضرعون أن يقبل الحكم، ويجيبهم إلى ما أرادوا، فرأى عليه السلام أنه إذا أصرّ على الامتناع سيحل بالإسلام والمسلمين ما لا تحمد عقباه، فأجابهم إلى ما أرادوا، بعد أن شرط عليهم أنه سيسوسهم سياسة خاصة لا تتفق مع سياسة الخلفاء، وأنه سيحملهم على الجادة المستقيمة والطريق الواضح، ويقيم فيهم العدل ما وسعه ذلك، فأجابوه إلى ما شرط عليهم، وقد اتخذ عليه السلام فور توليته للمسؤولية من القرارات العادلة ما يلي:

١ ـ عزل جميع ولاة عثمان وعمّاله من الأمويين والسائرين في ركابهم لأنهم أظهروا الجور والفساد في الأرض.

٢ ـ مصادرة الأموال التي استأثر بها عثمان ومنحها لأقربائه، لأنها أُخذت بغير وجه مشروع.

٣ ـ إعلان المساواة العادلة بين جميع المسلمين، سواء في العطاء أم في غيره، فلا امتياز لأحد على أحد، ولا نفوذ للوجوه والأعيان، والقريب والبعيد أمام الحق والعدل سواء.

وقد استقبل المسلمون هذه المقررات بمزيد من السرور والابتهاج، لأنها مستمدة من حكم الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله ولكنّ الأمويين وسائر القوى المنحرفة عن الإسلام قد استقبلوا ذلك بكثير من القلق والوجوم والاضطراب، فأعلنوا السخط والتذمر، وخفّوا إلى الإمام يطلبون منه أن يغير

منهج حكومته، ويسير فيهم بسيرة من قبله من الخلفاء، فلم يعن بهم، وأصر على إقامة العدل وتنفيذ سياسة الرسول ﷺ وسيرته، ولما يئسوا منه أعلنوا البغي والتمرد، ولم يجدوا وسيلة يلجأون إليها ما سوى المطالبة بدم عثمان، فاتخذوه شعاراً لهم، يبكون عليه ظاهراً، ولكنهم في الحقيقة إنما يبكون على مصالحهم ومنافعهم.

وخفوا سراعاً إلى عائشة فالتحقوا بموكبها في مكة فبذلوا لها الأموال، ومنوها بتحقيق رغباتها ونفوذها إذا انضمت إلى سلكهم، فأجابتهم إلى ذلك والتحق بهم رجال الحكم المباد، ومعهم الأموال التي اختلسوها من المسلمين، كما انضم إليهم طلحة والزبير، وأسندوا إلى عائشة القيادة العسكرية العامة، واتخذوها إماماً لهم، يغرون بها السذج والبسطاء، وقد موّهوا على الغوغاء أنهم خرجوا مطالبين بدم عثمان.

وعائشة هي أول من أمال حرفه، وأفتت بقتله، وطلحة كان من أقوى العناصر المعادية له، والمشتركة بدمه، وكذلك الزبير.

لقد تظافرت هذه القوى الباغية على حرب ابن أبي طالب رائد العدالة الكبرى في الأرض، وقد زحفت إلى البصرة محاولة إطفاء نور الله، ومناجزة سيد المسلمين بعد النبي ﷺ.

وقد صبغت الأرض بالدماء، وأطاحت بالرؤوس والأيدي، وشاع الحزن والحداد والثكل بين المسلمين، ولم يرع هؤلاء البغاة حرمة الإسلام التي انتهكت في هذه الحرب، فقد باعدت ما بين المسلمين، ونشرت الأحقاد والضغائن فيما بينهم، كما مهدت السبيل إلى معاوية، وعبّدت له الطريق لإعلان التمرّد على الإمام.

وعلى أي حال فإنّ للأمويين ضلعاً كبيراً في حرب الجمل، فهم الّذين أوقدوا نارها، وأثاروا لهبها في سبيل أطماعهم ومنافعهم التي ضيعت على

المسلمين أغلى الفرص، في توطيد أركان العدالة والحرية والمساواة، وإبراز المفاهيم الإسلامية، إلى الشعوب المتعطشة إلى هدي الإسلام.

إنّ الشرق العربي في جميع مراحل تاريخه، لم يشاهد حاكماً كالإمام أمير المؤمنين عليه السلام في عدله ورعايته لحقوق الإنسان، على اختلاف نزعاته وميوله، وقد حاول عليه السلام أن يطبق في دنيا العرب والإسلام سياسته النيرة المشرقة التي تقضي على روح الغبن والظلم، وتقيم العدل بما له من المفاهيم الرحّبة، ولكن الأمويين قد أقاموا الدنيا وأقعدوها عليه، وهم يبكون على عثمان، وهم بعلم الله لا يرجون لعثمان وقاراً، ولا يهمهم دمه، وأين هم عنه حين حوصر أربعين يوماً، وجيوش معاوية مرابطة على الحدود لم يسمح لها بنجدته وإنقاذه من أيدي الثوار.

وعلى أي حال فإن الأمويين بعد فشل موقعة البصرة قد انطلقوا إلى دمشق، انضموا إلى عميدهم معاوية، وهم يعقدون المؤتمرات المتوالية لدراسة الموقف، واتخاذ السبل التي تضمن لهم النجاح في الحرب التي سيعلنونها على حكومة الإمام عليه السلام وأحرز معاوية نصراً سياسياً كبيراً، فقد التحق بموكبه دهاة العرب، وساسة المكر والخداع كعمر بن العاص والمغيرة بن شعبة وأمثالهما ممن فروا عن عدل الإمام علي عليه السلام وثقل عليهم العيش في ظل حكمه الهادف إلى تحقيق المساواة بين المسلمين.

وقد وجد بهم معاوية خير عون لتنسيق المقررات، ووضع المخططات، لتنفيذ السياسة الأموية الرامية إلى إزالة الكيان العلوي من دُنيا العرب والإسلام.

وقد عرض عليهم معاوية الموقف الدقيق، وبعد دراستهم له دراسة عميقة شاملة، اتخذوا جميعاً ما يلي من المقررات:

١ ـ اتخاذ دم عثمان شعاراً لهم كما اتخذته السيدة عائشة شعاراً لها من قبل.

٢ ـ مطالبة الإمام بتمكين معاوية من قتلة عثمان ليقتص منهم.

٣ ـ إبقاء معاوية والياً على الشام، ومنح حكومته الاستقلال الذاتي.

٤ ـ إعلان الحرب على الإمام إذا لم يستجب لهذه المقررات.

وبعث الإمام عليه السلام سفراءه إلى معاوية يدعونه إلى الطاعة، وعدم شقّ عصا المسلمين، إلاّ أنّ معاوية رفض الاستجابة لدعوته، وعرض على السفراء مقرراته السابقة، ورجعت السفراء إلى الإمام عليه السلام يحملون له ردّ معاوية، ورفضه للحلول السلمية، ونظراً لرغبة الإمام الملحة في الدعوة إلى السلم وحقن الدماء، فقد أرسل إلى معاوية مرة أخرى سفراء آخرين، فلم يستجب لهم معاوية، وأصرّ على غيّه وتمرّده وعدوانه.

واندلعت نيران الحرب بين الإمام وبين معاويةٍ لأنّ الإمام يريد في حربه حماية الإسلام والذبّ عن مُثله وأهدافه وصيانة كرامة المسلمين، ويريد معاوية أن يحافظ على الملك والسلطان، ويتخذ عباد الله خولاً، وأموالهم دولاً، كما يريد إذلال المسلمين واستعبادهم.

واستمرت الحرب بين الفريقين وبدت طلائع الفتح والظفر في جيش الإمام عليه السلام، وأراد معاوية الانهزام، إلاّ أن ابن العاص قد دبر مؤامرة مع كبار قادة الجيش العراقي ورؤساء الفرق، فبذل لهم الأموال الطائلة، ومناهم بمزيد من الهبات والعطاء، فاستجابوا له سرّاً، واتفقوا على رفع المصاحف والدعوة إلى كتاب الله.

ورفع أهل الشام المصاحف بعد أنْ دمر جيش الإمام جميع قواعدهم العسكرية، وتعالت أصواتهم بالهتاف بالدعوة إلى كتاب الله.

وأسرع المرتشون من قوّاد الفرق إلى الإجابة، والانصياع إلى هذه الدعوى. فحذّرهم الإمام، وعرفهم المكيدة المدبّرة ودلّهم على واقع القوم، وأنهم لا إيمان لهم، وإنما رفعوا المصاحف ولاذوا بها بعد أن انهارت جميع قواهم، فلم يذعنوا له، وراحوا يصرّون على تمردهم، وأخذوا يهددونه ويعلنون مناجزته إن لم يستجب لما أرادوا.

وكلما حاول الإمام أن يرجعهم إلى الطريق المستقيم فلم يمكنه ذلك، وشهروا سيوفهم في وجهه، فلم يجد بُدّاً بعد ذلك من الإذعان لإرادتهم فأمر بإيقاف القتال، وأوعز إلى القائد الأعلى ـ مالك الأشتر ـ بالإنسحاب من الجبهة، فامتنع مالك لأنه لم يبق بينه وبين الفتح، ما سوى حلبة شاة، وأحاط المتمردون بالإمام، قائلين له: أنت الذي أوعزت إليه بمواصلة الحرب والاستمرار في القتال، فكرر الإمام على مالك بالإنسحاب، وعرّفه عصيان جيشه، وما هو فيه من المحنة والبلاء.

وعاد مالك يتعثّر بأذيال الخيبة، قد فقد آماله، وفاتت منه الفرصة السانحة، واستبانت له المؤامرات الكبرى التي دبّرها الأمويون، لإشاعة الفرقة والاختلاف بين صفوف الجيش العراقي.

وقد نجحت هذه المؤامرة إلى حدّ بعيد، فقد ارتطم الجيش العراقي بالفتن وتمزقت جميع كتائبه ولم تعد هناك أي وحدة تجمع بين صفوفه فقد شاعت بينهم العداوة والبغضاء.

كما سادت فيهم فكرة الخوارج التي تدعو إلى التمرّد ومناهضة الحكم القائم.

وقفل الإمام عليه السلام بعد هذا الانقلاب الخطير الذي مني به جيشه راجعاً إلى الكوفة، وهو حزين النفس، قد أحاطت به الأزمات والآلام، ينظر إلى باطل معاوية قد استحكم وينظر إلى جيشه قد أصبح متمرّداً عليه، يأمره فلا

يطيع، ويدعوه فلا يستجيب، ويرى أنه قد فقد في هذه المعركة أهم أصحابه ـ ممن عرفوا حقيقته ـ كعمّار بن ياسر وهاشم بن عتبة وذو الشهادتين ونظرائهم ممن أخلصوا في النية.

وما استقر الإمام في عاصمته حتى ظهر الخلاف بين جيشه على أفظع ما يتصور، فقد أخذوا لا ينفذون له أمراً، ولا يرجون له وقاراً.

وبعث معاوية إلى الإمام ـ بعد انتهاء مدة الهدنة التي عينها الفريقان ـ أنْ يرسل مَن يمثله للتحكيم، فرشح الإمام عليه السلام عبد الله بن عباس المفكر الإسلامي الكبير، للقيام بأداء هذه المهمة، إلاّ أنّ المتآمرين الذين كانوا على اتصال دائم بحكومة دمشق قد أصرّوا على ترشيح أبي موسى الأشعري الغبي المنافق، ليقوم بتنفيذ المخطط المرسوم له، من إبعاد الإمام عن منصة الحكم وترشيح غيره، وامتنع الإمام عن إجابتهم، لعلمه بما دبروا له من المكيدة، بالإضافة إلى ما يعرفه من خبث أبي موسى، ورداءة تفكيره، وأنه لا حريجة له في الدين.

وأحاط المتمردون بالإمام، فأرغموه على انتخاب أبي موسى، كما أرغموه من قبل على قبول التحكيم. ومضى أبو موسى على رأس الوفد العراقي، لا ليمثل الإمام والجهة الموالية له، وإنما ليمثل المتخاذلين والمنحرفين عن الإسلام، الذين هم من أسوء من عرفتهم الإنسانية في جميع أدوارها، بُعداً عن الحق، وانحرافاً عن القصد.

والتقى غبي العراق ـ أبو موسى ـ بالماكر الخبيث: عمرو بن العاص، فتصاغر أمام أبي موسى تصنعاً ومكيدة، وأرشاه بما لذّ من أطائب الطعام، وأضفى عليه النعوت الكريمة، والألقاب العظيمة، حتى مال إليه، وصار ألعوبة بيده يوجهه حيثما يشاء، وقد فتح معه الحديث، فأظهر له الحيطة على الإسلام، والنصح للمسلمين.

وانخدع الغبي الخبيث بحديث ابن العاص، فحسب أنه ينصح للمسلمين، ويرجو لهم السلامة والوئام، فسلمه زمام نفسه، وأعطاه قيادته، فأخذ ابن العاص يوجهه حيثما شاء، وقد عرف دخائل نفسه، وما يكنه من الحقد والعداء للإمام، فعرض عليه أن يعزل الإمام، ويرشح عبد الله بن عمر للخلافة لأنه لم يشترك في الحرب، واعتزل الفتنة ـ كما يقول ـ وغزت هذه الفكرة مشاعر أبي موسى، فأجابه إلى ذلك بعد أن أخذ منه المواثيق والعهود أن لا يخيس بذلك وأن يسعى جاهداً لتحقيقه.

وحلّت الساعة الرهيبة لتحكيم الأشعري وابن العاص في هذه الأمة التي فقدت رشدها وهداها، وصارت ألعوبة بأيدي هؤلاء الأوغاد.

والتفت ابن العاص إلى أبي موسى الخامل الغبي، فأمره أن يخطب الناس، ويعلن لهم ما توصلا إليه، واستقرّا عليه من النتائج والمقررات، وامتنع أبو موسى من التقدم عليه مخافة أن يغدر به، فخدعه ابن العاص، وأظهر له أنه لا يتمكن أن يتقدم عليه لأنه شيخ الصحابة، فانخدع الصعلوك بكلامه، وأشار عليه ابن عباس أن لا يستجيب له، لأنه ماكر خبيث، فلم يعنِ أبو موسى به، وانطلق إلى منصة الخطابة، فأعلن للناس خلعه لعلي عليه السلام وترشيحه ابن عمر للخلافة.

وانبرى ابن العاص إلى أعواد المنبر فخلع عليّاً كما خلعه أبو موسى، وأثبت معاوية، وجعله أميراً على هذه الأمة، وانطلق أبو موسى فجعل يقول له:

عليك لعنة الله ما أنت إلاّ **﴿كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث﴾**[1].

---

(١) سورة الأعراف: آية ١٧٦.

فزجره ابن العاص وصاح به:

لكنك ﴿كمثل الحمار يحمل أسفاراً﴾[1].

نعم هما كلب وحمار وقد أحسن كل منهما وصف صاحبه.

وفرّ أبو موسى إلى مكة، يصحب معه العار والخزي، ويسجل للعراقيين أسوء صفحة في صفحات الذلّ والعار.

وكان هذا هو المتوقع من أمر التحكيم الذي فرضته الأطماع والأهواء، وقد جاء بأسوء النتائج المريرة التي سببت للمسلمين في جميع مراحل تاريخهم التأخر والانحطاط والتفكك والانحلال، وأخلدت لهم المصاعب والمتاعب، وألقتهم في شرّ عظيم.

إنَّ هذه الأحداث تصوّر لنا جانباً كبيراً من الانحطاط الفكري، والاجتماعي، أمثل الإمام أمير المؤمنين عليه السلام حكيم الإسلام، ورائد العدالة الكبرى في الأرض الذي لم تعرف الإنسانية له نظيراً قطّ في عبقرياته ومواهبه، وسائر نزعاته، يعزله أبو موسى وابن العاص، ويرشحا للمنصب الديني الأعلى من لا يساوي قلامة أظفر.

وعلى أي حال فإنّ التحكيم ما انتهى إلاّ وأوقع أشدّ الاختلاف بين صفوف الجيش العراقي، فقد انحاز الخوارج إلى جانب، وهم يهتفون بشعارهم (لا حكم إلاّ لله) وقد امتحن الإمام بهم امتحاناً عسيراً، فإنهم هم الذين أرغموه على التحكيم كما أرغموه على انتخاب أبي موسى، ولما حكم الحكمان بغير العدل انعطفوا عليه، وهم يشجبون فكرة التحكيم، ويلقون تبعتها على الإمام، لإذعانه لهم.

وحاججهم الإمام فأبطل شبههم، فلم يجدوا منفذاً يسلكون فيه سواء

---

(١) سورة الجمعة: آية ٥.

أنهم أقرّوا على أنفسهم بالكفر والمروق من الدين، وطلبوا من الإمام أن يقرّ بذلك، ويعلن التوبة، وقد ردّ عليهم الإمام بأنه كان على بيّنة من أمره ودينه، وأنه في جميع فترات حياته لم يسلك إلاّ الطريق الواضح، فكيف يقرّ على نفسه بالذنب وهو لم يرتكبه، ثم يعلن التوبة والإقلاع عنه، وأصرّ الإمام على ذلك. ولو كان يبغي الحكم والسلطان لأجابهم إلى ذلك، إلاّ أنه عليه السلام لم تخدعه السلطة ولم يغرّه الملك، وإنما كان يبتغي في جميع أعماله وجه الله، ويلتمس الدار الآخرة، فكيف يرتكب ما يجافي ذلك.

وأصرّ الخوارج على التمرّد فتركهم الإمام عليه السلام وشأنهم، لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم، ومنحهم الحرية التامة، فلم يحجبهم عن سفر، أو يفرض عليهم إقامة جبرية، أو يرهقهم في أي مجال من مجالات الحياة العامة. ولكن لما أظهروا الفساد والبغي في الأرض، وتعرضوا للأمن العام عزلهم الإمام، وحذرهم عقوبة السلطان، فلم يكن مجدٍ معهم ذلك، فاضطرّ إلى مناجزتهم وإعلان الحرب عليهم، وحمل أصحابه عليهم فلم يمض قليل من الوقت إلاّ وجثث الخوارج قد ملأت أرض المعركة، ولم يفلت منهم إلاّ القليل، فقد أبادتهم سيوف أهل الحق.

وما انتهت حرب الخوارج إلاّ وظهر الفساد في جيش الإمام بأفظع ما يتصوّر، فقد خارت عزائمهم، وانطوت نفوسهم على الاختلاف والإنشقاق والتمرّد، وقد عرف معاوية كل ذلك، فراح يغزوهم في عقر دارهم، ويشيع فيهم القتل والدمار، كما انطلقت جيوشه إلى احتلال الأقاليم الإسلامية. فقد احتل مصر والحجاز واليمن.

فنظر الإمام عليه السلام إلى ذلك كله، وقد انطوت نفسه على أسى شديد، وحزن عميق، فراح يعظهم فيما وعظ به الأنبياء أممهم، ويبث فيهم النصائح، ويضع أمامهم المضاعفات السيئة التي تنجم عن تمرّدهم، إلاّ أنه لم يجد معهم ذلك شيئاً، فقد طاشت أحلامهم، وضلّت عقولهم، وكلما ندبهم الإمام

إلى مناهضة عدوّهم لم يستجيبوا له، وأظهروا له التخاذل والعصيان.

وانبرى الإمام الممتحن ـ بعد هذه الأزمات الحادة التي أحاطت به ـ يتضرع إلى الله، ويدعوه لينقله إلى جواره، ولم يلبث إلاّ قليل حتى فتك به أشقى هذه الأمة، عبد الرحمن بن ملجم، فعممه بالسيف وهو ماثل بين يدي الله، وذكره بين شفتيه.

واستقبل الإمام الضربة الغادرة بالابتسامة، وانطلق يقول: «فزتُ وربّ الكعبة».

أجل والله يا أمير المؤمنين أنت أول الفائزين بكرامة الله، لأنك سايرت الحق في جميع فترات حياتك، فكنت أول الناس إسلاماً، وأقدمهم إيماناً، وأعظمهم حيطة على الإسلام، وأكثرهم محنة وبلاء. فقد جهل القوم قدرك، وبالغوا في الحطّ من شأنك، وأنت صابر محتسب، كاظم للغيظ، ولما آل الأمر لك حاولت أن تحملهم على المحجة البيضاء، وتنير لهم الطريق، وتوضح لهم القصد، لكنهم أبوا أن يسيروا على النهج الواضح، فأشبهت محنتك فيهم محنة الأنبياء والعظماء في أُممهم.

ولم يبق الإمام بعد الضربة القاسية سوى ثلاثة أيام قضاها بوصايا البِر والخير، يوصي أهله ويوصي المسلمين بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتجنب عن البغي، وإقامة شعائر الإسلام، ثم التحق عليه السلام بالرفيق الأعلى، وقد خسرته الإنسانية ومادت أركان العدل، وانطفأت مصابيح الحق، فقد مات أبو الضعفاء، وصديق المحرومين، وملاذ المنكوبين، فقد قتل على غير مال احتجبه أو سنّة غيرها، وإنما قتل من أجل أن يقيم في هذا العالم حكومة ترعى مصالح الإنسان، وتدفعه إلى التطور في مجالاته الاجتماعية والفردية، وتنفي عنه عوامل الضيق والبؤس، وتنشر في ربوعه الدعة والرفاهية والأمن والاستقرار.

لقد وضع الأمويون جميع الأزمات والعراقيل بوجه حكومة الإمام، وألهبوا البلاد بنار الفتن والحروب، من أجل مطامعهم وأحقادهم، ومن أجل استعباد المسلمين وإرغامهم على ما يكرهون، وما إن أذيع مقتل الإمام إلاّ ورفعت دمشق أعلام الزينة والابتهاج، واتخذت يوم قتله عيداً رسمياً في البلاد، فقد تمت لهم بوارق أحلامهم، وانتصرت إرادتهم على إرادة الشعوب الإسلامية، وتم لهم اتخاذ الملك وسيلة إلى استعباد المسلمين ونهب ثرواتهم، وإشاعة الفقر والحرمان بينهم.

(٨)

وأسرعت الكوفة بعد مقتل الإمام أمير المؤمنين إلى مبايعة الإمام الحسن عليه السلام كما أسرعت بقية العواصم الإسلامية الأخرى عدى دمشق إلى إعلان البيعة والتأييد الشامل لحكومة سبط النبي وريحانته.

وقد ورمت أنوف الأمويين، وانتفخت أوداجهم غيظاً وموجدة حينما وافتهم أنباء البيعة، فعقدوا المؤتمرات، وبحثوا عن جميع الوسائل التي من شأنها أن تؤدي إلى قلب الحكم، وإفساد جيش الإمام، ولجأت لاتخاذ ما يلي من المقررات:

١ ـ نشر الجواسيس، وبث العيون في الأقطار الإسلامية، للإطلاع على الأنباء، وإشاعة الذعر فيها، والإرهاب بقوة معاوية، وضعف حكومة الإمام.

٢ ـ مراسلة زعماء العراق وغيرهم، وبذل الأموال لهم لكي ينحازوا إلى معسكر معاوية.

٣ ـ وقد ألقت السلطات المحلية القبض على الجواسيس وأصدرت الأوامر بقتلهم.

وجرت بين الإمام وبين معاوية عدّة مذكرات ورسائل، وقد ذكرناها

بالتفصيل في كتابنا حياة الإمام الحسن عليه السلام.

وعلى أي حال فإنّ هذا الكتاب يعرض بصورة موضوعية وشاملة إلى أحداث معاوية تلك الأحداث التي غيّرت مجرى المسيرة الإسلامية، وألحقت بالمسلمين أضرار بالغة.

ولعلّ قسماً من القرّاء يودّ التعريف على مؤلف الكتاب فهو سماحة العلامة الكبير الشيخ مهدي القرشي وهو من الحلة من المؤلفين وكبار العلماء ويمتاز بصراحته وتفانيه في الحق.

وكان عليّ أن أطيل الحديث عنه إلاّ أني أكتفي بهذه الإشارة الإجمالية إلى التعرف عليه سائلاً من الله أن يمد في حياته، ويكتب لبحوثه النجاح، والتوفيق بيد الله يهبه لمن يشاء من عباده.

١٣٦٠هـ

باقر شريف القرشي

أي يوم هذا الذي يدع الحليم حيراناً فيأخذ بلبّه، ويشغله بمحنته، ويتركه فزعاً هائماً، تتقاذفه أمواج المحن وتيارات الخطوب؟...

إنّه يوم الفزع الأكبر...

إنّهُ يوم التغابن...

إنّهُ اليوم الذي تبيضّ فيه وجوه، وتسودّ فيه وجوه.

إنه اليوم الذي نُصِّب فيه الموازينُ في الحق.

إنه اليوم الذي يمثل فيه الناس جميعاً أمام محكمة العدل الكبرى، لينالوا جزاءهم، فالذين آمنوا وعملوا الصالحات في دار الدنيا، لهم جنّات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، والذين اقترفوا السيئات، وعملوا المنكرات، يُساقون إلى جهنم مكبلين بالأصفاد.

إن محكمة العدل ستعقد في يوم الحشر، ويُعرض عليها العباد، وكأني بها قد عُقدت برئاسة سيد الكائنات وعلّة الموجودات: الرسول الأعظم ﷺ وأن الله تعالى هو الذي يُشرف على دور الحساب وقد حضرها الأنبياء والأوصياء والصدّيقون، وإلى جانب النبي وصيّه، وباب مدينة علمه وأبو سبطيه: الإمام أمير المؤمنين عليه السلام وبين يدي النبي ﷺ أوصياؤه الأئمة الطيّبون.

وقد جرت محاكمة جماعة من الصحابة[1]. وقد استغرقت محاكمتهم وقتاً طويلاً، وبعد الإنتهاء منها نادى منادي المحشر أين معاوية بن أبي سفيان؟ فجيء به مكبلاً بالأصفاد، وزُجَّ في قفص الإتهام.

وتطلعت إليه الأبصار وازدحمت الناس لتنظر إليه، فإذا هو رحبُ البلعوم مندحق البطن.

وأزدلف إليه الإدعاء العام، فصاح به: إن حسابك لعسير، وإنه ليطول وقوفك في هذا اليوم، فقد حفل كتابك بكل موبقةٍ وجرم، وما تركت في حياتك حرمةً لله إلاّ انتهكتها، وما ولجت إلاّ في كل طريق حرّمه الله، وإن لك خصوماً سيجاثونك بين يدي الله تعالى.

معاويـة:

ناولني كتابي لأنظر ما فيه، وأبصر ما جنته يداي، فقد نسيت كل ذلك.

الإدعـاء العـام:

نعم لك الحق في ذلك. ويقوم فيناوله سجلاّته، ويفتحها أمامه.

معاويـة:

ويقرأ معاوية سجلاّت أعماله، فيرى كل ما اقترفه في حياته من صغيرة وكبيرة، فيفقد صوابه، ويصيح: **﴿ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلاّ أحصاها﴾**[2].

فيجيبه الله تعالى: **﴿ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربّك أحداً﴾**[3].

---

(١) تجد عرضاً مفصلاً لمحاكمة الصحابة في كتابنا (الرسول الأعظم مع خلفائه).

(٢) سورة الكهف: آية ٤٩.

(٣) المصدر السابق.

ويعض معاوية على يديه، ويقول:

يا ليتني كنت تراباً.

يا ليتني لم أكن شيئاً مذكوراً.

لقد جنت يداي كل ما خالف الحق، وارتكبت في حياتي كل إثم، وما ظننتُ إني سأحشر، وأُبعث وأُحاسب، ويرفع صوته:

كيف النجاة؟

كيف الخلاص مما أنا فيه؟

يا ليت بيني وبين ما عملته بُعدُ الخافقين.

ماذا جنيت؟

ماذا عملت؟

ردوني، ردوني لأعمل صالحاً فيما تركت.

فيجيئه النداء عالياً: **﴿كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخٌ إلى يوم يبعثون﴾**[1]. لقد أعرضت في حياتك عن ذكر الله، واتخذت آياته هزواً، وكنت من الظالمين.

الإدعـاء:

إيه يا معاوية ـ قبل أن نعرض أحداثك الجسام ـ نريد أن نتبين منك، ماذا كنت تبغي من خصامك لعلي عليه السلام وجنايتك عليه؟

معاويـة:

أردتُ الملك والسلطان، والتحكم في رقاب المسلمين، واستعبادهم،

---

(١) سورة المؤمنون: آية ١٠٠.

وقد أعلنت ذلك بعدما أبرمت ععقد الصلح بيني وبين الإمام الحسن عليه السلام فقد قلتُ لأهل العراق:

«ما قاتلتكم لتصلوا ولا لتصوموا ولا لتزكوا، وإنما قاتلتكم لأتأمّر عليكم». فمن أجل ذلك قاتلت علياً، وأرقت دماء المسلمين.

الإدعاء العام:

ما هي الأسباب التي حفزتك إلى اتخاذ جميع الوسائل إلى الحطّ من شأن علي، وإعلان سبّه على رؤوس الأشهاد؟

معاوية:

إنَّ أسباب ذلك هي ما يلي:

١ - إنّهُ لا يستقيم لنا الأمر ولا الحكم إلاّ بانتقاص علي، ولو عرف أهل الشام، وسائر الغوغاء الذين أغريتهم وخدعتهم، منزلة علي، ومكانته في الإسلام، وقربه من النبي صلى الله عليه وآله لما تمكنت من إعلان العصيان، والتمرّد على حكومته.

٢ - إنني شخصياً أحمل في دخائل نفسي بغضاً عارماً لعلي لأنه قد وترني في سبيل الإسلام، فقد قتل بسيفه أعلام أسرتي، ومشايخ قومي.

٣ - إنَّ المبادىء التي كان ينشدها الإمام في ظل حكومته، ويسعى جاهداً لتحقيقها، كانت تتنافى مع أطماعنا وتعاكس ميولنا، فهو ينشد المساواة بين المسلمين، ولا يرى لأحد على أحد فضلاً، أو امتيازاً، فلو أطعته وخضعت لحكومته، ولساوى بيني وبين الرقيق وسائر الدهماء، ولا يرى لي ولا لغيري من القرشيين أي امتياز على غيرنا، لا في العطاء ولا في غيرها.

فلهذا قاتلته وبغيت، وحقدت عليه، وقد بذلت قصارى جهودي،

وسخرت جميع أجهزة الدولة إلى الحطّ من شأنه، وإخفاء اسمه، ومحو مناقبه وفضائله.

الإدعـاء العـام:

لقد خاب سعيك يا معاوية وضلّ كيدك، فإنّ الحق يغلب، والعدل لا يُدحض، فقد قطع الله على نفسه عهداً أن ينصر الحق، ويسحق الباطل، ويدحر الجور والظلم.

هذا هو علي عليه السلام أنظر إليه كيف حيّاه الله بألطافه، وأسبغ عليه كراماته، فقد بوأه دار نعيمه، يتقلّب فيها حيثما شاء، وقد حباه بما يلي:

١ ـ لا يجوز أحد على الصراط إلاّ بجواز من علي[١].

٢ ـ إنَّه قسيم الجنة والنار، يقول لجهنم: (هذا لي، وهذا لك)[٢].

٣ ـ إنه حامل راية الحمد يوم القيامة[٣].

٤ ـ إنه صاحب الحوض وساقيه، وذائد المنافقين عنه[٤].

٥ ـ وهو أول مَنْ يدخل الجنة بعد النبي صلى الله عليه وآله[٥].

٦ ـ إنه أوّل مَنْ يُكسى يوم القيامة من حلل الجنة بعد النبي صلى الله عليه وآله وإبراهيم عليه السلام[٦].

---

(١) تاريخ الخطيب البغدادي: ١٠/٣٥٦، الرياض النضرة: ٢/١٧٢.
(٢) الصواعق المحرقة ص ٧٥، كنز العمال: ٦/٤٠٢، كنوز الحقائق ص ٩٢.
(٣) الرياض النضرة: ٢/٢٠١، كنز العمال: ١/٣١٣.
(٤) مجمع الزوائد: ١٠/٣٧٧، حلية الأولياء: ١٠/٢١١، كنوز الحقائق ص ٩٢، كنز العمال: ٦/٤٠٢.
(٥) مستدرك الحاكم: ٣/١٥١، الكشاف للزمخشري في تفسير آية المودة.
(٦) كنز العمال: ٦/٤٠٣، الرياض النضرة: ٢/٣٠١.

٧ ـ وهو أحد الثلاثة الذين تشتاق لهم الجنة[١].

٨ ـ إنه ليزهر لأهل الجنة ككوكب الصبح لأهل الدنيا[٢].

هذه بعض الألطاف الذي أغدقها الله تعالى على أمير المؤمنين عليه السلام وقد كان في دار الدنيا من أبرز عظمائها النابهين، فقد استوعب ذكره جميع لغات الأرض، ولا يذكر اسمه إلاّ مقروناً بالإعجاب والإكبار والتهليل.

يا معاوية: لقد حاولت محو ذكر علي عليه السلام وإطفاء نوره، فقد كان سعيك كرماد اشتدّت به الريح في يوم عاصف، فقد خبا نجمك، واندثر أثرك، وبقي علي عليه السلام رمز الخلود والبقاء، تطوف حول قبره الوفود من شتى أنحاء الأرض، وتتبرّك بضريحه.

وأنت يا معاوية، لا قبرَ لك، وإنما وضعوا لك رمزاً محقراً في مزبلة من مزابل دمشق، يحوطه الذلّ والهوان وسوء المصير، ولا يذكر اسمك إلاّ قريناً للخيبة والخسران.

كوكبة الشعراء:

وتنبري كوكبة من الشعراء لإلقاء ما نظمته في دار الدنيا في مصير معاوية، فتلقي روائع نظمها في هذه المناسبة وفيما يلي ذلك:

١ ـ السماوي:

ويتقدم الشاعر الكبير الشيخ عبد الحميد السماوي ببيتين من قصيدته التي نظمها في مدح الإمام علي عليه السلام فيقول:

---

(١) صحيح الترمذي: ٢/ ٣١٠، كنوز الحقائق: ص ٦٠، الاستيعاب: ٢/ ٤٢٣.

(٢) كنز العمال: ٦/ ١٥٣، وقال أخرجه البيهقي في فضائل الصحابة، والديلمي في الفردوس عن أنس.

وهـذا علـي والأهـازيـج بـاسمـه تشق الفضا النائي فهاتوا معاويا
أعيدوا ابن هند إن وجدتم رفاته رفـاتـاً وإلاّ فـانشـروهـا مخـازيـا

وتقابل بمزيد من الاستحسان والرضا والقبول، ويمنح وسام حب أهل البيت، ويقول بعض أهل المحشر، مداعباً له: ها هو معاوية مكبل بالأصفاد، يلاحقه الخزي والعار، وسيصدر في حقه قرار الحكم بالتجريم، فيساق إلى دار الهوان.

٢ ـ محمد مجذوب:

وينبري الشاعر السوري الكبير محمد مجذوب، فيخاطب معاوية:

أيـن القصـور أبـا يـزيـد ولهـوهـا والصـافنـات وزهـوهـا والسـؤدد
أيـن الـدهـاء نحـرت عـزتـه علـى أعتـاب دنيـا سحـرهـا لا ينفـد
آثـرت فـانيهـا علـى الحـق الـذي هو لو علمتَ على الزمان مخلد
تلك البهارج قد مضت لسبيلها وبقيـت وحـدكَ عبـرة تتجـدد

ثم يصف لأهل المحشر قبر معاوية وما يحيطه من الذلّ والهوان فيقول:

كتـل مـن التـرب المهيـن بخـربـة سكـر الـذبـاب بهـا فـراح يعـربـد
خفيـت معـالمهـا علـى زوارهـا فكـأنهـا فـي مجهـل لا يقصـد
ومشى بها ركب البلا فجوارها عـار يكـاد مـن الضـراعـة يسجـد
والقبـة الشمـاء نكـص طـرفهـا فبكـل جـزء للفنـاء بهـا يـد
تهمي السحائب من خلال شقوقها والـريـح مـن جنبـاتهـا تتـرددُ
حتـى المصلـى مظلـم فكـأنَّـهُ مـذ كـان لـم يجتـز بـه متعبـد

ويوجه خطابه ثانية إلى معاوية فيقول له:

أأبـا يـزيـد لتلـك حكمـة خـالـق تجلى على قلب الحكيم فترشد

أرأيت عاقبة الجموح ونزوة أودى بلبك غيها المترصد
تعدد بها ظلماً على من حبه دين وبغضه الشقاء السرمد
علم الهدى وإمام كل مطهّر ومثالة العلم الذي لا يجحد

وتقابل قصيدته العامرة بكثير من الإعجاب والاستحسان.

٣ ـ بولس سلامة:

ويقوم الشاعر المسيحي العبقري بولس سلامة فيلقي مقطوعة من ملحمته التي نظمها انتصاراً لأهل البيت عليهم السلام فيقول:

دفق الظلم في ظلال ابن هند فالمخازي والبغي في طوفان
مأتم الخُلق والفضيلة هذا فربيع الشرور في ريعان
واللبيب اللبيب من يحسن الزلفى ويسمو في اللف والدوران
أنتن الجذع والرذائل عمّت وتمش الفساد في الأغصان
ذلك العهد كان أثقل وطأ من عصور الأصنام والأوثان
هبل لا يخاف صخراً أصماً بل خبيثاً تسعر به قدمان
هبل لا يبين إلاّ بوجه وابن هند وجوهه الفان
تتلوى في كل هبة ريح مثلما يلتوي قضيب البان
أو عجيناً يكون ما شاءه العجان أكرم بالمدره العجان
يجعل الخبز وفق ما تنشد الأفواه وفق المكان والسكان
في مهب الهواء علق ميزاناً فمن أين تثبت الكفتان
والحكيم الكريم واللص محتالاً زنيماً في حكمه سيان
فيا كافلي، ما أنت إلاّ كرجع الصوت يأتي عن غابر الأزمان
فابن هند أبٌ لكل كذوب دنيوي معطل الوجدان[1]

---

(١) عيد الغدير الطبعة الأولى: ص ٢١٣ ـ ٢١٤.

ويدعون له الجميع بالرحمة والرضوان لإشادته بذكرى أهل البيت ويمنح وسام حبّهم عليهم السلام .

٤ ـ أحمد خيري :

وينبري الشاعر الملهم الفذ أحمد خيري فيتلوا إرجوزته الرائعة فيقول :

فأول المعدود في الطغام[١] والجالب السوء إلى الإسلام

المستعين دائماً بالزور والممتطي مواكب الشرور

كبير أهل الزيغ والضلال لعين ذي الإكرام والجلال

خصيم آل سيد الوجود طريده عن حوضه المورود

أعني طليق السيف أي معاوية مَنْ بطنُهُ في كل وقت خالية[٢]

فانظر رعاك الله في أقواله وابحث هداك الله في أفعاله

يحرض الناس على المقاتلة ويختبي والقوم في المصاولة

يحرّض الناس على المقاتلة ويختبي والقوم في المصاولة[٣]

وتقابل هذه الأرجوزة بكثير من الاستحسان ويمنح الشاعر وسام الشرف لانتصاره لأهل البيت عليهم السلام .

---

(١) الطغام : أوغاد الناس.

(٢) إشارة إلى الحديث المتواتر عن رسول الله في معاوية (لا أشبع الله له بطناً) وقد سجّل الشعراء هذه الظاهرة فيقول شاعر :

وصاحب لي بطنه كالهاوية كأنَّ في أمعائه معاويه

ويقول شاعر آخر :

ومعدة هاضمة للصحر كأنما في جوفها ابن صخر

(٣) الأرجوزة اللطيفة : ص ٦ ـ ١٢ .

٥ ـ الفرطوسي:

ويقوم شاعر الإيمان والعقيدة الشيخ عبد المنعم الفرطوسي فيلقي قطعة من إحدى روائعه التي نظمها في حبّ أهل البيت فيقول:

إيهـا معـاويـة تـلاشـت امـرة	وهـوى بظلمـك عـرشهـا المتهـدم
ومحى اليقين روى يمد ظلالها	سـرف يـدربـه الغـرور ويسجـم
وتكسـرت منهـا منـى فـي صخـرة	لليـأس فيـه زجـاجـة تتحطـم
والقبـة (الخضـراء) أظلـم أفقهـا	وانقـض شيطـان بهـا متـرنـم
دنيـا مـن الأحـلام لـف شـراعهـا	فـي يقظـة الربـان صمـت مبهـم
فقضـى معـاويـة وبـدءُ حيـاتـه	شـرك وخـاتـم المظـالـم مـأثـم
وعلـي قـرآن الهـدى وضـريحـه	حـرم يطـوف بـه الخلـود ويحـرم
دنيـاه دنيـا الصـالحيـن قنـاعـة	وهـدى عـرفـان وديـن قيـم
حـق جـريء فيـه يـدرأ بـاطـلاً	طـاغ وعـدل صـارم لا يـرحـم
ومتـاعـه والـزهـد كـل متـاعـه	قـرص ومـدرعـة وكـوخ مظلـم
فحيـاتـه مجـد ومجـد ممـاتـه	وهي الشهادة والكرامة أعظم(١)

ولما انتهى الفرطوسي من إلقاء قصيدته تعالت الأصوات بالهتاف: الجنة لك، الجنة لك. ويمنح الفرطوسي وسام حب أهل البيت عليهم السلام.

وقد انتهت بذلك الحلبة الأدبية، وقد سمع معاوية هذا العرض من الأدب العربي الرفيع، في مثالبه ونقائصه، ومدح الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، فيتميز من الغيظ والأسى، ويندم أشد الندم على ما فرّط في أمر نفسه.

---

(١) ديوان الفرطوسي.

وتعود المحكمة إلى مباشرة أعمالها في محاسبة معاوية وسؤاله عن أحداثه وموبقاته.

الرسول الأعظم:

وكأني بالرسول الأعظم ﷺ يوجّه السؤال إلى معاوية فيقول له:

كيف تقمصت الخلافة، وصرت نائباً في إدارة شؤون الدولة الإسلامية؟

هل لكَ سابقة في الإسلام، أم جهاد في سبيل الله، أم لك علم ما تحتاج إليه الأمة في مجالاتها الإدارية والاقتصادية والسياسية؟

هل لك خدمة أسديتها على المجتمع الإسلامي، حتى تستحق هذا المنصب الخطير في الإسلام؟

ألست صاحب الأحداث والموبقات في الإسلام؟

ألم تكن أنت وارث أبويك وأسرتك عداءهم للإسلام والمسلمين؟

ألست أنت من الطلقاء الذين لا نصيب لهم في شؤون الخلافة الإسلامية؟

كيف ارتقيت إلى منصب الخلافة؟

كيف صرت ولياً وأميراً للمسلمين؟

ولكن سيعلم من سوّل لك ذلك، ومكّنك من رقاب المسلمين، وعبّد لك الطريق، ومهّد لك الأمور إلى منازعة خليفتي ووصيي، وباب مدينة علمي.

وكأنّي بالنبي ﷺ يطلب من الإدعاء العام أن يتحدث إلى أهل المحشر عن نزعات معاوية، ومنكراته، وما ألحقه بالإسلام والمسلمين من الأضرار البالغة.

الإدعـاء العـام:

ويقوم الإدعاء العام خاضعاً أمام النبي ﷺ فيتحدث أمام الملأ الحاشد، فيعرض عليهم مطالعاته عن (كسرى العرب وفتى قريش) فيقول:

إنَّ معاوية لم يؤمن بالله طرفة عين، وإنما كان إنساناً جاهلياً بما تحتمل هذه الكلمة من معنى، وقد صنع في حياته بالآثام كلَّ ما خالف كتاب الله، وسنّة نبيه، وحمل معول الهدم على جميع القيم الإنسانية، التي أقامها الإسلام، محاولاً بذلكَ إطفاء نور الله، وإعادة سنن الجاهلية الأولى.

إنَّ معاوية بحكم نشأته ومواريثه التي ألهبت عواطفه ومشاعره بالحقد والعداء للإسلام، قد تجرد من كل نزعة إنسانية، وراح يعمل في حياته بوحي من جاهليته على نسف المعالم الإسلامية، وهدم الأسس القويمة التي بناها الإسلام.

لقد خيم على المسلمين في دور حكمه جو من الإرهاب والإضطهاد والخوف، لم يعهده المسلمون فيما مضى من حياتهم، فقد عمد إلى القتل الجماعي، وإلى إشاعة الثكل والحزن والحداد بين المسلمين، كل ذلك ليقضي على العناصر الحية في المجتمع الإسلامي، حتى يصفو له الجو في إقامة حكمه الذي لا عهد له بالعدل والحق.

ويأخذ الإدعاء العام بعد ذلك بالكشف عن واقع معاوية، ويوضح أبعاد ذاته الخبيثة، وما ألحقه بالمسلمين من الأضرار الفادحة، والنكبات المريرة، التي أعقبت لهم الفتن، وأخلدت لهم المتاعب، فيقول:

نشـأته:

نشأ معاوية في مجتمع جاهلي، وقد ألف الرذائل، وتعوّد على الموبقات، وكانت ألوان الحياة التي عاشها معاوية في جاهليته، هي:

أ ـ الحياة الفكرية:

ولم يكن هناك أي مجال للإنطلاق الفكري في الحياة الجاهلية، فقد انطفأت أضواء العقل، وأخذ الإنسان يمرح في ميادين سجنه من الأوهام والخرفات، فقد عكفت القبائل على عبادة الأوثان والأصنام، واتخذتها أرباباً من دون الله، معتقدة أنها هي التي تتصرّف في شؤون القضاء والقدر، وإنما يحدث في الكون من تغيّرات مستند إلى إرادة تلك الأحجار الصمّاء، وفي هذا دليل على عقم التفكير، وانعدام الوعي، وسفاهة المجتمع، وبلادة الضمير.

ب ـ الحياة الأخلاقية:

فالأخلاق الرفيعة التي يمتاز بها الإنسان عن الحيوان السائم، لم يكن لها أي ظل في المجتمع الجاهلي، فلم يعد في عرفهم السائد وجود للمُثل العليا، والأخلاق النبيلة، فقد ساد فيهم المنكر والفحش، وعكفوا على تعاطي الخمر، واستباحوا الزنى، وألفوا الظلم والجور، والإعتداء على الغريب، إلىٰ غير ذلك من المساوىء التي بُني عليها المجتمع الجاهلي، واتّخذها دستوراً لحياته العامة.

ج ـ الحياة الاقتصادية:

وكانت الحياة الاقتصادية في ذلك المجتمع السحيق تتركّز على ما يلي:

١ ـ الربـا:

وكانت المعاملات الربوية إحدى مقومات الاقتصاد العام في الجزيرة العربية، فالربا كان من أهم الأسباب التي دعت إلى حصر الثروة العامة عند فريق من القبائل القرشية، وقد آمن المجتمع الجاهلي بإباحته وتعاطيه، حتى جاء الإسلام فحرّمه، ومنع عنه أشد المنع.

٢ ـ الغـزو:

ومن بين الوسائل التي اتّخذها المجتمع الجاهلي لبناء حياته الاقتصادية الغزو والنهب، فكان القوي يغزو الضعيف، وكانت القبائل المنتشرة في الصحراء يغزو بعضها بعضاً، ولم تكن الأوساط الاجتماعية تستنكر هذا الظلم الفظيع، وإنما كانت تقرّه، وتؤمن به كوسيلة من وسائل حياتها الاقتصادية.

٣ ـ الإستغلال:

وقام الإنسان الجاهلي باستغلال أخيه الإنسان، ومصادرة أتعابه من دون عوض أو ثمن يؤديه إليه، وكان ذلك من مظاهر الحياة الاقتصادية السائدة في تلك العصور.

ولم تتعود الجزيرة في عصورها الجاهلية على العمل في ميادين الزراعة والإنتاج، فقد ألفت الخمول والكسل، وتعوّدت على الفقر والبؤس، فكانت الأكثرية الساحقة تأكل القد، وتشرب الرنق، وتعيش عيشة الذلّ والهوان، وقد عمد الكثير منهم إلى وأد أبنائهم فراراً من الفقر وهرباً من الجوع، ولما منّ الله على الناس برسوله وحبيبه محمد ﷺ حرّم عليهم ذلك، كما حكاه تعالى في كتابه العزيز: ﴿**ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم**﴾[1].

هذه بعض مظاهر النظم الاجتماعية التي سادت في العصر الجاهلي، وقد نشأ عليها معاوية، وآمن بها هو وأسرته إيماناً عميقاً، فكانت إحدى عناصرهم ومقوماتهم.

ولمّا أشرقت الأرض بنور الإسلام، وأعلن الرسول الأعظم ﷺ مقاومته لتلك النظم الرخيصة، ودعا الإنسان إلى التحرّر منها، هبّ الأمويون

---

(١) سورة الإسراء: آية ٣٢.

إلى ميادين القتال وساحات الحروب، مدافعين عنها، ومستميتين في سبيلها، وقد سقطت جماعة منهم قتلى، فأترعت قلوب الأمويين عامة عليهم بالحزن والأسى.

وكان أبو سفيان شيخ الأمويين من أشد المقاومين والمناوئين والحاقدين على النبي ﷺ فكان يجمع الجموع، ويلهب العواطف، ويشحذ الهمم إلى حرب الإسلام، من أجل إحياء سنن الجاهلية وعاداتها، ومن أجل إعادة الأوثان والأصنام في دنيا الجزيرة العربية لم يترك أبو سفيان وسيلة من الوسائل إلاّ فعلها، من أجل مناهضة النبي ﷺ ومناجزته. وكانت هند زوجته لا تقل عنه في عدائها، وحقدها على النبي ﷺ وموقفها مع سيد الشهداء حمزة بما ارتكبته من التمثيل الفظيع، والتشفي اللئيم مما يندى له وجه الإنسانية.

لقد ورث معاوية روح العداء للنبي ﷺ وظل محتفظاً بجاهليته في جميع مراحل حياته.

إنَّ نشأة معاوية كانت توحي له بفعل الشر، وارتكاب المنكر، والإجرام. فلم يكن ضميره المتلوّث بعادات الجاهلية وأخلاقها، يعي أي معنى من معاني الحق والخير.

نزعاته:

ولم تكن لمعاوية أي نزعة كريمة أو رحيمة، فقد انطبعت في آفاق نفسه الآثام والشرور، فكانت من مقوماته وخصائصه، وفيما يلي عرض لبعض نزعاته:

أ ـ النزعة الإلحادية:

ولم يؤمن معاوية بالله طرفة عين، فقد أظهر الإسلام بلسانه، وجحده

بقلبه، وقد أعلن إلحاده في حديثه الخطير الذي أدلى به أمام قرينه في الضلال: المغيرة بن شعبة، فقد حدّث مطرف قال:

وفدت مع أبي المغيرة على معاوية، فكان أبي يتحدث عنده، ثم ينصرف إليّ، فيذكر معاوية وعقله، وأقبل ذات ليلة فأمسك عن العشاء، وهو مغتم أشدّ الغم، فانتظرته ساعة، ظننت لشيء حدث فينا أو في عملنا، فقلت له:

ما لي أراك مغتمّاً منذ الليلة؟

يا بني إني جئت من أخبث الناس.

وما ذاك؟

خلوت بمعاوية فقلت له:

إنك قد بلغت مناك يا أمير المؤمنين، فلو أظهرت عدلاً، وبسطت خيراً، فإنك قد كبرت، ولو نظرت إلى أخوتك من بني هاشم فوصلت أرحامهم، فوالله ما عندهم اليوم شيء تخافه، وان ذلك مما يبقى ذكره وثوابه.

معاوية:

(هيهات هيهات) ملك أخو تيم فعدل، وفعل ما فعل فوالله ما عدا أن هلك فهلك ذكره، إلا أن يقول قائل: (أبو بكر) ثم ملك أخو عدي فاجتهد، وشمر عشر سنين، فوالله ما عدا أن هلك فهلك ذكره، إلاّ أن يقول قائل (عمر). ثم ملك أخونا عثمان ولم يكن أحد في مثل نسبه، فملك وعمل ما عمل، وعُمل به، فوالله ما عدا أن هلك فهلك ذكره. وذكر ما فعل به، وانَّ أخا هاشم يصرخ به في كل يوم خمس مرات:

(أشهد أن محمداً رسول الله).

(فأي عمل يبقى بعد هذا، لا أم لك، إلاّ دفناً دفناً)[1].

إنَّ هذه البادرة تنم عن إلحاده، ومروقه من الدين، إنه يحاول أن يمحي اسم الرسول ﷺ ويقبر ذكره، وقد مكث أربعين جمعة لا يصلي فيها على النبي ﷺ، وقد سئل عن ذلك فأجاب:

(لا يمنعني عن ذكره إلاّ أن تشمخ رجال بأنافها)[2]. ويضاف إلى هذه التصريحات سفكه دماء المسلمين بغير حق، وإشاعته الجور والإرهاب في الوطن الإسلامي، وهي ـ من دون شك ـ تدلّ على واقعه الجاهلي الذي لا عهد له بالإيمان والإسلام.

ب ـ الفِسقُ والفجورُ:

ودلّت الأحداث التي صدرت عن معاوية على انعدام الوازع الديني من نفسه، وأنه رجل فسق وفجور، ونسوق فيما يلي عرضاً موجزاً لبعض مظاهر خلاعته وفسقه:

شربه للخمر:

وألف معاوية منذ حداثة سنه شرب الخمر، فقد كان ذلك شائعاً في الأوساط الجاهلية، ولما حرمها الإسلام امتنع المسلمون من تعاطيها، إلاّ أنّ معاوية لم يعنِ بذلك، فقد ظل يتعاطاه في مجلسه، فقد وفد عليه عبد الله مع أبيه بريدة، فقدم لهما طعاماً وبعد الفراغ منه أمر بالشراب، فشرب منه، ثم ناوله بريدة، فقال له: ما شربته منذ حرمه رسول الله ﷺ. وكان الخمر يحمل إلى الشام، ويبعث به إلى معاوية، ومرّت على عبد الرحمن بن سهل

---

(١) شرح النهج لابن أبي الحديد: ٢/٣٥٧.
(٢) الغدير: ١٠/١٧٩.

الأنصاري روايا خمر، فقام إليها برمحه فبقر كل راوية منها، فبلغ ذلك معاوية فقال:

إنّه شيخ قد ذهب عقله.

عبد الرحمن:

كلا والله ما ذهب عقلي، ولكن رسول الله ﷺ نهانا أن تدخل بطوننا وأسقيتنا خمراً[1].

إنَّ بين معاوية حانة خمر، وبؤرة فسق وفجور، لا عهد له بذكر الله وطاعته، قد اتخذ معبداً ومقراً للخلعاء والماجنين.

لبسه للحرير:

وحرّم الإسلام لبس الحرير للرجال إلاّ في حال الحرب، ولكن معاوية لم يعنِ بذلك، فقد عمد إلى لبسه والتحلّي به[2].

خلاعتـه:

وأول مَن فتح باب الدعارة في الإسلام معاوية، فقد شجّع الماجنين على التغزل بالنساء وملاحقتهن. وقد تشبب أبو دهبة الجمحي بابنته، فعامله باللين، وأوصله وأعطاه[3].

وقد اندفع الفساق إلى الإثم والفجور حينما رأوا تشجيع السلطة الحاكمة لهم.

ومن تهتك معاوية أن اشترى جارية بيضاء جميلة فأدخلها عليه مولاه

---

(١) الإصابة: ٢/ ٤٠١، أسد الغابة: ٣/ ٢٩٩.
(٢) النصائح الكافية: ص ١٠١.
(٣) الأغاني: ٦/ ٣٩، ١٥٩.

(خديج) وهي مجرّدة عارية ليس عليها شيء من الثياب، وكان بيده قضيب فجعل يهوي به إلى متاعها وهو يقول: هذا المتاع لو كان لي متاع[1].

وتشبب عبد الرحمن بن حسان بن ثابت بابنة معاوية، فبلغ ذلك يزيد فغضب، ودخل على أبيه فقال له:

يا أبه أقتل عبد الرحمن بن حسان.

لِمَ؟

تشبب بأختي.

وما قال؟

قال:

طالَ ليلي وبتّ كالمحزونِ ومللتُ الثواء في جيرون

فأجابه معاوية باستهزاء وسخرية:

(يا بني، وما علينا من ظن أهله).

انه يقول:

هي زهراء مثل لؤلؤة الغوا ص ميزت من جوهر مكنون

صدق يابني هي كذلك.

إنَّهُ يقول:

وإذا ما نسبتها لم تجدها في سناء من المكارم دوني

صدق يا بني.

---

(١) البداية والنهاية: ٨/ ١٤٠.

إنَّهُ يقول:

ثـم خـاصـرتهـا إلـى القبـة الخضـ ـــراء تمشـي فـي مـرمـر مسنـون

ولا كل هذا يا بني.

ومازال يزيد يذكر له ما قال عبد الرحمن من التشبب بأخته، ومعاوية يدافعه عن ذلك، ويظهر براءته، وعدم استحقاقه للعقاب، وانتشر غزل عبد الرحمن، وإفتضحت ابنة معاوية، فأقبلت إليه طائفة من الناس، فأكبروا هذه الجرأة على ابنته، وقالوا له:

(لو جعلته نكالاً).

فامتنع معاوية من إجابتهم وقال لهم: (لا) ـ ولكن أُداويه بغير ذلك. واتفق أنَّ عبد الرحمن وفد على معاوية فاستقبله أحسن استقبال، وأجلسه على سريره، وأقبل عليه بوجهه ثم قال له:

إنَّ ابنتي الأخرى عاتبة عليك.

في أي شيء؟

في مدحك أختها، وتركك إياها.

لها العتبى وكرامة، أنا أذكرها.

وأخذ يتغزّل بابنة معاوية، فعلم الناس ذلك، قالوا: قد كنا نرى أن تشبب عبد الرحمن بابنة معاوية بشيء، فإذا هو على رأي معاوية وأمره[1].

وهذه البادرة تدلّ على مدى تفسخ أخلاق معاوية وانحراف سلوكه، وقد شجع بذلك الماجنين على التعرّض ببنات المسلمين، وقد بلغ التهالك

---

(١) حياة الإمام الحسن.

على اللذة والفساد منتهاه في عصره وعصر بني أمية.

أمثل هذا الخليع الماجن يكون خليفة على المسلمين، ووليّاً على أمورهم، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله.

الربـا:

وقد حرّم الإسلام الربا، وجعله من الكبائر والموبقات، فلعن العطي والأخذ والوسيط والشاهد، وجعل درهماً منه أعظم جرماً من سبعين زنية بذات محرم في بيت الله الحرام.

لقد حرّم الإسلام الربا صيانة لاقتصاد الأمة من التدهور والانحطاط، ولأن الآخذ للفوائد الربوية يكسبها من دون جهد أو عناء، ويترك بذلك شبح الفقر مخيماً على المعطي، الأمر الذي يوجب تكدّس الثروة بغير وجه مشروع عند طائفة من الناس، وشيوع الضيق والبؤس عند طائفة أخرى.

لقد حارب الإسلام الربا بجميع الوسائل، وألزم الدولة بإنزال العقوبات القاسية بمن يتعاطاه، ولكن معاوية الذي تربى تربية جاهلية لم يعن بذلك، ولم ير في التعامل الربوي بأساً فقد باع سقاية من ذهب أو ورق[1] بأكثر من وزنها، فقال له أبو الدرداء: سمعت رسول الله ﷺ ينهي عن مثل هذا، لا مثلاً بمثل.

معاويـة:

ما أرى بمثل هذا بأساً.

واستاء أبو الدرداء من جراءته على رسول الله ﷺ ورده لحكم من أحكام الإسلام، فاندفع يقول:

---

(١) الورق: الفضة.

من يعذرني من معاوية أنا أخبره عن رسول الله ﷺ ويخبرني عن رأيه، لا أساكنك بأرض أنت بها.

ثم ترك الشام وانصرف إلى يثرب[1].

إيه معاوية،

أنت لا ترى بأساً فيما حرمه الله ورسوله ﷺ وتقدم على عمد وعلم منك بالتحريم على ارتكابه.

هل لك يا (كسرى العرب)، ويا (فتى قريش) سلطة في المجالات التشريعية قبال المشرع الأعظم؟

جواب معاوية:

وكأنّي بمعاوية ينبري مدافعاً عن نفسه فيقول:

لقد احتذيت بمن قبلي من الخلفاء، فنهجت منهجهم، وسلكت سبيلهم، فقد اجتهد الخليفة الأول (أبو بكر) في قصة مالك بن نويرة، فأسقط الحدّ عن خالد بن الوليد، حينما زنى بزوجة مالك، وقتل جماعة من خيار المسلمين، وسبى ذراريهم بغير حق، وكذلك اجتهد الخليفة الثاني (عمر بن الخطاب) في المتعة، فقد أعلن أمام المسلمين بفتياه: (متعتان كانتا على عهد رسول الله حلال، وأنا محرّمهما ومعاقب عليهما) وله كثير من أمثال ذلك، وكذلك اجتهد الخليفة المظلوم ابن عمي عثمان بن عفان، في كثير من القضايا الشرعية مما كان فيه من الاجتهاد قبال النص، فلم أتفرّد أنا بذلك، فقد رأيت الخلفاء من قبلي إلى مخالفة النص والإفتاء برأيهم.

الإدعـاء:

ويرد الإدعاء العام على معاوية فيقول له:

---

(١) حياة الإمام الحسن: ٢/ ١٥٠.

إنَّ النصوص الشرعية حجة، ويجب التعبّد والأخذ بمضمونها، وليس لأحد أن يفتي قبالها، فإن ذلك موجب لإهمال الدين، وإلغاء نصوصه. وأما فتاوى الخلفاء في الوقائع التي خالفت النص فإنهم محاسبون عليها، فقد عُلِمَ بالضرورة من الدين عدم جواز الاجتهاد قبال النص.

ويطرق معاوية برأسه إلى الأرض، إذ لم يجد مجالاً للإعتذار والدفاع عن نفسه.

المكر والخداع:

وهناك نزعة جاهلية متأصلة في نفس معاوية، وهي المكر والخداع، فقد مهر في ذلك، وعرف به، فكان كالشيطان الرجيم يأتي المرء من بين يديه ومن خلفه، وعن يمينه وشماله، كما يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ونسوق بعض ألوان مكره وخداعه:

١ ـ انه تذرّع بدم عثمان، واتخذه وسيلة لنيل الخلافة، والظفر بالحكم، وإلاّ فأين هو من عثمان حين حوصر وأحاط الثوار بداره أربعين يوماً، وجيوشه مرابطة على الحدود، لم يسمح لها بنجدة عثمان ونصرته، فقد أرسل إلى قائد قواته المسلحة يزيد بن أسد القسري أنك إذا أتيت ذا خشب فأقم بها، ولا تتجاوزها، ولا تقل: الشاهد يرى ما لا يراه الغائب). فإني أنا الشاهد وأنت الغائب. وأقام يزيد بذي خشب حتى قتل عثمان[1]. وقد ردّ الإمام أمير المؤمنين عليه السلام هذه الفرية التي تمسك بها، فقال عليه السلام: قد أسهبت في ذكر عثمان، ولعمري ما قتله غيرك، ولا خذله سواك، ولقد تربصت به الدوائر، وتمنيت له الأماني، طمعاً فيما ظهر منك، ودلّ عليه فعلك[2].

---

(١) شرح النهج لابن أبي الحديد: ١٦/ ١٥٤.

(٢) وقعة صفين: ص ٤٧٢، الإمامة والسياسة: ١/ ٩٦.

وفند هذه المزاعم المفكر الإسلامي الكبير عبد الله بن عباس، فقد فضح هذا الأسلوب الرخيص الذي تذرّع به معاوية فقال:

فأقسم بالله لأنت المتربص بقتله، والمحب لهلاكه، والحابس الناس قبلك عنه، على بصيرة من أمره، ولقد آتاك كتابه وصريخه، يستغيث ويستصرخ، فما حفلت به، حتى بعثت إليه معتذراً بأجرة أنت تعلم أنهم لن يتركوه حتى يقتل، فقتل كما كنت أردت، ثم علمت عند ذلك أنَّ الناس لن يعدلوا بيننا وبينك، فطفقت تنعى عثمان، وتلزمنا بدمه، وتقول: قتل مظلوماً. فإن يك قتل مظلوماً فأنت أظلم الظالمين.

ثم لم تزل مصوباً ومصعداً، وجاثماً ورابضاً تستغوي الجهال، وتنازعنا حقنا بالسفهاء، حتى أدركت ما طلبت، وان أدري لعله فتنة ومتاع إلى حين[1].

وعرض أبو الطفيل الكناني إلى تزييف ذلك، فقد قال له معاوية:

أكنت فيمن حضر قتل عثمان؟

(لا) ولكني فيمن حضر فلم ينصره.

ما منعكَ من ذلك؟ وقد كانت نصرته عليك واجبة.

منعني ما منعك إذ تربصت به ريب المنون وأنت بالشام.

أوما ترى طلبي بدمه نصرة له؟

(بلا) ولكنك وإياه كما قال الجمدي:

لا ألفيتك بعد الموت تندبني وفي حياتي ما زودتني زادِ[2]

---

(١) شرح النهج لابن أبي الحديد: ١٦/ ١٥٥.

(٢) مروج الذهب: ٢/ ٦٢، تاريخ ابن عساكر: ٧/ ٢٠١، تاريخ الخلفاء: ص ١٣٧.

لقد اتخذ معاوية بمكره دم عثمان وسيلة لإعلان البغي والتمرّد على حكومة الإمام عليه السلام فأغرق الأرض بالدماء، وأشاع الثكل والحداد بين المسلمين.

٢ ـ ومن مكر معاوية أنه لما قتل الصحابي العظيم عمار بن ياسر خليل رسول الله صلى الله عليه وآله وصاحبه، وكان قد أنبأ صلى الله عليه وآله إن الفئة الباغية هي التي تقتله، فقد هاج أهل الشام، وحدثت الفتنة بينهم، واتضح لهم أنهم الفئة الباغية التي عناها رسول الله صلى الله عليه وآله إلاّ أنَّ معاوية قد استطاع بمكره وخداعه أن يزيل ذلك، ويرجع الحياة إلى مجراها الطبيعي، فقد أعلن لهم أنّ علياً هو الذي قتله، فصدق أهل الشام مقالته، وراحوا يهتفون: «إنما قتل عماراً من جاء به».

ورد الإمام عليه السلام هذه الفرية، قائلاً ما مضمونه:

«إذن فرسول الله صلى الله عليه وآله هو الذي قتل عمّه حمزة، لأنه أخرجه إلى قتال عدوّه».

٣ ـ ومن خداع معاوية: أنه أوهم على أهل الشام أنه وارث رسول الله صلى الله عليه وآله وأنّ بني أمية آله وذريّته، وقد استمر أهل الشام على هذا الاعتقاد إلى أنْ انقلبت الدولة الأموية، فقد خفّ طائفة الزعماء والوجوه إلى أبي العباس السفاح فحلفوا له أنهم ما علموا للرسول قرابة، ولا أهل بيت يرثونه غير بني أمية، وفي ذلك يقول الشاعر: إبراهيم بن المهاجر البجلي:

أيها الناس اسمعوا أخبركم	عجباً زاد على كل العجب
عجباً من عبد شمس أنهم	فتحوا للناس أبواب الكذب
ورثوا أحمد فيما زعموا	دون عباس بن عبد المطلب
كذبوا والله ما نعلمه	يحرز الميراث إلاّ من قرب[1]

(١) مروج الذهب.

لقد كان السواد الأعظم في دمشق يرى أن بني أمية ورثة النبي ﷺ وإن معاوية خليفة الله في أرضه، وكان ذلك ناشيء من خداع معاوية ومكره، فهو الذي موّه عليهم وغرر بهم، ليصرفهم عن قادة الإسلام الواقعيين، وهم ذرية رسول الله ﷺ الطيبون أعلام هذه الأمة، وقادتها إلى سبل الهدى والرضوان.

هذه بعض جوانب المكر المتمثل في معاوية وقد كان ذلك من أبرز صفاته وأهم مميزاته:

اللــؤم:

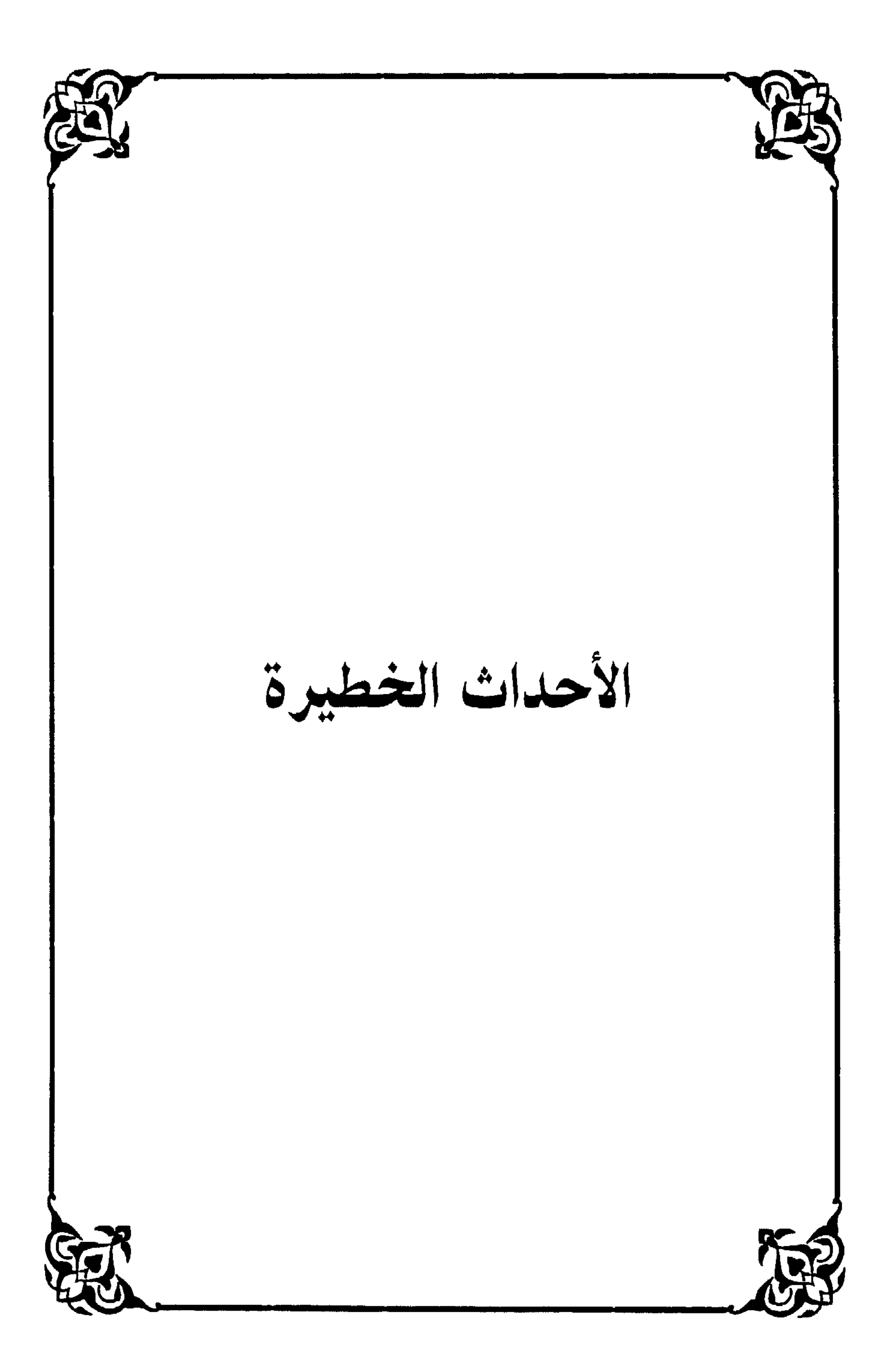
وطبعت ذات معاوية على اللؤم حتى عُدَّ من ذاتياته التي ما انفكت عنه طول حياته، فقد ورث لؤم الجاهلية، وخبث طباعها، وورث لؤم بني أمية، الذين هم من أقذر عناصر الجاهلية، ومن أسوء أبنائها، فقد عرفوا بالأنانية والحقد والظلم والإعتداء، وخيانة العهد، وغير ذلك من صفات اللؤم والخبث.

لقد انتهى معاوية في لؤمه إلى قرار سحيق، فكان من مظاهر لؤمه أنّه لما سبق بجيشه إلى حرب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في «واقعة صفين» استولى على الفرات، ووضع جنوده على جميع شرائعه ليمنع الجيش العراقي من الإستقاء منه، وبعث الإمام عليه السلام بعض أصحابه إلى معاوية طالباً منه أن يسمح لهم في الورود من الماء، فأبى ابن هند من إجابتهم، فحمل الجيش العراقي على صفوف أهل الشام فأزالوهم عن الفرات، وامتلكوه، وسمح الإمام عليه السلام لجنود معاوية أن يردوا منه، ولم يكل لهم صاعاً بصاع، وقد عمل معهم عمل المحسن الكريم.

هذه بعض النزعات الشريرة التي يكنها معاوية في أعماق نفسه، ودخائل ذاته، وهي لا تؤهله للوصول إلى أي مركز اجتماعي، فضلاً عن

الخلافة التي لا بُدّ أن تتوفر جميع الصفات الخيرة، والنزعات الشريفة فيمن يؤهل لها.

إنَّ أحقاد قريش وأضغانها على الإسلام وعلى أهل البيت هي التي دفعتهم إلى نصب معاوية إماماً على المسلمين، ونعته بأنه (كسرى العرب) و(فتى قريش) فإنا لله وإنا إليه راجعون، وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون.



الأحداث الخطيرة

ويسود صمتٌ رهيب محزن على جميع أهل المحشر بعد سماعهم للعرض الموجز عن نشأة معاوية، ونزعاته التي دلّت على جاهليته، وتجرّده عن جميع القيم الإنسانية، ويتساءَل الكثيرون:

كيف صار هذا البغي الأثيم أميراً على المسلمين؟

ما هي المؤهلات التي رشحته للمنصب الديني الأعلى في الإسلام؟

أين ذهب أحرار المسلمين، ومفكروهم، كيف تركوا هذا الدعي يتحكّم في مصيرهم، وسائر مقدراتهم؟

ويأتيهم النداء عالياً:

إن ذلك كان ناشئاً عن تسامح المسلمين، وغفلتهم، وعدم قيامهم بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر الذي جعله الإسلام قاعدة أساسية لتطورهم، وتقدمهم، وبلوغهم إلى الأهداف النبيلة، فلما تركوه وانسابوا وراء أطماعهم وشهواتهم، ابتز أمرهم الجلادون والطغاة والمستبدون، فأذاقوهم سوء العذاب.

الإدعـاء:

ويأخذ الإدعاء صورة مفجعة مريرة من أحداث معاوية التي هزت العالم الإسلامي، وغيّرت مجرى الحياة الكريمة في الإسلام وهي:

ابتزاز أمر المسلمين:

وابتز معاوية أمر المسلمين بالقوة والقهر والغلبة، فتذرع بشتى الوسائل لفرض نفسه حاكماً على المسلمين، وكان من أظهر الوسائل التي تذرع بها لنيل الخلافة مطالبته بدم عثمان، فأغرى السذج والبسطاء بدمه وقميصه، فساقهم كالأغنام لحرب وصي رسول الله ﷺ وباب مدينة علمه، ومن كان منه بمنزلة هارون من موسى.

إيه معاويه:

لماذا سفكت دماء المسلمين، وأشعلت نار الفتنة، وألهبت نار الحرب، وأشعت الثكل والحداد بين المسلمين؟

لقد خبأ لنا الدهر منك عجباً، إذ طفقت تنازع أهل بيت النبوة، ومعدن الرسالة ومختلف الملائكة، في حقهم، وتدعي أنك أولى بالأمر منهم، وأي حق للطلقاء وأبناء الطلقاء في التصرف بأمور المسلمين، وإدارة شؤونهم.

إيه معاوية:

لقد فرضت سلطانك على أمة محمد ﷺ بقوة الحديد والنار، وبسطت عليها سياستك الرعناء التي تفجرت بكل ما خالف كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ وقد لاقى المسلمون في عهدك جميع صنوف الإرهاب والإرهاق.

لقد قام سلطانك على إذاعة الذعر والخوف، وقتل الأبرياء، وسجن النساء، وذبح الأطفال والشيوخ، وإنّ سلطاناً يقوم على ذلك لهو سلطان سوء وعذاب.

مأساة صفين:

ومن أهم المحن الكبرى التي واجهها المسلمون، وامتحنوا بها امتحاناً عسيراً، وأرهقوا إرهاقاً شديداً هي مأساة صفين، فقد تصارعت فيها قوى البغي والظلم مع قوى الحق والعدل، وتناجزت فيها جيوش الشرك مع جيوش التوحيد والإيمان، فكان علي عليه السلام يناهض معاوية ليقيم في دنيا العرب والإسلام معالم الحق، والعدل، ومعالم الحرية والمساواة، ويقضي على جميع الظلم والبغي والاعتداء.

وكان معاوية يحارب علياً من أجل أطماعه ومبادئه الرخيصة، لقد حارب علياً ليقضي على الوعي الاجتماعي، ويقضي على المثل العليا التي جاء هذا الدين ليقيمها في أعماق النفوس، ويحرر المجتمع من جميع ألوان الغبن الاجتماعي، والاضطهاد الفكري، ويرفع راية الحرية والعدالة في الأرض.

لقد كانت مأساة صفين من أوليات المعارك التي لم يقرر فيها الإنسان المسلم حتى مصيره في الحياة، وقد أخلدت للمسلمين في جميع مراحل حياتهم وتاريخهم المحن والخطوب، وها نحن نعرض بمزيد من الأسف والأسى بعض فصولها الحزينة وهي:

بواعث العصيان:

إنَّ البواعث التي دعت معاوية إلى إعلان التمرّد على حكومة الإمام عليه السلام هي كما يلي:

١ ـ ومن أهم العوامل التي حملت معاوية على العصيان أنه علم أنّ الإمام عليه السلام لا يبقيه على كرسي الحكم ساعة واحدة، وأنه سوف يجرّده من جميع أمواله التي اختلسها من بيت المال، لقد كان معاوية على يقين من

ذلك، فهو يعلم سيرة ابن أبي طالب التي لا تقبل المداهنة في حقوق المسلمين، وسائر قضاياهم، ولو كان يحتمل أنّه يبقيه على بذخه وسرفه، ويتركه والياً على دمشق لمّا أعلن العصيان والخروج عليه.

لقد أصدر الإمام عليه السلام في اليوم الأول من خلافته عزل معاوية عن مقره، وقد أشار عليه بعض خواصه أن يبقيه في محله، نظراً لما يتمتع به من النفوذ والقوة، فأبى، لأنه لا يجوز في شريعة الله أن يعهد إلى اللصوص والجلادين أيّ أمر من أمور المسلمين.

٢ ـ ورأى معاوية أنَّ له القدرة والقابلية على مناجزة الإمام، وذلك لما له من النفوذ السياسي في دمشق، فإنه لم يعمل فيها عمل والٍ، وإنما عمل فيها عمل صاحب الدولة التي يؤسسها ويدعمها له ولأبنائه، فاشترى الأنصار، وأحاط نفسه، واستعد للبقاء الطويل، وقد دفعه ذلك إلى إعلان التمرّد والعصيان.

٣ ـ ومما شجعه على العصيان خروج عائشة وطلحة والزبير على حكومة الإمام علي عليه السلام، فقد فتحوا له الطريق، ومهدوا له السبيل، ولولا خروجهم على الإمام لم يجد معاوية سبيلاً إلى البغي والعصيان، فواقعة صفين إنما هي امتداد لحرب الجمل، ونتيجة مباشرة لها.

٤ ـ وشيءٌ آخر جدير بالاهتمام علل به معاوية عصيانه، وذلك في رسالته التي بعثها إلى محمد بن أبي بكر، فقد جاء فيها:

(كان أبوك وفاروقه أول مَن ابتزه ـ يعني علياً ـ حقه وخالفاه على أمره، على ذلك اتفقا واتسقا، ثم دعواه إلى بيعتهما فأبطأ عنهما وتلكأ عليهما، فهما به الهموم، وأرادا به العظيم، ثم إنه بايع لهما وسلم لهما، وأقاما لا يشاركانه في أمرهما ولا يطلعانه على سرهما حتى قبضهما الله... وأضاف يقول: فإن يكن ما نحن فيه صواباً فأبوك استبدّ به، ونحن شركاؤه، ولولا ما فعل أبوك

من قبلنا ما خلفنا ابن أبي طالب ولسلمنا إليه، ولكن رأينا أباكَ فعل ذلك به من قبلنا وأخذنا بمثله)[1].

وهو تعليل وثيق للغاية فإنه لولا منازعة الشيخين لعلي عليه السلام، وتصديهما لسلبه تراثه، وإجماعهما على الحطّ من شأنه، لم يجد معاوية سبيلاً إلى إعلان البغي والتمرّد على حكومة الإمام.

هذه بعض الأسباب التي حفزت معاوية على مناجزة الإمام ومناهضة حكمه[2].

رُسُلُ السَلامِ:

ولما انتهت حرب الجمل وأعلن معاوية العصيان طلب أصحاب الإمام وقادة الجيش منه أن ينهض بهم لحرب معاوية، وكأنهم أرادوا أن يقصوا جميع العناصر المعادية للدولة، وقد امتنع الإمام عليه السلام من إجابتهم، لأنّ خطته كانت المسالمة وإيثار العافية، فرأى عليه السلام أنْ يوفد للقياه رسل السلام، فيدعونه إلى الطاعة والدخول فيما دخل فيه الناس، وقد أوفد للقياه جرير بن عبد الله البجلي وزوده بهذه الرسالة:

أما بعد: فإنّ بيعتي بالمدينة لزمتك وأنت بالشام، لأنه بايعني القوم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان على ما بايعوا عليه، فلم يكن للشاهدِ أنْ يختار، ولا للغائب أنْ يُرد، وإنما الشورى للمهاجرين والأنصار، فإن اجتمعوا على رجلٍ فسموه إماماً كان ذلك لله رضاً، فإنْ خرج من أمرهم خارج بطعن أو رغبة ردوه إلى ما خرج عنه، فإن أبى قاتلوه على اتباعه غير سبيل المؤمنين، وولاّه الله ما تولّى، ويصليه جهنم، وساءت مصيراً.

---

(١) المسعودي على هامش ابن الأثير: ٦/٧٨ ـ ٧٩.

(٢) حياة الإمام الحسن: ١/٤١٨ ـ ٤٢١.

وإنّ طلحة والزبير بايعاني ثم نقضا بيعتي، وكان نقضهما كردهما، فجاهدتهما على ذلك حتى جاء الحق، وظهر أمر الله وهم كارهون، فأدخل فيما دخل فيه المسلمون، فإنه أحب الأمور إليّ فيك العافية، إلاّ أن تتعرض للبلاء، فإن تعرضت له قاتلتك واستعنت الله عليك، وقد أكثرت في قتلة عثمان، فادخل فيما دخل فيه المسلمون ثم حاكم القوم إليّ، أحملك وإيّاهم على كتاب الله».

فأما تلك التي تريدها فخدعة الصبي عن اللبن، ولعمري لأن نظرت بعقلك دون هواك، لتجدني أبرأ قريش من دم عثمان، وأعلم أنك من الطلقاء الذين لا تحل لهم الخلافة، ولا تعرض فيهم الشورى، وقد أرسلت إليك وإلى من قبلك جرير بن عبد الله من أهل الإيمان والهجرة فبايع ولا قوة إلاّ الله[1].

وكانت هذه الرسالة رسالة حق داعية واعية دعت إلى الحق من أقصر سبله، وبأوضح أساليبه، وقد دمر فيها باطل معاوية، وقوض معاقله، ولم يترك له فيها منفذ يلج منه.

وانتهى جرير برسالة الحق يحملها إلى الطاغية الجبار، وقد قال له ناصحاً: أما بعد: يا معاوية فإنه قد اجتمع لابن عمّك أهل الحرمين[2]، وأهل المصرين[3]، وأهل الحجاز، وأهل اليمن، وأهل العروض[4] وعمان، وأهل البحرين واليمامة، فلم يبق إلاّ أهل هذه الحصون التي أنت فيها، لو سال عليها سيل من أوديته غرقها، وقد أتيتك أدعوك إلى ما يرشدك، ويهديك إلى مبايعة الرجل[5].

---

(١) وقعة صفين: ٣٣.
(٢) الحرمان: مكة والمدينة.
(٣) المصران: البصرة والكوفة.
(٤) العروض: مكة والمدينة وما حولهما.
(٥) وقعة صفين: ص ٣٣.

وحفلت هذه الكلمات بالنصيحة الواعية التي لو استجاب لها معاوية لأسدى يداً على المسلمين وأنقذهم من شرٍّ عظيم، ولكن هيهات أن يستجيب معاوية للحق، أو أنْ ينصاع إلى أي دعوة رشيدة، فإنه ابن هند، وحليف الباطل، وعدوّ الحق.

خيبةُ الأمـلِ:

وضاعت أمال الإمام عليه السلام في الدعوة إلى السلم والوئام، فقد أصرّ معاوية على غيّه وتمرّده بعد أن اجتمع له الأنصار والأعوان، وأحاط نفسه بالقوة، فأجمع رأيه على ردّ سفير الإمام عليه السلام وإبلاغه أنه ليس بينه وبين الإمام إلاّ الحرب، وبعث خلفه، فعرّفه بالأمر، وأرسل معه إلى الإمام رسالة جاء فيها:

(أما بعد: لو بايعك الذين ذكرت وأنت بريء من دمّ عثمان، لكنت كأبي بكر وعمر وعثمان، ولكنك أغريت بدم عثمان، وخذلت الأنصار، فأطاعك الجاهل، وقوي بك الضعيف، وقد أبى أهل الشام إلاّ قتالك حتى تدفع إليهم قتلة عثمان، فإن فعلتَ كانت شورى بين المسلمين، وإنما كان الحجازيون هم الحكام على الناس، والحق فيهم، فلما فارقوه كان الحكام على الناس أهل الشام، ولعمري ما حجتك على أهل الشام كحجتك على طلحة والزبير، إن كانا بايعاك فلم أبايعك أنا، فأما فضلك في الإسلام وقرابتك من رسول الله صلى الله عليه وآله فلست أدفعه)[1].

وحملت هذه الرسالة في جميع فروعها وسطورها البهتان والأباطيل، فقد اتّهم معاوية الإمام عليه السلام بدم عثمان، وهو يعلم ببراءته منه، فقد أراقت دمه وأطاحت بحكمه أحداثه الخطيرة، وانتهاكه لحرمات الإسلام، وأناط

---

(١) حياة الإمام الحسن: ١/ ٤٢٩.

معاوية في رسالته ـ أمر الخلافة الإسلامية بأيدي الغوغاء والأغبياء من أهل الشام، فجعلهم الحكام على المسلمين ليغريهم بذلك، ويجمعهم على حرب وصي رسول الله ﷺ.

وهبط جرير وهو خافق في سفارته ومعه رسالة معاوية، فعرف عليه السلام أطماعه، وما يرومه من البغي، وشقّ عصا الطاعة، فرأى عليه السلام أن يقيم عليه الحجة مرة أخرى ليعذر في أمره، وحتى لا يجد معاوية مجالاً للإعتذار أمام الله، فأوفد إليه السفراء من خلّص المؤمنين، يدعونه إلى الطاعة، والدخول فيما دخل فيه المسلمون، إلاّ إنّ ذلك لم يكن يجدي معه شيئاً، فقد أصرّ على العناد، وإعادة الحرب.

الزَحفُ إلى صفين:

وبعد أن توفّرت القوى العسكرية الهائلة لمعاوية زحف بها إلى صفين، وقد خفّ معه المنحرفون عن الإسلام، والمعادون للإمام عليه السلام وغرضهم الإطاحة بالحكم الإسلامي، وإعادة الحياة الجاهلية.

لقد اجتمعوا على حرب الإمام عليه السلام كما اجتمعوا من قبل على حرب رسول الله ﷺ فحرب صفين إنما هي امتداد للحرب التي شنتها المنظمات الجاهلية على الإسلام من حين بزوغ نوره، وقد حاولت بهذه الحرب أن تقتلع جذور الإسلام، وتمحي سطوره، وتجعله أثراً بعد عين.

احتلال الفرات:

وأوعز معاوية إلى جيوشه أن تحتل جميع شرايع الفرات في صفين، ولا تدع منها منفذاً ينتهل منه جيش الإمام عليه السلام. واعتبر معاوية ذلك أول الظفر والنصر.

الماء حق مشاع لجميع المخلوقات تشترك فيه، حتى خنازير السواد

وكلابها، وقد أجمعت على ذلك جميع الأديان والأعراف الاجتماعية، ولكن معاوية لا يؤمن بأيّ مقياس من مقاييس الإنسانية، أو بأي عرف اجتماعي، فراح يحرم على الإمام وعلى جيشه أن ينالوا من الماء شيئاً. طبع لئيم، وذات خبيثة، لا تفقه الرحمة والرأفة، ولا ترعى أي حقّ للإنسان، وقد انطبع الأمويون على هذا الخلق المرذول، فلم تمضِ على هذه الفعلة النكراء حفنة من السنين حتى ارتكبوا ما هو أبشع من ذلك، فقد احتلت جيوشهم جميع شرايع الفرات في كربلاء، وحرموا على ريحانة الرسول ﷺ: الحسين بن علي أن يأخذ من الماء جرعة واحدة، وأخذ العطش منه عليه السلام مأخذاً أليماً، فقد تفتت كبده من شدة الظماء، وصار يبصر السماء كالدخان، ولسانه كشفة مبرد، وصرع العطش جميع أصحابه وإخوانه وأبنائه وعائلته. وأغمي على ولده الرضيع عبد الله من شدّة العطش، فانطلق يحمله كالبدر يطلب إليه جرعة واحدة من الماء لترد له الحياة، فأوعزت القيادة العامة إلى بغي آثيم، أن يرمي الطفل وهو على صدر أبيه، فرماه اللعين بسهم غادر فذبحه من الوريد إلى الوريد، ولما أحسّ الطفل بحرارة السهم أخرج يديه من القماط وراح يرفرف على صدر أبيه كالطير المذبوح، ومضى الحسين برضيعه، وهو ملطخ بدمه، فاستقبلته الصبية، وقد ظنّت أنه قد سقى الرضيع الماء، وحمل إليهم بقيته، راح الحسين عليه السلام يقول بصوت خافت حزين النبرات:

خذوا عبد الله مذبوحاً، قد سقوه القوم بدلاً من الماء كأس المنية. وانعطف نحو القوم، وقد مزّق الأسى قلبه، وأضر به العطش.

وأخذ جميع أهل المحشر يذرفون الدموع، وقد تعالت أصواتهم بالهتاف:

اللهم: اشدد عذابك ونقمتك على هؤلاء الظالمين.

اللهم: خلدهم بنارك، ولا تذقهم عفو رحمتك ولطفك.

ويأتيهم النداء عالياً:

إني أعذّبهم عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين، فهم مخلدون في نار جهنم، كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها، كان ذلك جزاء وفاقاً لما ارتكبوه من عظيم الإثم والجرم.

الإدعـاء:

ويأخذ الإدعاء بعرض وقائع صفين على أهل المحشر، ويقص عليهم صوراً من فصولها.

مسير الإمام إلى صفين:

ولما توفرت القوى العسكرية للإمام عليه السلام تهيأ للخروج إلى صفين، وأمر الحارث بن الأعور أن ينادي في الناس بالخروج إلى معسكرهم في النخيلة، فنادى فيهم بذلك، فعجت الكوفة بالنفار، وخرج الإمام تحف به صحابة النبي صلى الله عليه وآله وقد زحفت معهم الكتائب كأنها السيل، وهي ما بين راكب وراجل، وهم يعرفون قصدهم في خروجهم، فإنهم ما خرجوا إلاّ لنصرة الحق، ومحاربة أعداء الإسلام وخصومه.

لزمت جيوش الإمام في زحفها السريع (الفرات) فلما انتهت إلى (الأنبار) خف أهلها لاستقبال الإمام عليه السلام وجاؤوا إليه يهرعون، فتنكر منهم رائد الحق والعدالة الكبرى في الأرض، فانطلق يقول:

ما هذه الدواب التي معكم، وما أردتم بهذا الذي صنعتم؟

فانبروا يبدون عظيم ولائهم قائلين:

يا أمير المؤمنين. أما هذا الذي صنعنا فهو خلق منا، نعظم به الأمراء، وأما هذه البراذين فهدية لك، وقد صنعنا لك وللمسلمين طعاماً، وهيأنا لدوابكم علفاً كثيراً.

فزجرهم الإمام عن ذلك قائلاً:

أما هذا الذي زعمتم أنه منكم خلق تعظمون به الأمراء، فوالله ما ينفع هذا الأمراء، وأنكم لتشقون على أنفسكم وأبدانكم، فلا تعودوا له، وأما دوابكم هذه فإن أحببتم أن نأخذها منكم فنحسبها من خراجكم، أخذناها منكم، وأن طعامكم الذي صنعتم لنا فإنا نكره أن نأكل من أموالكم شيئاً إلاّ بثمن.

هذا هو منطق العدل الذي سار عليه ابن أبي طالب رائد العدالة، والممثل الأول لأهداف الإسلام، فلم يسمح للمهرجانات الشعبية، ولا لسائر المظاهر التي اعتادها الملوك والأمراء لإظهار غطرستهم وتفوقهم على الرعية، والحكام في نظر الإمام خدّام الأمة، وليس لهم أي ميزة على بقية أفراد الشعب.

واندفع الأنباريون قائلين:

(يا أمير المؤمنين: نقومه ـ أي الطعام ـ ثم نقبل ثمنه).

فأعرض الإمام عنهم، وقال:

لا تقومونه قيمته.

ثم تركهم وانصرف عنهم[1]، وسارت جيوشه تطوي البيداء حتى انتهت إلى صفين، فنزلت بأزاء أصحاب معاوية.

القتال على الماء:

ولم يجد أصحاب الإمام عليه السلام على الفرات شريعة يستقون منها الماء إلاّ حفت بالحرس الكثير، وهم يمانعونهم أشد الممانعة من الوصول، فخفوا

---

(١) وقعة صفين: ص ١٦٠ ـ ١٦١.

سراعاً إلى الإمام يخبرونه بالأمر، فدعى عليه السلام صعصعة بن صوحان فأوفده إلى معاوية، وقال له:

أئتِ معاوية، فقل: (إنا سرنا مسيرنا هذا، وإنا نكره قتالكم قبل الإعذار إليكم، وإنك قدمت بخيلك، فقاتلتنا قبل أن نقاتلك، وبدأتنا بالقتال، ونحن من رأينا الكف حتى ندعوك، ونحتج عليك. وهذه أخرى قد فعلتموها، حتى حلتم بين الناس وبين الماء. فخلّ بينهم حتى ننظر فيما بيننا وبينكم، وفيما قدمنا له، وقدمتم، وإن كان أحب إليك أن ندع ما جئتنا له، وندع الناس يقتتلون على الماء حتى يكون الغالب هو الشارب، فعلنا).

وانطلق صعصعة وعرض على معاوية مقالة الإمام عليه السلام واستشار معاوية أصحابه، فأشار عليه الوليد بن عقبة ربيب الكفر والنفاق، فقال له:

(امنعهم الماء كما منعوه ابن عفان، حصروه أربعين يوماً يمنعونه برد الماء ولين الطعام، اقتلهم عطشاً قتلهم الله).

وأشار عليه ابن العاص بالسماح، ولكن ابن عقبة أعاد مقالته، وأيده عبد الله بن سعد بن أبي سرح، فقال له:

(امنعهم الماء إلى الليل، فإنهم إن لم يقدروا عليه رجعوا، وكان رجوعهم هزيمتهم امنعهم الماء منعهم الله يوم القيامة).

فثار صعصعة في وجهه وصاح به:

إنما يمنعه الله يوم القيامة الكفرة الفجرة شربة الخمر، ضربك وضرب هذا الفاسق ـ وأشار إلى الوليد ـ).

وتواثب الأمويون يشتمونه، ويتهددونه، فحاماه معاوية عنهم، ورجع صعصعة إلى الإمام ولم تنتج سفارته شيئاً.

وانبرى الأشعث بن قيس إلى الإمام، فقال له:

يا أمير المؤمنين: أيمنعنا القوم ماء الفرات، وأنت فينا، ومعنا السيوف، خلّ عنّا وعن القوم، فوالله لا نرجع حتى نرده أو نموت، ومُر الأشتر فليعمل بخيله فيقف حيث تأمره).

فمنحه الإمام عليه السلام الإذن ولما ظفر الأشعث به رجع إلى قومه وهو يهتف بهم: (من كان يريد الماء أو الموت فميعاده الصبح، فإني ناهض إلى الماء) فأجابه اثنا عشر ألفاً فلما رأهم قام مزهواً، وهو يشد عليه لامة حربه، وهو يقول:

ميعادنا اليوم بياض الصبح هل يصلح الزاد بغير ملح

لا ـ لا ـ ولا أمر بغير نصح دبوا إلى القوم بطعن سمح

مثل العزالى بطعان نفح[1] لا صلح للقوم وأين صلحي

حسبي من الإقحام قاب رمح[2]

ولما اندلع لسان الصبح دبّت الجماهير كأنها السيل، فحمل بهم الأشعث على أهل الشام، وهو يقول لقومه:

بأبي أنتم وأمي تقدموا قاب رمح.

ولم يزل الأشعث يثير في نفوس العراقيين روح النخوة والعزم، حتى خالطوا أهل الشام، فصاح بهم: (خلوا عن الماء) فأجابه الوغد الأثيم أبو الأعور السلمي: إننا لا نخلي عن الماء ولا نسمح لكم بوروده. وهجم الجيش العراقي على صفوف أهل الشام، وأزالوهم عن مراكزهم، وألحقوا بهم خسائر فادحة في الأموال والنفوس، وملك العراقيون الفرات.

---

(١) العزال: جمع عزلاء ـ بالفتح ـ فم المزادة، شبه به اتساع الطعنة واندفاق الدماء منها، النفح: الدفع، وطعنه نفاحة أي دفاعة بالدم.

(٢) قاب رمح: أي قدره.

يا له من موقف كريم مشرف، للأشعث، ولكنه لم يلبث أن صار داعية ضلال وإثم، فقد انقلب على عقبه وارتدّ عن دينه، وصار علماً للمنافقين، ورأساً من رؤوس الباطل، فهو الذي أرغم الإمام على التحكيم، وأفسد عليه جيشه، وخذل عنه أنصاره، وكان من أقوى العوامل التي أطاحت بحكومة الإمام عليه السلام.

وعلى أي حال، فإنّ العراقيين بعدما ملكوا الفرات، خفوا سراعاً إلى الإمام يبشرونه بهذا الظفر، وأصدر عليه السلام أوامره الحاسمة بالسماح لأهل الشام أن ينتهلوا من ماء الفرات، ولم يكيل لهم الصاع بالصاع، وإنما عمل معهم عمل المحسن الكريم.

خلق من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم منبعه، ونفس زكية تفيض بالخير والحنان، حتى على الأعداء والحاقدين، لتعلم الناس بهذا السلوك أن الإنسان يجب أن يحب الخير حتى لعدوّه والناقم عليه.

رُسل السِلم:

وقبل أن يدق جرس الحرب، أوفد الإمام رسل السلم إلى معاوية، كما أوفد له من قبل، رجاء في الصلح، وإيثاراً للعافية، وحقناً للدماء، وقد أوفد للقياه عدي بن حاتم وشبث بن ربعي، ويزيد بن قيس، وزياد بن حفصة، فوجّه إليه عدي بن حاتم كلامه، قائلاً له:

(أما بعد: فإذا أتيناك لندعوك إلى أمر يجمع الله به كلمتنا وأمتنا، ويحقن به دماء المسلمين، وندعوك إلى أفضل الناس سابقة وأحسنهم في الإسلام آثاراً[1] وقد اجتمع له الناس، وقد أرشدهم الله بالذي رأوا، فلم يبق

(١) في تاريخ الطبري: إن ابن عمك سيد المسلمين أفضلها سابقة وأحسنها في الإسلام آثاراً.

أحد غيرك وغير من معك، فانته يا معاوية من قبل أن يصيبك الله وأصحابك بمثل يوم الجمل).

وهي دعوة حق، ودعوة رشاد، لو وعاها معاوية واستجاب لها، لحقن دماء المسلمين، وجمع كلمتهم، ولكنه آثر مصالحهُ، فانبرى لعدي قائلاً:

(كأنّك إنما جئت متهدداً، ولم تأتِ مصلحاً، فهيهات يا عدي، والله إني لابن حرب ما يقعقع لي بالشِّنان أما والله إنك لمن المجلبين على ابن عفان، وإنك لمن قتلته، وإني لأرجو أن تكون ممن يقتله الله. هيهات يا عدي، قد حلبت بالساعد الأشد).

وهو منطق العناد والبغي، فإن عدي إنما جاء مصلحاً، وجاء بالحق، ولم يأت مهدداً له، وقد آثر معاوية الباطل، والخروج على إجماع المسلمين. وانطلق يزيد بن قيس فقال لمعاوية:

(إنا لم نأتكَ إلاّ لنبلغك ما بُعثنا به إليك، ولنؤدي عنك ما سمعنا منك، لن ندع أن ننصح لك، وأن نذكر ما ظننا أن لنا به عليك حجة، أو أنه راجع بك إلى الألفة والجماعة، وأن صاحبنا لمن عرفت، وعرف المسلمونُ فضله، ولا أظنه يخفى عليك، أن أهل الدين والفضل لن يعدلوك بعلي، ولن يميلوا بينك وبينه، فاتق الله يا معاوية، ولا تخالف علياً، فإنّا والله ما رأينا رجلاً قط أعمل بالتقوى، ولا أزهد في الدنيا، ولا أجمع لخصال الخير منه).

وحفل كلام يزيد بالدعوة إلى الحق، والدعوة إلى الألفة والجماعة، والإشادة بفضل الإمام، فقد أجمع المسلمون على فضله وعلى تقديمه على غيره.

ولن يعنِ معاوية بذلك، فقد أصرّ على الإثم وراح يخاطب القوم:

(أما بعد: فإنكم دعوتم إلى الطاعة والجماعة، فأما الجماعة التي دعوتم إليها، فنعما هي، وأما الطاعة لصاحبكم فإنّا لا نراها. إنَّ صاحبكم

قتل خليفتنا، وفرّق جماعتنا، وآوى ثأرنا، وقتلتنا، وصاحبكم يزعم أنه لم يقتله، فنحن لا نرد ذلك عليه، أرأيتم قتلة صاحبنا؟ ألستم تعلمون أنهم أصحاب صاحبكم؟ فليدفعهم إلينا فلنقتلهم به، ونحن نجيبكم إلى الطاعة والجماعة).

وحفل كلام ابن هند بالإفتراء والأغاليط، فقد اتّهم الإمام بقتل عثمان، وهو يعلم ببراءته منه، وإنما قتله الأخيار والمتحرجون في دينهم، لمّا شذ في سياسته عن سياسة الرسول الأعظم ﷺ فأي علاقة للإمام بدمه.

وانبرى شبث بن ربعي فخاطب معاوية:

(أبرك بالله يا معاوية، إن أمكنت من عمّار بن ياسر أن تقتله)؟

إنَّ عمار بن ياسر من ألمع أصحاب النبي ﷺ ومن أكثرهم ملازمة لهديه وسمته، وهو في طليعة الثائرين على عثمان والمشتركين في دمه، فهل يقتصّ منه معاوية؟

فقال معاوية:

(وما يمنعني من ذلك؟ والله لو أمكنني صاحبكم من ابن سمية ما قتلته بعثمان، ولكن أقتله بنائل مولى عثمان بن عفان).

وما الذي يمنع معاوية من قتل عمّار أو علي في سبيل الملك والسلطان، والتحكم في رقاب المسلمين، وثار شبث فصاح به:

(لا والله الذي لا إله إلاّ هو لا تصل إلى قتل ابن ياسر، حتى تندر الهام عن كواهل الرجال، وتضيق الأرض الفضاء عليك برحبها).

واستبان لسفراء الإمام بغي معاوية وتمرّده، ورجعوا وهم خافقون في سفارتهم، وجعلوا يدعون الناس للحرب، ويحرضونهم على مناجزة معاوية وحربه.

إعـلان الحـرب:

ولما أخفقت جميع الوسائل التي اتخذها الإمام من أجل السلم وعدم إراقة الدماء تهيأ للحرب، وأصدر أوامره الرفيعة إلى قادة الجيش وأمراء الكتائب، وقد جاء فيها:

(لا تقاتلوهم حتى يقاتلوكم، فأنتم بحمد الله على حجة، وترككم قتالهم حجة أخرى، فإذا هزمتموهم فلا تقتلوا مدبراً، ولا تجهزوا على جريح، ولا تكشفوا عورة، ولا تمثلوا بقتيل، فإذا وصلتم إلى رحال القوم فلا تهتكوا ستراً، ولا تدخلوا داراً إلاّ بإذني، ولا تأخذوا شيئاً إلاّ ما وجدتم في معسكرهم، ولا تهيجوا المرأة، وإن شتمن أعراضكم، وتناولن أمراءكم وصلحاءكم، فإنهن ضعاف القوى والأنفس والعقول).

وحفلت هذه الوصية بجميع معاني النبل والرحمة، وحب الخير، حتى لأعدائه ومناوئيه.

إنه لم يرد إلاّ السلم وحقن الدماء، ولكنه ملجأ إلى الحرب، وهو يطلب من جيشه إذا ظفروا بخصومه أن لا يقتلوا مدبراً، ولا يجهزوا على جريح، ولا يمثلوا بقتيل، ولم تعرف الإنسانية بجميع أدوارها مثل هذا التشريع في السياسة الحربية، المبنية على القوة والتنكيل بالخصم.

وعقد الإمام الألوية، وانتخب ذوي الكفاءة والمتحرجين في دينهم، فجعلهم قادة لجيشه، وأمراء لعسكره، وأسند القيادة العامة إلى هاشم المرقال الصحابي العظيم.

وعبأ معاوية أصحابه، ومنح الوظائف العسكرية لمن يثق بانحرافه عن الإمام عليه السلام أمثال حبيب بن مسلم الفهري، وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد، وعبيد الله بن عمر بن الخطاب، وعبيد الله بن عمرو بن العاص،

ونظرائهم من الّذين لا يرجون لله وقاراً.

نِـداءُ عمـار:

واندفع الصحابي العظيم عمار بن ياسر إلى تعريف الجيش الشامي بواقع معاوية فقال:

يا أهل الشام أتريدون أن تنظروا إلى من عادى الله ورسوله ﷺ وجاهدهما، وبغى على المسلمين، وظاهر المشركين. فلما أراد الله أن يظهر دينه، وينصر رسوله، أتى النبي فأسلم، وهو والله فيما يرى راهب غير راغب، وقبض الله رسوله، وانا والله لنعرفه بعداوة المسلم، ومودّة المجرم، ألا وأنه معاوية فالعنوه لعنه الله، وقاتلوه فإنه ممن يطفىء نور الله، ويظاهر أعداء الله.

لقد صدق عمار في مقالته، لم يسلم إلاّ خوفاً من حدّ السيوف التي أخذت أسرته وقومه، وما أسلم إلاّ بلسانه، فلم يطمئن قلبه بواقع الإسلام وحقيقته، وكان عدوّاً للمسلمين، وظهيراً للمجرمين.

نـداءُ مالـك:

واندفع مالك الأشتر إلى ساحة الحرب، فجعل يمعن النظر في رايات أهل الشام، وفي قادة الجيش، فإذا هم الذين خرجوا لحرب رسول الله ﷺ ومناجزته، فراح يخاطب قومه قائلاً:

(أكثر ما معكم رايات كانت مع رسول الله ﷺ، ومع معاوية رايات كانت مع المشركين على عهد رسول الله ﷺ، فما يشك في قتال هؤلاء إلاّ ميت القلب).

نعم لا يشك في كفر معاوية، ووجوب قتاله إلاّ من طبع الله على قلبه بالزيغ والضلال.

الحَـربُ العامـة:

ولم يرغب الإمام عليه السلام في أن تقع حرب عامة بين الفريقين رجاء أن يستجيب خصمه إلى الصلح، ويثوب إلى الرشاد، ولم يكن ذلك يجدي شيئاً، فإنه لم يكن هناك أمل في الصلح، وجمع الكلمة، فقد أصرّ معاوية على الغيّ والعدوان، ولما رأى ذلك الإمام عليه السلام تهيأ للحرب العامة. وفعل معاوية مثل ذلك، فاستعرت نار الحرب، واشتدّ أوارها، حتى جفل الناس، وخيّم عليهم الذعر والموت، وتحالفت ربيعة على الموت، وثبتت في الميادين، وهي رابطةُ الجأش، فقد أخذت على عاتقها أن تقوم بنصرة الحق، وتفدي أرواحها للإمام، وقد كان الإمام هو المجلي في عمليات الحروب، لا يبالي بالموت، وظهر الضعف في جيش معاوية، وتغللت جميع كتائبه، وهم بالفرار، إلاّ أنه رجع عن نيته.

مَصـرع عمـار:

ولما رأى الصحابي العظيم عمّار بن ياسر الرؤوس تتساقط، والأرض قد صبغت بالدماء، أخذ يناجي نفسه الشريفة المترعة بالإيمان قائلاً:

(صـدق رسـول الله صلى الله عليه وآله هـؤلاء القـاسطـون، انـه الـذي وعـدنـي فيـه رسول الله صلى الله عليه وآله، إني قد أربيت على التسعين، فماذا أنتظر؟

رحماك ربي، قد اشتقت إلى إخواني الذين سبقوني بالإيمان إليك. سأمشي إلى لقاء ربي مجاهداً أعداءَه، بين يدي وليّه ووصي رسوله وخليفته من بعده، فإني أراه اليوم الذي وعدني به رسول الله صلى الله عليه وآله).

وانطلق إلى ساحة الحرب، فجعل يتأمل في رايات معاوية، وطفق يقول: «إنّ مراكزنا على مراكز رايات رسول الله يوم بدر ويوم أُحد ويوم حنين، وإنّ هؤلاء على مراكز رايات المشركين من الأحزاب».

وتمثلت أمامه في ذلك اليوم الخالد صفحات من تاريخه القريب والبعيد، وعرضت على شاشة فكره صورة أبيه ياسر وأمّه سمية، وهما يعذّبان أعنف التعذيب وأمرّه، حتى استشهدا في سبيل الله.

وتذكر عمار أنه كان في غضارة العمر وريعان الشباب، فلاقى من الجهد والعناء ما لا سبيل إلى تصويره. وتذكر ما عاناه في شيخوخته من التنكيل والإرهاق على يد الخليفة الأموي عثمان بن عفان.

لقد أودعت هذه الذكريات شوقاً عارماً في نفسه إلى الموت، فانفجر في البكاء. وصار يناجي ربه قائلاً:

(اللهم إنك تعلم لو أعلم أنّ رضاك أن أضع ظبة سيفي في صدري ثم أنحني عليها حتى تخرج من ظهري لفعلت، ولو أعلم أن رضاك في أنْ أقذف نفسي في هذا البحر لفعلت، ولو أعلم أن رضاك في أن أرمي بنفسي من هذا الجبل فأتردى وأسقط لفعلت، وإني لا أعلم اليوم عملاً أحبّ لك وأرضاه من جهاد هؤلاء الفاسقين، ولو أعلم من الأعمال ما هو أرضا لك لفعلته).

أنت ـ والله ـ يا عمار، مازلت منذ نعومة أظفارك حليف التقوى ورائد العدل والحق، تبتغي رضا الله في جميع أعمالك، وتلتمس الدار الآخرة في جميع خطواتك، نصرت الإسلام، ووقفت كالطود الشامخ، تشد عضد النبي ﷺ وتسند دعوته، وقد لاقيتَ في سبيل الله أعظم الجهد والعناء، ولما رأيت ردة معاوية، وبغيه على باب مدينة علم النبي ﷺ انطلقت إلى نصرته، لم يقعدك عن ذلك ضعف الشيخوخة، وتقدم السن، فقد أعاد لك إيمانك العميق نشاط الشباب وقوته.

وانعطف عمار إلى أمير المؤمنين، ودموعه تتبلور على كريمته الشريفة، فلما رآه الإمام قام له تكريماً، واحتفى به، وبادر عمار قائلاً:

يا أخا رسول الله ﷺ: أتأذن لي في القتال؟

وأريع الإمام فقال له بصوت راعش النبرات:

مهلاً يرحمك الله.

وانصرف عمار وقد استولت عليه موجات من ماضيه القريب والبعيد، قد حفزته إلى لقاء الله، فلم يطق صبراً دون أنْ رجع مرة ثانية، وهو في عالم آخر، فاستقبله الإمام ورأى ما به من الشوق إلى ساحة القتال ليستريح من دنياه.

وانطلق عمار قائلاً:

يا أمير المؤمنين: أتأذن لي في القتال؟

فتغير وجه الإمام، وطافت به الآلام، واندفع يقول له:

مهلاً يرحمك الله.

ومضى عمار يأساً، قد استولت عليه الهموم، ولم يمكث برهة حتى عاوده الشوق إلى لقاء إخوانه الذين سبقوه إلى الشهادة، فكر راجعاً إلى الإمام، وهو يرتعش، قائلاً:

أتأذن لي في القتال يا أخا رسول الله؟

(فإني أراه اليوم الذي وصفه رسول الله ﷺ وقد اشتقت إلى لقاء ربي، وإلى إخواني الذين سبقوني).

وذابت نفس الإمام أسى وحسرات، فقام إلى عمار وعانقه، وراح يقول: يا أبا اليقضان: جزاك الله عني وعن نبيك خيراً، فنعم الأخ كنت، ونعم الصاحب.

وأجهش الإمام بالبكاء، وبكى عمار، واندفع يقول:

يا أمير المؤمنين: ما تبعتك إلاّ ببصيرة، فإني سمعت رسول الله ﷺ

يقول يوم حنين (ستكون بعدي فتنة فإذا كان كذلك، فاتبع علياً وحزبه، فإنه مع الحق والحق معه، وسيقاتل بعدي الناكثين والقاسطين). فجزاك الله يا أمير المؤمنين عن الإسلام أفضل الجزاء، فلقد أديت وبلّغت ونصحت.

ولم يسع الإمام إلاّ الإذن لعمّار، فتقدم لوداعه، وهو غارق في الأسى والشجون.

وانطلق عمّار إلى ساحة الجهاد وهو جذلان مسرور بملاقاة الله، وقد استردّ قوته وشبابه، وارتفع صوته عالياً.

(الجنة تحت ظلال العوالي، اليوم ألقى الأحبة محمداً وحزبه).

فكان هذا النداء صاعقة على رأس معاوية وأتباعه، وبادر المهاجرون والأنصار إلى تلبية نداء الحق، وانضم إليهم زمر من الشباب المتحمس لدينه وعقيدته، وهم يسيرون خلف عمار. فانعطف بهم نحو القائد العام للقوات المسلّحة هاشم بن عتبة المرقال، فطلب منه أن يزحف بهم نحو معسكر العدو، فأجابه إلى ذلك، وحمل هاشم. فجعل عمّار يحثه على الهجوم:

إحمل فداك أبي وأمي.

وحمل هاشم وصار يزحف باللواء زحفاً، ويسير وئيداً وئيداً. فضاق على عمار ذلك، لأنه كان في شوق عارم إلى وفوده على حبيبه رسول الله ﷺ، وقد وجّه لهاشم أعظم التقريع وأعنفه:

يا هاشم أعور وجبان.

وثقل على هاشم هذا العتاب المرّ، وقد عرف دوافع عمار، فقال له: رحمك الله يا عمار: إنك رجل تأخذك خفة في الحرب وإني إنما أزحف في اللواء زحفاً، أرجو أن أنال بذلك حاجتي، وإني إن خففت لآمن الهلكة.

ومازال عمّار يتوسل إلى هاشم، ويتضرّع إليه، ويحثّه على الهجوم، ولم يجد هاشم بداً من الهجوم فحمل وهو يرتجز:

قد أكثروا لومي وما أقلا إني شريت النفس لن أعقلا
أعور يبغي نفسه محلا لا بُدّ أنْ يغل أو يغلا
قد عالج الحياة حتى ملا أشلهم بذي الكعوب شلا

وجال هاشم في ميادين القتال، وهو يجندل الأبطال، ويحصد الرؤوس، وعمار يقاتل معه، ونظر إلى راية ابن العاص فجعل يقول:

(والله إنّ هذه الراية قاتلتها ثلاث عركات، وما هذه بأرشدهن). وجعل يقاتل أشد القتال وأعنفه، وهو موفور النشاط خفيف الحركة، وهو يرتجز ويقول:

نحن ضربناكم على تنزيله واليوم نضربكم على تأويله
ضرباً يزيل الهام عن مقيله ويذهل الخليل عن خليله
أو يرجع الحق إلى سبيله

أجل والله يا عمّار: لقد قاتلتهم وهم مشركون، من أجل إعلاء كلمة الله وتوحيده، وقد قاتلتهم في هذه المرحلة على الإيمان بما في القرآن، وعلى التصديق والإقرار بما جاء به الإسلام، فجزاك الله أعظم الجزاء.

وبعد كفاح رهيب سقط عمّار إلى الأرض صريعاً يتخبط بدمه، وقد صُرع معه الإيمان، ومادت أركان العدل، وانطفأت مصابيح الهدى.

ولما أذيع خبر مقتله انهدّ ركن الإمام عليه السلام وأحاطت به موجات من الحزن، وكادت نفسه أن تفارقه، وخفّ مسرعاً لمصرعه، تحف به قادة الجيوش، ورؤساء القبائل، والبقية الصالحة من المهاجرين والأنصار، وهم يذرفون الدموع، وقد علا منهم البكاء والعويل.

ووقف الإمام على عمّار وهو جثة هامدة، فجعل يطيل النظر إليه، وقد انهارت قواه، وتبددت جميع آماله، وراح يؤبنه بكلمات تنم عمّا في قلبه، الموجع من الألم والحزن:

(إنّ امرءاً من المسلمين لم يعظم عليه قتل ابن ياسر، ولم تدخل عليه المصيبة الموجعة لغير رشيد، رحم الله عمّاراً يوم أسلم، ورحم الله عمّاراً يوم قتل، ورحم الله عمّاراً يوم يبعث حيّاً، لقد رأيت عمّاراً ما يذكر من أصحاب رسول الله ﷺ أربعة إلاّ كان رابعاً، ولا خمسة إلاّ كان خامساً، وما كان أحد من قدماء أصحاب رسول الله ﷺ يشك أن عمّاراً قد وجبت له الجنة في غير موطن ولا اثنين فهنيئاً لعمّار بالجنة).

وألقى الإمام بنفسه على عمّار وهو موجع القلب، حزين النفس، قد أحاطت به الآلام، فأخذ رأس الشهيد العظيم وابن الإسلام البار، وجعل يوسعه تقبيلاً وهو ينظم ذوب حشاه قائلاً:

ألا يا أيها الموت الذي ليس تاركي   أرحني فقد أفنيت كل خليل
أراك بصيراً بالذين أحبّهم   كأنك تسعى نحوهم بدليل

وأمر عليه السلام بمواراة الجثمان المقدس، وقد أودع في ضريحه أعز أحبائه وأخلص اخوانه.

لقد أُودع عمار في قبره، وقد أقبِر معه الجهاد والبطولات ونكران الذات، وانطوت معه صفحة من أروع صفحات الإيمان، كانت تنير للناس معالم الحق والجهاد.

لقد كان عمّار فذّاً من أفذاذ الإسلام، وعلماً من أعلامه، وأنموذجاً حيّاً للحق في صراحته، واندفاعاته، فرحم الله عمّاراً يوم ولد، ويوم عاش مجاهداً، ويوم قتل، ويوم يبعث حيّاً.

الإدعـاء:

إيه معاوية:

لقد ارتكبت في قتل عمّار إثماً عظيماً، وجرماً خطيراً، وأن عمّاراً لو قتله أهل الأرض جميعاً لدخلوا النار.

/

لقد قتلتَ عمّاراً في سبيل توطيد ملكك وتدعيم سلطانك، وجعلك ملكك العضوض وراثة في بني أمية، يتلاعبون في مقدرات المسلمين.

معاويـة:

إني لم أقتله.

الإدعـاء:

من الذي قتله؟

معاويـة:

علي هو الذي قتله، لأنه هو الذي أخرجه.

الإدعـاء:

لقد أدليت بهذا المنطق المفلوح أمام الغوغاء والدهماء من أهل الشام الذين لا هدى لهم ولا رشد، فأغريتهم بهذا الكذب المفضوح، وقنعوا منك بأنّ علياً هو الذي قتل عماراً.

وليس بخاف على أحد زيغ قولك، فإنّ الرسول الأعظم ﷺ ـ حسب هذا الإدعاء ـ هو الذي قتل عمّه حمزة، لأنه أخرجه لحرب المشركين. الويل لك يا معاوية على هذه الأباطيل التي فرقت بها كلمة المسلمين، وأفسدتَ دينهم، وحرفتهم عن الطريق القويم.

ويطرق معاوية برأسه، لا يجد جواباً، ولا مجال للإعتذار والدفاع.

تصاعـد الحَـرب:

وتصاعدت عمليات الحرب بعد مقتل الشهيد العظيم عمّار بن ياسر، فقد ثقل على الإمام عليه السلام مصرعه، وأحاطت به المآسي والشجون، فهتف بربيعة وهمدان، فاستجابوا له، فقال لهم:

أنتم درعي ورمحي.

فأجابه اثنا عشر ألف منهم، فتولى بنفسه قيادة الجيش، وحمل بهم، وهو هائج غضبان، قد تمثل أمامه مصرع عمّار، ومقتل اخوانه من المهاجرين والأنصار، فراح يطلب بدمائهم، ويثأر لهم، وقد أبدى من البطولة والبسالة ما لا نظير له في تاريخ الحروب، فكان كصاعقة نزلت على جيش معاوية، وقد تفرقت كتائبه، وانتفضت جميع فصائله، وقرب الإمام بخيله من فسطاط معاوية، والإمام يرتجز ويقول في رجزه:

أضـــربهـــم ولا أرى معـــاويـــة الجـاحـظ العيـن العظيـم الخـاويـة

ووجه خطابه إلى الجبان المجرم: معاوية، قائلاً له:

على مَ يقتتل الناس بيننا؟ هلم أحاكمك إلى الله، فأيّنا قتل صاحبه استقامت له الأمور؟

فانبرى الداهية المخادع: عمرو بن العاص إلى معاوية قائلاً له:

أنصفك الرجل.

فأجابه معاوية وملأ أهابه الذعر والخوف:

(ما أنصفتَ) وأنك لتعلم أنه لم يبارزه أحد إلاّ قتله.

فقال ابن العاص ساخراً منه:

وما يجمل بك إلاّ مبارزته.

فقال معاوية وهو يتحدث عن السبب في عدم مبارزته لعلي:

طمعتَ فيها بعدي[1].

---

(١) حياة الإمام الحسن: ص ٤٥٥ ـ ٤٥٦.

إنّها الأطماع والشهوات هي التي دفعت ابن العاص لتحريض معاوية على مبارزة علي، لعلّه أنْ يفوز بعد مقتله بالحكم.

تفلل جيش معاوية:

واستمر القتال عنيفاً بين الفريقين، وهم ماضون في الحرب لا يريحون ولا يستريحون، وقد بان الضعف في جيش معاوية وانحطت معنوياته، وقد همّ بالفرار والإنهزام بين ساعة وأخرى إذ سوف يستولي عليه جيش الإمام عليه السلام، وسيقع أسيراً أو قتيلاً، ولم تعد له قوة تحميه أو فئة يرجع إليها، وقد استولى عليه اليأس، وأحاطت به الحيرة والذهول.

خديعة ابن العاص:

ومشت الرعدة بأوصال معاوية، وخيم عليه الذعر، حينما تحطمت جميع قواه العسكرية، وأيقن بالرزء القاصم، فدعى في تلك اللحظات الحاسمة، الماكر الخبيث: عمرو بن العاص، فعرض عليه ما هو فيه من المحنة قائلاً:

إنما هي الليلة حتى يغدو علينا بالفيصل، فما ترى؟

وهو كلام مندحر لا يشك في قرب نهايته، وأقره ابن العاص على ذلك، فقال له:

«أرى رجالك لا يقومون برجاله، ولست مثله. فهو يقاتلك على أمر وأنت تقاتله على أمر آخر. إنّ أهل العراق يخافون منك إن ظفرت بهم، وأهل الشام لا يخافون من علي إنْ ظفر بهم».

لقد حدد ابن العاص واقع النزاع القائم بين الفريقين، فالإمام يناجز معاوية من أجل الإسلام، والذب عن مثله ومن أجل صالح المسلمين، والحفاظ على قيمهم ومقدراتهم، وصيانة لحق فقيرهم ومحرومهم وبائسهم،

ومعاوية يقاتل الإمام على أمر آخر، انَّه يقاتله من أجل إعادة الحياة الجاهلية، ومن أجل الحكم والسلطان، ونهب إمكانيات الأمة، والتصرف في مقدراتها، وبذلها على تخدير المجتمع، وإسقاطه فكرياً واجتماعياً. كما بين ابن العاص السر في بسالة جيش الإمام وبطولاته، فإنه يدافع في هذه الحرب المقدسة عن كرامته ومقدساته، لأنه على يقين أنَّ معاوية إنْ ولي أمر المسلمين فسيذيقهم العذاب الأليم، وأما جيش معاوية فإنه يعلم أنّ الإمام إذا ظفر بهم فإنه يقابلهم بالمعروف والإحسان، كما فعل مع خصومه في حرب الجمل.

وأدلى ابن العاص بعد ذلك بفكرته الخبيثة التي قلبت الأوضاع رأساً على عقب، وحوّلت جيش معاوية من الهزيمة إلى النصر، ودمرت جيش الإمام، وفككت جميع قواعده، وفللت كتائبه.

قال الماكر الخبيث مخاطباً معاوية:

ألق إليهم أمراً إن قبلوه اختلفوا، وإن ردّوه اختلفوا، ادعهم إلى كتاب الله حكماً فيما بينك وبينهم، فإنك بالغ حاجتك في القوم، فإني لم أزل أُؤخر هذا الأمر لحاجتك إليه...».

واستصوب معاوية الرأي، وأمر بالوقت برفع المصاحف، فرفعت زهاء خمسماية مصحف على الرماح، وارتفعت الصيحة من أهل الشام، وهم يهتفون بلهجة واحدة:

«هذا كتاب الله بيننا وبينكم من فاتحته إلى خاتمته، مَنْ لثغور أهل الشام بعد أهل الشام؟ ومَن لثغور أهل العراق بعد أهل العراق؟ ومَن لجهاد أهل الروم؟ ومَنْ للترك؟ ومَنْ للكفار؟...».

لقد تذرعوا بكتاب الله، وهم خصومه، وأعداؤه وجاحدوه، لقد تذرعوا به لحقن دمائهم، والنكاية بالإسلام والمسلمين، ولو كانوا يؤمنون

بالقرآن لما فتحوا باب الحرب على وصي رسول الله ﷺ وباب مدينة علمه، وما أراقوا دماء المسلمين بغير حق.

إيه معاوية.

هل أنت مؤمن بكتاب الله حتى تدعو أخا رسول الله ﷺ إلى العمل بما فيه؟ ألم تحارب القرآن بسلوكك، وسياستك، وسائر نزعاتك. فما أنتَ والقرآن حتى تدعو إلى التحاكم إليه؟

معاويـة:

إني ما دعوت إلى القرآن إلاّ حيلة ومكراً وخديعة، ولولا هذه الدعوة لأحاط بي الجيش العلوي، ومزقوني أي ممزق، ولم يبق لي اسم أو ظل في البلاد، وعادت أمية إلى الخمول والذبول، بعد نضارتها ورفعة أمرها.

الإدعـاء:

ستذوق يا معاوية وبال ما جنته يداك، وما اقترفته من عظيم الإثم والجرم، وما ربك بغافل عمّا يعمل الظالمون. وسيعلم من سوّل لك، ومكّنك من رقاب المسلمين.

الإنقلاب الخطير:

ويصغي جميع أهل المحشر بأسى وحزن عميقين إلى هذه الأحداث الخطيرة التي غيرت واقع الحياة الإسلامية، وألقت الناس في شرّ عظيم. فقد استعلى الباطل على الحق باسم الحق.

فقد عملت مكيدة ابن العاص عملها الغادر في تقويض أركان الإسلام، وقلب نظامه، فقد أحاطت بهائم العراقيين وجيوشهم بالإمام عليه السلام وهي تهتف:

«لقد أعطاك معاوية الحق، دعاك إلى كتاب الله، فاقبل منه».

وكان من أشد المتحمسين لدعوة الباطل الأشعث بن قيس، فقد كان أداة للشغب والتمرّد، وكان رأس الحربة التي طعنت الجيش العراقي، وأدّت إلى انقلابه، وارتداده وتمرّده. فقد أقبل يشتد كأنّه الكلب بقوى محمومة مسعورة، نحو الإمام عليه السلام وهو يقول:

(ما أرى الناس إلاّ قد رضوا، وسرّهم أن يجيبوا القوم إلى ما دعوهم إليه من حكم القرآن، فإن شِئتَ أتيتُ معاوية فسألتُه ما يريد، فنظرت ما يسأل...).

وامتنع الإمام من إجابته، لعلمه بواقع هذا المنافق الخبيث، الذي كاد للإسلام في غير موقف من مواقفه.

وألحّ على الإمام بإصرار ومعه رهط من قادة الفرق، وهم يصرّون على الإمام بإيفاده، فلم يجد الإمام بدّاً من إجابته، فمضى إلى معسكر معاوية، وهو ظافر بما قام به من عمليات الإنقلاب، والتدمير لمعسكر الإمام، ورحب به معاوية وأدناه وقرّبه، ووعده بما يرضيه، وفتح الخبيث معه الحديث قائلاً: لأي شيء رفعتم هذه المصاحف؟...

وكان الأشعث لا يهمه أمر القرآن أو أمر المسلمين، وهو أخبث مَن عرفته الإنسانية، بُعداً عن الحق، وقُرباً من الباطل، وانحرافاً عن القصد.

وتضاحك معاوية، وقال له:

لنرجع نحن وأنتم إلى أمر الله عز وجل في كتابه، تبعثون منكم رجلاً ترضون به، ونبعث منّا رجلاً، ثم نأخذ عليهما أنْ يعملا بما في كتاب الله، لا يعدوانه، ثم نتبع ما اتفقا عليه).

وانبرى الخبيث الأشعث قائلاً:

هذا هو الحق.

وقدم معاوية له الأموال، ومنّاه بتحقيق ما يصبو إليه. وقفل راجعاً، ومعه رهط من قومه العملاء الذين باعوا دينهم، وباعوا المسلمين، وخانوا الله ورسوله، وهم ينادون بالتحكيم، ويصرّون عليه، وقد دفعتهم الرشوة إلى هذا العناد وغررت بهم الأماني التي كالها لهم معاوية بغير حساب.

وأحاطوا بالإمام الممتحن الصابر، وهم يهتفون بالتحكيم، ويصرّون عليه بالنزول إلى تحقيق رغباتهم، فقال عليه السلام:

عباد الله: إني أحقّ من أجاب إلى كتاب الله، ولكن معاوية وعمرو بن العاص وابن أبي معيط وحبيب ابن مسلمة وابن أبي سرح ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن، إني أعرف بهم منكم، صحبتهم أطفالاً، وصحبتهم رجالاً، فكانوا شرّ أطفال، وشرّ رجال، إنها كلمة حق يراد بها باطل، إنهم يعرفونها ولا يعملون بها، وما رفعوها لكم إلاّ خديعة ومكيدة، أعيروني سواعدكم وجماجمكم ساعة واحدة، فقد بلغ الحق مقطعه، ولم يبق إلاّ أنْ يُقطع دابر الذين ظلموا).

إنها المحنة الكبرىٰ التي تذيب لفائف القلوب، وتذهب النفوس لهولها أسى وحسرات.

يا له من رزء قاصم، يا لها من ضربة أصابت الإسلام في حميمه. إنها لم تبق سوى ساعة واحدة حتى يقضى على الباطل، وتزول من الجزيرة العربية جميع أفانين الظلم والجور، وتشرق على سماء الدنيا حكومة العدل والحق والمساواة.

إنها مهزلة العقل البشري أن يشرف الجيش العراقي على الفتح، ثم ينهزم أمام هذه الخديعة الماكرة، مع علمه بواقع معاوية، وأنه لا يرجو القرآن وقاراً، وأنه إنما ناجز علياً من أجل الحكم والسلطان، لا لداع آخر.

وعلى أي حال فإنّ الإمام أمير المؤمنين أخذ يقيم لجيشه المتمرد الحجج والبراهين على زيغ رفع المصاحف، وبهتان هذه الدعوة، فلم يذعنوا لكلامه، وأحاط به زهاء اثني عشر ألفاً، من الّذينَ يظهرون القداسة والحريجة في الدين، وهم يقولون:

يا علي: أجب القوم إلى كتاب الله إذ دُعيت إليه، وإلاّ قتلناك كما قتلنا ابن عفان، فوالله لنفعلنها إن لم تجبهم).

إنّ هؤلاء المنافقين الأغبياء مظنة لكل رذيلة، وإنهم من دون شك سيناجزون الإمام إن لم يجبهم إلى ما أرادوا.

وانبرى الإمام يقيم الأدلة مرة أخرى على هذه الخديعة قائلاً:

ويحَكُم أنا أول من دعى إلى كتاب الله، وأول من أجاب إليه، وليس يحلّ لي ولا يسعني في ديني أن أُدعى إلى كتاب الله فلا أقبله، وإني إنما أقاتلهم ليدينوا بحكم القرآن، فإنهم قد عصوا الله فيما أَمرهم، ونقضوا عهده، ونبذوا كتابه، ولكن قد أعلمتكم أنهم قد كادوكم، وأنهم ليسوا العمل بالقرآن يريدون...).

أنتَ ـ والله ـ يا أمير المؤمنين أول من آمن بالله، ودعى إلى كتابه، صحبت الإسلام في أيام غربته ومحنته، وكنت أكثر المسلمين جُهداً وعناءً، كلما أوقد المشركون نار الحرب قذفك أخوك وابن عمك الرسول الأعظم ﷺ في وسطها، فلا ترجع حتى تطفىء لهبها، وتخمد نارها.

لقد كنت في جميع فترات حياتكَ مكدوراً متعباً في سبيل الإسلام، قد صحبتك المحن والبلوى، وأحاطت بك الرزايا يتبع بعضها بعضاً، وكان من أعظم ما منيت به من الخطوب انك قد أشرقت على إحقاق الحق، وإزهاق الباطل، وإماتة الجور، وبسط حكم الله في الأرض، وإذا بتضحياتك وجهودك تذهب سُدى في لحظة واحدة على أيدي المارقين الذين هم أسوأ

ممن عرفتهم الإنسانية في جميع أدوارها، بُعداً عن الحق، وانحرافاً عن القصد، وتمادياً في الغي، وتمرّداً في البغي.

لقد أحاط هؤلاء البغاة بالإمام عليه السلام وهم مجمعونَ على مناجزته وحربه إنْ لم يستجب لرغباتهم في وقف القتال، فلم يجد بداً من إجابتهم، فأصدر أوامره بإيقاف القتال، وأصروا عليه بأن يبعث خلف مالك الأشتر، ويوقف كتيبته من مواصلة الحرب فأرسل عليه السلام رسوله إلى مالك، يأمره بالإنسحاب، فقال مالك لرسول الإمام:

قل لسيدي: ليست هذه بالساعة التي ينبغي لك أن تزيلني عن موقفي، إني قد رجوت الله أن يفتح لي، فلا تعجلني...).

لقد أوشك مالك على الفتح، وإبادة خصوم الإسلام. فإنه لم يبق بينه وبين الفتح سوى حلبة شاة، وما أن رجع الرسول إلى الإمام وأخبره بمقالة مالك إلاّ أحاط به المتمردون، قائلين:

«والله ما نراك إلاّ أمرته ليقاتل».

لك الله يا أمير المؤمنين على ما لقيت من عظيم المحن والخطوب من هؤلاء الزعانف الحقراء الذين هم لطخة عار على العرب والمسلمين.

وأجابهم الإمام بعد هذا الاهتمام بصوت خافت حزين، قائلاً لهم:

أرأيتموني ساورت رسولي إليه؟ أليس إنما كلمته على رؤوسكم علانية، وأنتم تسمعون..).

ولم يعفوا بكلامه، وإنما راحوا يهددونه، ويتوعدونه بمناجزته، قائلين:

«فابعث إليه فليأتينك، وإلاّ فوالله اعتزلناك».

وأوشكوا أن يفتكوا بالإمام ويقوموا بإعلان الحرب عليه، فأمر برسوله أن يسرع إلى مالك، قائلاً له:

ويحك يا يزيد، قل له: أقبل إليّ فإن الفتنة قد وقعت. . .).

ومشت الرعدة بأوصال الأشتر، وجمد في مكانه، وذهبت نفسه أسى وحسرات، فبادر قائلاً:

(ألرفع المصاحف؟)

(نعم).

وطفق الأشتر مصدقاً حسن حدسه في وقوع هذا الانقلاب، قائلاً:

«أما والله لقد ظننت أنها حين رُفعت ستوقع اختلافاً وفرقة، إنها مشورة ابن العاهرة. . .».

والتفتَ إلى الرسول والألم يحز في نفسه قائلاً:

ألا ترى إلى الفتح، ألا ترى ما يلقون، ألا ترى إلى الذي يصنع الله لنا؟ أينبغي أن ندع هذا وننصرف عنه. . .

وصعب على مالك أن يترك ساحة الحرب، وقد أشرف على النصر والفتح، فقال له يزيد:

أتحب أنك ظفرت هاهنا، وأنّ أمير المؤمنين بمكانه يُفرج عنه، ويسلم إلى عدوّه. .

فقال القائد العظيم:

سبحان الله!! لا والله ما أحب ذلك.

وراح يزيد يخبره بمقالتهم للإمام، قائلاً:

«فإنهم قالوا: لترسلن إلى الأشتر فليأتينك أو لنقتلنك بأسيافنا، كما قتلنا ابن عفان، أو لنسلمنك إلى عدوّك».

ولم يسع الأشتر بعد ذلك أن يواصل الحرب، فقد عمد قافلاً إلى الإمام، وقد استولى عليه الحزن، وضاعت أعز آماله وآمانيه، فقد أشرف على الفتح المبين فإذا بمتاعبه وجهوده تذهب سدى، واستقبل الأشتر الأراذل بشدة وصرامة، فقال لهم:

يا أهل الذل والوهن، أحين علوتم القوم، فظنوا أنكم لهم قاهرون رفعوا المصاحف يدعونكم إلى ما فيها؟

قد والله تركوا ما أمر الله به فيها، (سنّة من أنزلت عليه، فلا تجيبوهم، أمهلوني فواقاً، فإني قد أحسستُ بالفتح).

حقاً انهم موطن الذل والعار والخزي، فقد وصلوا إلى قمة الظفر ثم نكصوا على أعقابهم، منهزمين إلى هوة سحيقة من مجاهل حياتهم الحافلة بالخزي والإثم.

وقد أجمعوا على ردّ مالك، وعدم الاستجابة لنصحه، وقد كرر طلبه قائلاً:

«أمهلوني عدوة الفرس، فإني قد طمعت في النصر».

وانبروا جميعاً قائلين:

(إذن ندخل في خطيئتك).

وأخذ الأشتر يقيم لهم الأدلة، ويدلهم على وهن شبههم، قائلاً:

(حدثوني عنكم ـ وقد قُتل أماثلكم، وبقي أراذلكم ـ متى كنتم محقين، أحين كنتم تقتلون أهل الشام، وأنتم الآن حين أمسكتم عن القتال مبطلون؟ فقتلاكم إذن الذين لا تنكرون فضلهم، وكانوا خيراً منكم في النار).

ولم يذعنوا لهذا المنطق الواعي، فقد أصروا على غيهم وعنادهم، وهم يغالطون ضمائرهم قائلين:

(دعنا منك يا أشتر، قاتلناهم في الله، وندع قتالهم في الله، إنّا لسنا نطيعك، فاجتنبنا).

لقد قاتلوهم من قبل في الله وهم في هذه المرحلة قد نبذوا قتالهم استجابة لداعي الهوى، والطيش والعناد. والتفت إليهم الأشتر، بعدما أعياه أمرهم قائلاً:

(خُدعتم والله فانخدعتم، ودُعيتم إلى وضع الحرب فأجبتم، يا أصحاب الجباه السود، كنّا نظنُّ أنّ صلاتكم زهادة في الدنيا، وشوقاً إلى لقاء الله، فلا أرى فراركم إلاّ إلى الدنيا من الموت، ألا فقبحاً يا أشباه النيب الجلالة، ما أنتم برائين بعدها عزاً أبداً، فابعدوا كما بعُد القوم الظالمون...).

وصدق الأشتر في مقالته، فإنهم لم يروا العزة والكرامة، ولم يظفروا بالحياة الحرة الشريفة، فقد هان أمرهم بعد ذلك اليوم، فصاروا لقمة سائغة للأمويين، فصبوا عليهم وابلاً من العذاب الأليم، وأخلدوا الفتن والمصاعب والذل والعبودية لأجيالهم الصاعدة.

والتفت الأشتر بعد حديثه إلى الإمام قائلاً:

يا أمير المؤمنين: إحمل الصف على الصف يُصرع القوم.

ولم يجد الإمام عليه السلام مجالاً لإجابته، فأطرق برأسه، وهو يفكر في الأحداث الجسيمة التي جرّها هؤلاء المتمردون بالأمة. واتخذ البغاة سكوت الإمام عليه السلام رضاً منه بالأمر، فهتفوا:

إنّ علياً أمير المؤمنين. قد رضي الحكومة، ورضي بحكم القرآن، ولم يسع الإمام إلاّ الإجابة منه على كره، كما لم يسع الأشتر إلاّ الرضى والقبول، فانطلقوا يهتفون:

رضي أمير المؤمنين. رضي أمير المؤمنين.

والإمام ساكت حزين النفس، قد استولى عليه الجزع والذهول، يرى هذا الانقلاب الخطير الذي مُني به جيشه، ولم تكن له قدرة على إصلاحهم، وإرجاعهم إلى طريق الحق والصواب، فقد أصبح لا نفوذ له، وقد حدث عليه السلام بذلك بقوله:

«لقد كنت أمس أميراً، فأصبحت اليوم مأموراً. وكنت أمس ناهياً، فأصبحت اليوم منهياً».

وانطوت الساعة الرهيبة التي تغير فيها مجرى الحياة الكريمة في الإسلام، فقد أخمد القوم سيوفهم، وسالموا الباطل، وصافحوا الذل، وتركوا رائد الحق والعدل في معزل، وأخذوا يمهدون الحكم لبني أمية، ويقيمون لهم سلطاناً في هذا الشرق ليمعن في قتل المسلمين وإرهاقهم، وإرغامهم على ما يكرهون.

لقد وقفت عمليات الحرب، وأحرز معاوية بذلك نصراً فائقاً، فقد تمت بوارق أحلامه وآماله، وتم بناء عرشه القائم على الظلم والجور وسفك الدماء.

لقد تمزق جيش الإمام في ذلك اليوم المشؤوم، وتفللت جميع كتائبه وقواه، وظهرت فيه النزعات المختلفة، والأحزاب المعادية لنظام الحكم القائم، وفي الوقت أصبح جيش معاوية أشد تماسكاً وقوة وإطاعة لحاكمه الذي لم يؤثر إلاّ إشاعة الظلم والبغي في البلاد.

ورجع الإمام من صفين إلى العراق، وجيشه مرتطم بالفتن والإنشقاق، فالذين أجبروه على وقف القتال قد أجبروه على انتخاب المنافق الغبي أبي موسى الأشعري ممثلاً للعراق في هيئة التحكيم، ولم يجد الإمام بُداً من إجابتهم، فرشحه على كره للقيام بهذه المهمة، وقد عمل ابن العاص مكيدته

الأخرى في إفساد أمر المسلمين وتصديع شملهم، فقد أغرى الأشعري، وأرشاه بالطعام وبالتقديم له بالصلاة والخطابة والحديث، وحبذ له انتخاب عبد الله بن عمر، وعزل الإمام أمير المؤمنين عن الحكم مع معاوية، ولما حلت الساعة الرهيبة تقدم الأشعري فخلع الإمام، ورشح ابن عمر، وتقدم بعد ذلك ابن العاص فعزل الإمام، وأقرّ معاوية، وهناك ظهرت الفتنة الكبرى في جيش الإمام فارتطم في البلاء، وإذا بالأغبياء الذين أجبروه على التحكيم وعلى انتخاب الأشعري، إذا بهم يعلنون نقمتهم على الإمام، وخروجهم عن طاعته، وإجماعهم على حربه، وتكفيره، لأنه رضي بالتحكيم.

إنّ هذا الإلتواء الذي مني به الجيش العراقي كان مسبباً ـ من دون شك ـ من الدس والإفتراء الذي قامت به الشبكات التخريبية، فهي التي عملت على إفساده، وتفلله، وإصابته بهذه الإنحرافات، وكان معاوية يغذيها ويغدق على رؤوسها بالأموال، حتى تم له ما أراد، فقد أصبح الجيش العراقي متمرداً يأمره الإمام فلا يطيع، ويدعوه فلا يستجيب.

يا أمير المؤمنين:

لقد واجهتك هذه المحن الكبرى لأنك أردت أن تقيم حكم الله في الأرض، لقد حاولت بكل جهودك أن تضمن للضعيف حقه، وللمسكين كرامته وقوته، وأن تمحي شبح الفقر والحرمان من دنيا الوجود، فثارت عليك هذه اللصوص التي تبغي الأثرة، واستغلال أموال المسلمين، والتحكم في مصيرهم بغير حق.

لقد نعوا عليك سياستك المشرقة التي أردت أن تزيل بها كابوس الشقاء، وتقضي على جميع ألوان التخلف والإنحراف، لينعم الناس في شرق الأرض وغربها بالحرية والعدالة والمساواة، ويظفرون بما يبتغونه من الاستقرار والرفاهية والأمن.

فعلى الذين حاربوك، ونصبوا لك العداوة، وصدّوك عن مسيرتك يقع وزر ما أصاب الناس من شر وبلاء ومكروه.

الإدعـاء:

إيه معاوية.

لقد أشعلت نار الحرب على وصي رسول الله ﷺ وباب مدينة علمه، ومَن كان منه بمنزلة هارون من موسى، وقد استخدمت جميع أساليب مكرك وخداعك في قهره والتغلّب عليه، وقد تمّ لك ما أردت. فقد تركته في أرباض الكوفة قد افترش القلق وتوسّد الأرق، وساور الهموم، قد ذابت نفسه أسىً وحسرات، يرى العدل مضاماً، والحق مضاعاً، وينظر إلى الباطل قد انتشر، وإلى الظلم قد ساد، فكان ذلك أشدّ على نفسه من ضرب السيوف، وطعن الرماح، فكان يتمنى الموت في كل لحظة من حياته، ويتضرّع إلى الله أن ينقله إلى جواره، ليستريح مما ألمّ به من عظيم المحن، وفاجع الخطب، والحكم لله وحده فهو الذي سيجازيك ـ يا معاوية ـ على انتهاكك لحرمة وصي رسول الله ﷺ وظلمك له، وإعتداءك عليه.

وتنطلق من جميع جنبات المحشر الأصوات بالهتاف:

اللهم إن معاوية صدّ عن سبيلك، وبغى في بلادك، وحارب أخا نبيّك، وجرعه نغب التهام، وأفسد على المسلمين أمور دينهم ودنياهم، وحرمهم من التمتع بظل الحكم العادل، وأخلدهم الفتن والمصاعب.

اللهم: أحكم بين علي ومعاوية بالعدل، يا مَن لا يفوته ظلم ظالم.

اللهم: أنت بالمرصاد لكل معتد أثيم، فضاعف عذابك وسخطك على معاوية.

وكأني بالنداء يأتي عالياً من قبل الحق تعالى: إني سوف أعذبه عذاباً

أليماً لأنه طغى في الأرض وتجبّر، وأكثر فيها الفساد، وسفك دماء المسلمين بغير حق، وانحرف عن الطريق القويم، وسوف يتلى في حقه قرار الحكم بالتجريم، عند نهاية المطاف.

الإدعـاء:

ويأخذ الإدعاء بعرض الأحداث الرهيبة التي روعت العالم الإسلامي، وأفزعت جميع حواضره، فأشاحت في ربوعه الأسى العميق، والحزن البالغ، لقد حدث الظلم الشامل بعد صفين والنهروان.

إنه ما انتهت هذه الحروب إلاّ واستحكم أمر معاوية، وقويت شوكته، واستعاد جميع ما خسره في حرب صفين، وقد التحقت به جميع قوى الشر والبغي، وقد قام بما يلي:

إشاعة الإرهاب:

وعمد معاوية إلى إشاعة الإرهاب والذعر في جميع المناطق الخاضعة لحكم الإمام، فقد أوعز إلى قواته المسلحة بغزوها ونشر الخوف فيها، فقد استدعى سفيان بن عوف الغامدي أحد قادته فقال له:

«إني باعثك بجيش كثيف ذي أداة وجلادة، فالزم لي جانب الفرات حتى تمر بهيت فتقطعها، فإن وجدت بها جُنداً فأغر عليهم، وإلاّ فامض حتى تغير على الأنبار، فإن لم تجد جنداً فامض حتى توغل في المدائن.

إنّ هذه الغارات ـ يا سفيان ـ على أهل العراق ترعب قلوبهم، وتفرح كل من له هوى فينا منهم، وتدعو إلينا كل من خاف الدوائر. فاقتل كل من لقيته ممن ليس على مثل رأيك، واخرب كلّ ما مررت به من القرى، واحرب المال، فإن حرب الأموال شبيه بالقتل، وهو أوجع للقلب»[1].

---

(١) شرح النهج لابن أبي الحديد: ٢/ ٨٥ ـ ٨٦.

وقام الأثيم الجلاد بما أوعزه إليه سيده، فغزا هيت والأنبار، وأشاع فيهم الذعر والثكل والحزن والحداد، فأراق دماء المسلمين، ونهب أموالهم، وألحق بهم أضراراً جسيمة.

ولما انتهت الأنباء المريعة إلى الإمام أمير المؤمنين بلغ منه الحزن أقصاه لأنه يرى باطل معاوية وقد استحكم، ولم تكن عنده قوة تقضي على هذا الاعتداء السافر، وقد ارتقى عليه السلام أعواد المنبر فخطب في أهل الكوفة بخطاب مثل ما في نفسه من أسى مقيم وهمّ شديد، وصور ما في نفوس جنده من الخنوع والجبن والذل، قال عليه السلام:

ألا وإني قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً، سرّاً وإعلاناً، وقلت لكم، اغزوهم قبل أن يغزوكم، فوالله ما غُزي قوم قط في عقر دارهم إلاّ ذلوا، فتواكلتم وتخاذلتم حتى شُنت الغارات عليكم، ومُلكت عليكم الأوطان، وهذا أخو غامد، وقد وردت خيله الأنبار، وقد قتل حسان بن حسان البكري، وأزال خيلكم عن مسالحها، ولقد بلغني أن الرجل منهم كان يدخل على المرأة المسلمة والأخرى المعاهدة، فينتزع حجلها وقلبها وقلائدها ورعاثها[1] ما تمتنع منه إلاّ بالاسترجاع والاسترحام، ثم انصرفوا وافرين، ما نال رجلاً منهم كلم[2] ولا أريق لهم دم، فلو أنّ امرأً مسلماً مات من بعد هذا أسفاً ما كان به ملوماً، بل كان به عندي جديراً، فيا عجباً ـ والله ـ يميت القلب، ويجلب الهم من اجتماع هؤلاء القوم على باطلهم، وتفرقكم عن حقكم، فقبحاً لكم وترحاً، حين صرتم غرضاً يُرمى، يُغار عليكم ولا تغيرون، وتُغزون ولا تَغزون، ويُعصى الله وتَرضون، فإذا أمرتكم بالسير إليهم في أيام الحرّ قلتم: هذه حمّارة القيظ[3] أمهلنا يُسَبَّخ عنّا

---

(١) الرعاث: جمع رعثة بالفتح: القرط.

(٢) الكلم: بالفتح: الجرح.

(٣) حمّارة القيظ: شدّة الحر.

الحر، وإذا أمرتكم بالسير إليهم في الشتاء، قلتم: هذه صبّارة القر[1] أمهلنا ينسلخ عنّا البرد. كل هذا فراراً من الحرِّ والقرّ، فإذا كنتم من الحرِّ والقُرِّ تفرّون فإذا أنتم والله من السيف أفرّ، يا أشباه الرجال ولا رجال، حلوم الأطفال، وعقول ربات الحجال، لوددت لم أَركم، ولم أعرفكم، معرفة والله جرت ندماً، وأعقبت سدماً[2] قاتلكم الله لقد ملأتم قلبي قيحاً، وشحنتم صدري غيظاً، وجرعتموني نغب التهمام أنفاساً وأفسدتم عليّ رأيي بالعصيان والخذلان).

وحفل هذا الخطاب الحزين بتعبير صادق عن آلام ابن أبي طالب وشجونه، فإنه يرى هذا الغزو المسلح للحواضر الإسلامية، ويرى هذا الإعتداء الصارخ على المواطنين العزّل، ثم لا يجد سبيلاً لحمايتهم وصيانتهم من ذلك.

إيه معاوية: ما ذنب هؤلاء المسلمين في ترويعك لهم؟

ماذا اقترفت النساء المسلمات والمعاهدات حتى يستحقن هذا التنكيل والإرهاب؟

لماذا عمدت إلى إشاعة هذا الخوف بين المسلمين وغيرهم، وأي فائدة جنيتها من ذلك؟

معاويـة:

إني ما قصدت بإذاعة الذعر، ونشر الفزع إلاّ لزعزعة الدولة العلوية، والإطاحة بها، وضعف معنويات القوى العسكرية في جيش الإمام، وسلب الثقة من نفوسهم، وقد رأيتها بعد هذه العمليات قد خلدت إلى السكون، فتيقنت بعد ذلك بالظفر والنصر.

---

(١) صبارة القر: شدة الشيء: القر بالضم: البرد.
(٢) السُدم: السم المشفوع بالأسى والغيظ.

القتل الجماعي:

وعمد ابن هند إلى إبادة جميع العناصر الموالية للإمام، فقد عهد إلى الوغد الخبيث: بُسر بن أبي أرطأة، ووجّهه إلى الحجاز واليمن ليوسع فيهما القتل والدمار لأنّ فيهما شيعة للإمام، وقد زوّده بالوصية التالية:

(سر حتى تمر المدينة فاطرد الناس، واخف مَن مررت به، وانهب أموال كل مَن أصبت له مالاً ممن لم يكن دخل في طاعتنا، فإذا دخلت المدينة فأرهم أنك تريد أنفسهم، وأخبرهم أنهم لا براءة لهم عندك، ولا عذر، حتى إذا ظنوا أنك موقع بهم، فاكفف عنهم، وارهب الناس عنك فيما بين المدينة ومكة، واجعلها شروات)[1].

ثم قال له:

(لا تنزل على بلد أهله على طاعة علي إلاّ بسطت عليهم لسانك، حتى يروا لا نجاء لهم، وأنك محيط بهم، ثم اكفف عنهم، وادعهم إلى البيعة لي، فمن أبى فاقتله، واقتل شيعة علي حيث كانوا).

وحملت هذه الوصية شارات الموت والدمار، وقد نفذ هذا المخطط الرهيب السفاك بسر، فأغار على المدينة ومكة فقتل ثلاثين ألفاً، عدا مَن أحرق بالنار[2] وانتهت الأنباء المفزعة إلى الإمام، فبلغ به الحزن إلى وادٍ ما له من قرار، وراح مسرعاً إلى أعواد المنبر ليقول كلمته في جيشه المتمرد الذي مزقته الفتن والأهواء:

«أنبئت بُسراً قد اطَّلَعَ اليمن، وإني والله لأظنُّ أنّ هؤلاء القوم

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ٢/ ٦ ـ ٧.

(٢) شرح النهج لابن أبي الحديد: ٢/ ٦.

سيُدالون[1] منكم باجتماعهم على باطلهم، وتفرقكم عن حقكم، وبمعصيتكم إمامكم في الحق، وطاعتهم إمامهم في الباطل، وبأدائهم الأمانة إلى صاحبهم، وخيانتكم، وبصلاحهم في بلادهم، وفسادكم. فلو ائتمنتُ أحدكم على قُعب[2] لخشيت أن يذهب بعلاقته[3].

اللهم إني قد مللتهم وملوني، وسئمتهم، وسئموني، فأبدلني بهم خيراً منهم، وأبدلهم بي شرّاً مني، اللهم مث في قلوبهم كما يماث الملح في الماء[4]. أما والله لوددت أن لي بكم ألف فارس من بني فِراس بن غنم.

هنالك لو دعوتَ أتاك منهم فوارس مثل أرمية الحميم

ثم نزل عن المنبر[5]، ونفسه الشريفة مترعة باللوعة والحزن على ما أصاب المسلمين من الشر والقتل على أيدي هؤلاء السفاكين، ثم لا يجد مجالاً لنجدتهم، وإنقاذهم مما هم فيه.

ووجّه معاوية قوة عسكرية أخرى إلى ناحية الكوفة، تحت قيادة الضحاك بن قيس الفهري، وأمره أن يقتل كل مَن عرف أنه شيعة للإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام، فأقبل الطاغية السفاك فنهب الأموال، وقتل من لقي من الأعراب، حتى مرَّ بالثعلبية. فأغار على الحجاج فأخذ أمتعتهم، ثم أقبل فلقي عمرو بن مسعود الذهلي وهو ابن أخي عبد الله بن مسعود، فقتله في طريق الحاج عند القطقطانة، وقتل معه أُناساً من أصحابه[6].

---

(١) سيُدالون: ستكون لهم الدولة بسبب اجتماع ملكهم.

(٢) القُعب: بالضم القدح الضخم.

(٣) عِلاقته: بكسر العين: ما يعلق به القدح من ليف ونحوه.

(٤) ماث الملح في الماء: ذاب فيه.

(٥) نهج البلاغة محمد عبده: ١/ ٦٠.

(٦) شرح النهج لابن أبي الحديد: ٢/ ١٧.

ففي ذمة الله تلك النفوس الزكية التي أُريقت دماؤها بغير حق.

يا معاوية:

لقد أرقت سيلاً عارماً من دماء المسلمين، وملأت الأرض بجثث الضحايا، وأشعتَ الثكل والحداد في بلاد المسلمين، فقد ضجّت الأرض بعويل الأرامل، واليتامى، والأمهات، ففي ذمة الله ما لاقاه المسلمون من عظيم ظلمك وجورك.

معاويـة:

ويطرق ابن هند رأسه إلى الأرض وهو يتمتم بصوته، ويقول بنبرات متقطعة:

لقد فعلتُ ذلك انتقاماً من شيعة علي، فإنهم أعدائي وأعداء أسرتي، ولولا المجازر الرهيبة التي أنزلتها بهم، لم يستقم لي الملك والسلطان.

الإدعـاء:

نعم إنّ شيعة علي الذين تربّوا بمدرسة الإسلام، وعرفوا أهدافه ومثله، لم يسعهم السكوت على سياستك المخالفة لما أنزله الله والتي تفجّرت بكل ما خالف كتابه، وسنّة نبيه، وقد حاربوا بغير هوادة ـ في جميع فترات التاريخ الإسلامي ـ أئمة الظلم والجور ممن ساروا على وفق مخططاتك في إقبار العدل، ومناهضة الحق.

لقد قدّموا أرواحهم قرابين للإسلام، وضحايا للعقيدة، وقد لاقوا أعظم المحن، وأشد الخطوب، من معاوية وولاته، والحكام الذين من بعده، وهم صامدون أمام الجور والطغيان، وقد تعاهدوا على مناهضة الجور، ومقارعة الظلم، ومقاومة المنكر، حتى سملت عيونهم، ورفعوا على أعواد المشانق،

وامتلأت بهم السجون، وقد أضاؤوا للناس طريق الحرية، والعدالة، وفتحوا لهم أبواب العزة والكرامة.

قتل الأطفال:

واستبحتَ قتل الأطفال ـ يا معاوية ـ في سبيل توطيد ملكك وإقامة عرشك الذي بُني على الظلم والجور، فقد خف عاملك بُسر بن أبي أرطأة، حينما غزا اليمن، يفتش عن طفلين لعبيد الله بن العباس، فحينما ظفر بهما عمد إلى قتلهما، ولما انتهى الخبر المفزع إلى أمهما ضاقت بها الدنيا، ونخب الحزن قلبها، وبرى البكاء عينيها، فكان الجزع والأسى لها غذاء وشراباً، حتى فقدت شعورها، وقد رثتهما بذوب روحها، قائلة:

يا من أحسّ بابنيّ اللذينِ هما	كالدرتين تشظى عنهما الصدف
يا من أحسّ بابنيّ اللذينِ هما	قلبي وسمعي فقلبي اليوم مختطف
مـن دلّ والهـة حيـرى مـذلهـة	على صبيين ذلا إذ غدى السلف
خُبرت بُسرا وما صدقت ما زعموا	من إفكهم ومن القول الذي اقترفوا
انحى على ودجي ابنيّ مرهفة	مشحوذة وكذاك الإثم يقترف[1]

إنَّ سلطاناً يقوم على ذبح الأطفال لهو سلطان سوء وعذاب.

أهل المحشر:

ويضج المحشر بالبكاء، ويسود الجزع والذهول على جميع الناس حتى أنهم نسوا ما هم فيه من شدة الهول، وفزع الحساب، وترتفع الأصوات مدوية من جميع عرصات القيامة بالدعاء على معاوية، ومضاعفة العذاب الأليم له، ولعماله الذين طغوا في البلاد، فأكثروا فيها الفساد.

---

(١) نهج البلاغة محمد عبده: ١/٥٩.

احتلال مصر:

واستبان لمعاوية تدهور جيش الإمام، وتفلل كتائبه، وانحلال قواعده، وأنه أصبح من الضعف بمكان، لا قابلية له على حماية البلاد، وصد الاعتداء، فقد مُني بالإنحراف، والإتجاهات الحزبية المعادية لنظام الحكم العلوي.

وبعدما استبان له ذلك عقد عدة اجتماعات لخلص أصحابه ومستشاريه وعرض عليهم مدى ما أصيب به الجيش العراقي من الضعف والخور، ومعاداته لحكومته، وأنّ الغارات التي تشنها القوات العسكرية من دمشق على المناطق الخاضعة لحكم الإمام.

تعود إلى قواعدها سالمة، من دون أن تجد أي مقاومة إيجابية لها، فأجمع أمرهم بعد الإحاطة بهذه الأحداث على احتلال مصر، ومنحها هبة لابن العاص، وذلك للإتفاقية التي تمّت بينهما على منحه مصر أن انضم إلى معسكره، فقد قال له معاوية:

أتحبني يا عمرو؟

عمرو: لماذا؟ للآخرة، فوالله ما معك آخرة، أم للدنيا، فوالله لا كان حتى أكون شريكك فيها.

معاوية: أنت شريكي فيها.

عمرو: فاكتب لي مصر وكورها.

معاوية: لك ما تريد.

فكتب له معاوية ولاية مصر، وكتب في آخر الوثيقة، وعلى عمرو السمع والطاعة، فقال له عمرو: إن السمع والطاعة لا ينقصان من الشرط شيئاً. (نعم) ولا ينظر الناس إلى هذا.

ونفذ له ما أراد[1].

وقبل عقد الصفقة كان معاوية قد سمع من ابن العاص:

معاوي لا أعطيك ديني ولم أنل ... به منك دُنياً فانظرن كيف تصنع
فإن تعطني مصراً فاربح بصفقة ... أخـذت بهـا شيخـاً يضـر وينفـع
وما الدين والدنيا سواء وإنني ... لآخـذ مـا أعصـي ورأسـي مقنـع
ولكننـــي أعطيـــك هـــذا وإننـــي ... لأخـدع نفسـي والمخـادع يخـدع
أأعطيـك أمـراً فيـه للملـك قـوة ... وأبقـى لـه إن زلـت النعـل أضـرع
وتمنعنـي مصـراً وليسـت بـرغبـة ... وإني بذا الممنوع قدماً لمولع[2]

من أجل خيرات مصر والحكم فيها باع ابن العاص دينه وآخرته على معـاويـة، وانضـمّ إلـى معسكـره، يضـع لـه سيـاستـه، ويضـع لـه المنـاهـج والمخططات للتغلب على الأحداث، وقد استطاع بمكره وخداعه أن يغير مجرى الحياة، ويحرف القافلة الإسلامية عن خط مسيرها، ويقهر الإمام، ويفسد عليه جيشه، ويتركه في ارباض الكوفة يتجرع الغصص، ويحالف الأسى والهموم.

وعلى أي حال فقد عقد معاوية لابن العاص جيشاً كثيفاً، وأمره باحتلال مصر، وسارت جيوش الباطل تطوي البيداء حتى انتهت إلى مصر، ولم تبدِ الجيوش المصرية أية مقاومة أمام قوى البغي والاحتلال، واستولى ابن العاص على زمام السلطة، وقبض على محمد بن أبي بكر عامل الإمام على مصـ، وكان شديد الظمأ فقال: اسقوني ماءً، فانبرى إليه معاوية بن خديج قائلاً:

---

(١) العقد الفريد: ٣/ ١١٣.

(٢) شرح النهج لابن أبي الحديد: ١/ ١٣٧.

لا سقاني الله إن سقيتك قطرة أبداً، إنكم منعتم عثمان شرب الماء، والله لأقتلنك حتى يسقيك الله من الحميم والغساق. . .

فسدّد محمد سهماً من منطقه الفياض قائلاً:

يا ابن اليهودية النساجة ليس ذلك إليك، إنما ذلك إلى الله، يسقي أولياءه، ويظمىء أعداءه أنت وأمثالك.

أما والله لو كان سيفي بيدي ما بلغتم مني هذا.

وانبرى الوغد الخبيث معاوية بن خديج، فقال له:

أتدري ما أصنع بك؟ أدخلك في جوف حمار ثم أحرقه بالنار.

وما كان هذا الأثيم ليدع سوء القتلة، وقبح المثلة، ولؤم الغلبة، فليس أحدٌ أحق منه بهذه الرذائل. فقد تربى بمدرسة معاوية، وتغذى بطباعه، ونهج نهجه في سفك دماء المسلمين.

وانطلق البطل العظيم محمد إلى الرد على ابن خديج، قائلاً له:

إن فعلت ذلك بي، فلطالما فعلتم ذلك بأولياء الله، وأني لأرجو أن يجعلها عليك وعلى أوليائك ومعاوية وعمرو، ناراً تلظّى، كلما خبت زادها الله سعيراً. . .

وعمد البغيّ الأثيم إلى محمد فأدخله في جوف جيفة حمار وأحرقه بالنار[1].

رحم الله محمداً فلقد كان فذاً من أفذاذ الإسلام، وعلماً من أعلامه، جاهد في سبيل الله منذ نعومة أظفاره وقد انتهل من غير الحق، وتغذى بروح

---

(١) ابن الأثير: ٣/ ١٨٠

الايمان، وهام بحب آل البيت عليهم السلام، فكان حبهم عنصراً من عناصره، ومقوماً من مقوماته. وكان لمقتله أسىً بالغ وحزن عميق في نفس الإمام عليه السلام فاندفع إلى تأبينه بكلمات تنم عن فاجع مصيبته، وفادح خطبه بقتله، قائلاً:

أما إن حزننا عليه بقدر سرورهم ـ يعني سرور أهل الشام ـ به لا بل يزيد أضعافاً.

وقال عليه السلام:

فعند الله نحتسبه ولداً ناصحاً، وعاملاً كادحاً، وسيفاً قاطعاً، وركناً دافعاً[1]. لقد استشهد محمد، ومن قبله قد استشهد مالك، واحتُلت مصر التي هي قلب البلاد الإسلامية، وقد تزعزت بذلك أركان الدولة العلوية، فقد فقدت أعز حصونها وقلاعها.

محنَةُ الإمامِ الكُبرىٰ:

وطافت الازمات والمحن بالإمام أمير المؤمنين عليه السلام رائد العدالة وموطد أسس المساواة في الأرض، فقد استوعب الأسى نفسه، وحلّت به الأرزاء القاصمة، ففي كل لحظة تداهمه الخطوب والنكبات. ينظر إلى خلّص أصحابه الذين وثقوا بقضيته، وآمنوا بقيادته، وقد طحنتهم حرب صفين، وأبادتهم سيوف البغي والضلال، وقد بقي بعدهم غريباً في وسط ذلك المجتمع الذي لا يفقه واقعه وأهدافه، وقد أخذ الإمام عليه السلام يبكي عليهم أمرّ البكاء وأشجاه.

إنه ليتذكر إخلاصهم للحق، ووفاءهم له، فيندبهم ويصعد آهاته حزناً وأسىً عليهم، ويأخذ في تأبينهم، قائلاً:

---

(١) شرح النهج لابن ابي الحديد: ٦/ ٦٥ ـ ٩٢

ما ضرَّ إخواننا الذين سُفكت دماؤهم بصفين أن لا يكونوا اليوم أحياء، يسيغون الغصص، ويشربون الرنق ـ قد والله ـ لقوا الله فوفاهم أجورهم، وأحلهم دار الأمن بعد خوفهم. أين إخواني الذي ركبوا الطريق، ومضوا على الحق، أين عمار، وأين ابن التيهان، وأين ذو الشهادتين، وأين نظراؤهم من أخوانهم الذين تعاقدوا على النية، وأُبرد برؤوسهم إلى الفجرة؟.

ثم وضع يده على كريمته الشريفة فأطال البكاء ثم قال:

أوه على إخواني الذين قرأوا القرآن فأحكموه، وتدبروا الفرض فأقاموه، أحيوا السنة، وأماتوا البدعة، دُعوا للجهاد فأجابوا، ووثقوا بالقائد فاتبعوه[1].

لقد ذابت نفسه عليه السلام أسىً على فقده لهذه الصفوة الطاهرة التي احتضنت الإسلام، وتمسكت بأهدافه، فكانت عوناً على إقامة الحق، وتوطيد العدل، ثم ها هو لا يجدهم، فقد طحنتهم حرب صفين، فلا يجد بعدهم من يستعين به على الإصلاح الشامل بين الناس، فكان ذلك مبعث أساه وحزنه.

وزادت محنة الإمام، وكثر بلاؤه حينما وافته الأنباء بالاحتلال والغزو المسلح إلى الحواضر الإسلامية الخاضعة لنفوذه، وما تتركه جيوش الغزو من الفساد والدمار في البلاد، وهو يدعو جيشه لحماية النفوس، وصيانة الأمن، وحفظ الثغور، فلا يجد منهم الإجابة لدعواه، وقد بثّ فيهم المواعظ والنصائح، ودلّهم على النتائج الفظيعة التي ستداهمهم من جرّاء هذا العصيان، فلم يصغوا له، وأصرّوا على مخالفة أمره، وقد تألم من ذلك أمرّ الألم وأقساه.

لقد أيقن الإمام عليه السلام بعد هذه الأحداث الرهيبة التي أحاطت به أنه

---

(١) نهج البلاغة، محمد عبده: ٢/ ١٣٠

سيُطوى سلطانه، وسيضيع بعده المحرومون والفقراء والبائسون، وستضيع الأرامل واليتامى، وستضيع بعده أموال الأمة، فتمنح لذوي النفوذ، وستنتشر الأثرة والإستغلال، وستعود سياسة عثمان بن عفان على أبشع صورها. وأقبح مفاهيمها، فكان يعاني من ذلك أشد الآلام النفسية، وأفجعها.

ولما فاتت الأهداف النبيلة التي كان يسعى الإمام جاهداً لتحقيقها في دنيا العرب والمسلمين أخذ يتضرع إلى الله بإخلاص، أن ينقله إلى جواره ليستريح مما ألمّ به من ذلك المجتمع الذي لا يعرف واقعه، ولا يقدر حقيقته.

مَصرعُ العَدلِ

وبينما كان الإمام يعاني حياته المرّة الحافلة بالأحداث والخطوب، إذ شهد موسم الحج جمعاً من الخوارج فعقدوا مؤتمراً لهم عرضوا فيه من قتل رفاقهم، وما حلّ بهم من الاضطهاد، وقد ألقوا تبعة ذلك على ثلاثة وهم: أمير المؤمنين، ومعاوية، وعمرو بن العاص، فانبرى الوغد الأثيم شبيه عاقر ناقة صالح، فقال لرفاقه:

أنا أكفيكم علي بن أبي طالب.

وقال عمرو بن بكير:

أنا أكفيكم عمرو بن العاص.

وقال الحجاج بن عبد الله:

أنا أكفيكم معاوية.

واتفقوا على يوم معيّن يقومون فيه بعملية الاغتيال، وهو اليوم الثامن عشر من شهر رمضان سنة أربعين من الهجرة. وقصد كل واحد منهم الجهة التي عيّنها، فوصل البغي الأثيم ابن مجلم إلى الكوفة ليطفىء نور الله في

الأرض، ويغتال سيد الناس جميعاً بعد ابن عمه الرسول ﷺ.

وانتهى المجرم الخبيث إلى قطام ابنة عمه، وكان هائماً بحبها، وكانت تدين بفكرة الخوارج، وقد قُتل أبوها وأخوها في واقعة النهروان، وخطبها ابن ملجم فأبت من إجابته إلا أن يشفي غليلها، ويحقق أحلامها، فقال لها:

ما تريدين شيئاً إلا أنفذته، وحقّقته.

فعرضت عليه المهر الذي تبغيه، وهو ثلاثة آلاف درهم، وعبد وقينة، وقتل علي، فقال ابن ملجم:

ما سألتِ فهو لكِ مهر، إلا قتل علي، فلا أراكِ تدركينه، وقصد بذلك إخفاء الأمر عليها، مخافة أن يشيع الأمر، ولكن الأثيمة اندفعت تحبّذ له قتل الإمام، وتشجعه على ارتكاب الجريمة النكراء قائلة:

إن أصبته شفيت نفسي، ونفعك العيش، وإن هلكت فما عند الله خير لك من الدنيا.

ولما علم الخبيث الجد في قولها عرّفها بنيّته، وأنه ما جاء لهذا المصر إلا لهذه الغاية، وقال الفرزدق في هذا المهر المشؤوم:

ولم أرَ مهراً ساقه ذو سماحة ... كمهر قطام من فصيح وأعجم
ثلاثة آلاف وعبد وقينة ... وضرب علي بالحسام المسمم
فلا مهر أغلى من علي وإن غلى ... ولا فتك إلا دون فتك ابن ملجم[1]

---

(١) المستدرك للحاكم: ١٤٣/٣، ونور الابصار ص ٩٥ وفيه زيادة على هذه الأبيات هذين البيتين:

ولا غرو للأشراف أن ظفرت بها ... كلاب الأعادي من فصيح وأعجم
فحربة وحشي سقت حمزة الردى ... وحتف علي من حسام ابن ملجم

وفي بعض المصادر أن الأبيات لأبي ابي مياس المرادي.

أجل، أي مهر أغلى من دم علي الذي أضاء سماء الدنيا بالعدل والحق والمساواة، ورسم طريق الحرية والكرامة لجميع شعوب الأرض.

الـرزءُ القاصـم:

ولما أطل على سماء الدنيا شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن كان الإمام على علم بانتقال روحه إلى حضيرة القدس في ظرف هذا الشهر العظيم، فكان يتناول طعام الإفطار ليلة عند الحسن، وأخرى عند الحسين، ومرة عند عبد الله بن جعفر، وكان يجهد نفسه أن لا يزيد على طعامه الجشب على ثلاثة لقم، ويطوي أيامه ساغباً جائعاً.

ماذا يتناول في إفطاره؟

إنه يتناول خبز الشعير، وجريش الملح، ولا يقدم له أي لون من ألوان الطعام، لقد زهد في دنياه، وأعرض عن ملاذها، وطلّقها ثلاثاً، ولم تعد له أي رغبة فيها ما سوى إقامة العدل وتوطيد أركان المساواة، والانعام على الفقراء والمحرومين، وأطلت ليلة الثامن عشر من شهر رمضان، وهي تحمل شارات الدمار والهلاك وسحق الفضيلة ووأد الحرية، وقد أحس الإمام عليه السلام بنزول الخطب العظيم، فجعل يمشي في صحن الدار وهو ينظر إلى الكواكب، وهي مرتعشة الضوء كأنها ترسل أشعة حزنها تعزية إلى أهل الأرض، فصار الإمام يقول:

ما كذبتُ ولا كُذبت، إنها الليلة التي وُعدت فيها.

وبقي ملاذ المنكوبين، وصديق المحرومين طيلة تلك الليلة تراوده ذكريات جهاده في سبيل الله، وعظيم عنائه في تطبيق العدل، وصيانة حقوق الأمة، وقد توجه بجميع حواسه، وقواه العقلية، إلى الله تعالى يطلب منه الفوز والرضوان، ويتلو كتاب الله، وقبل أن تشرق أنوار ذلك الفجر الذي دام

في ظلامه على البؤساء والفقراء، وروّاد العدل. إنطلق الإمام فأسبغ الوضوء، ولما عزم على الخروج من صحن الدار (صاحت وز في وجهه) وكأنها صاحت ملتاعة تنذر بالخطر العظيم الذي سوف يدهم أرض العرب والمسلمين، وتنبأ من لوعتهن، نزول الرزء القاصم فقال:

لا حول ولا قوة إلا بالله صوائح تتبعها نوائح.

وبادر سبط الرسول ﷺ وريحانته الإمام الحسن إلى أبيه، وقد هاله خروجه في هذا الوقت الباكر قائلاً له:

ما أخرجك في هذا الوقت؟

رؤيا رأيتها في هذه الليلة هالتني.

خيراً رأيت وخيراً يكون. قصّها عليَّ.

رأيت جبرائيل قد نزل من السماء على جبل أبي قبيس، فتناول منه حجرين، ومضى بهما إلى الكعبة، فضرب أحدهما بالآخر فصارا كالرميم، فما بقي بمكة ولا بالمدينة بيت إلا ودخله من ذلك الرماد شيء.

والتاع سبط الرسول وأحسّ بالشر، فقال بصوت خافت منقطع النبرات:

ما تأويل هذه الرؤيا؟

ونظر الإمام علي عليه السلام إلى ولده نظرة رفق وحنان، فقال له:

إن صدقت رؤياي فإن أباك مقتول، ولا يبقىٰ في مكة ولا بالمدينة بيت إلا ودخله الهم، والحزن من أجلي.

وذهل الحسن، وقُدّ قلبه، وانبرى يقول:

متى يكون ذلك؟

فأجابه الإمام بروح مترعة بالإيمان والإخلاص:

إن الله تعالى يقول: ﴿**وما تدري نفسٌ ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت**﴾[1].

ولكن عهد إليَّ حبيبي رسول الله ﷺ أن يكون في العشر الأواخر من شهر رمضان، يقتلني عبد الرحمٰن بن ملجم.

وطلب سبط الرسول من أبيه قتل ابن ملجم، فقال له:

لا يجوز القصاص قبل الجناية، والجناية لم تحصل منه.

ولم يعرف الإنسان في جميع مراحل تاريخه أسمى من هذا التعليم ولا انبل منه، فإنه لا يُدين بالجريمة قبل وقوعها، ولا ينزل العقوبة قبل استحقاقها، وقد ابتلى المسلمون بعد فقدهم الإمام بحكومات تأخذ بالظنة والتهمة، وتأخذ البريء بذنب السقيم، والمقبل بذنب المدبر. وكان ذلك جزاء وفاقاً لهم على خذلانهم للإمام عليه السلام وعدم مناصرتهم له.

وعلى أي حال، فقد خرج الإمام من داره، وهو ينتظر القضاء، فلما انتهى إلى بيت الله جعل يوقظ الناس إلى الصلاة على عادته، ويحثّهم على عبادة الله ومناجاته، وأقبل بعد ذلك بروحه وبجميع قواه الفكرية إلى الصلاة، وبينما هو ماثل بين يدي الحق تعالى اسمه، والصلاة بين شفتيه، إذ هوى عليه المجرم الأثيم عدو الرحمٰن ابن ملجم بسيفه، وهو يهتف بشعار الخوارج: (الحكم لله لا لك) وضرب رأس الإمام بالسيف، وقدّت الضربة الغادرة جبهة الإمام التي طالما عفّرها بالسجود لله، وانتهت الضربة القاسية إلى دماغه المقدس الذي ما فكر إلا في سعادة الناس، وجمعهم على الحق، وبسط

---

(١) سورة لقمان: آية ٣٤

العدل فيهم، وإزالة الجور والغبن عنهم، ونشر الأمن والدعة والإستقرار في ربوعهم.

ولما أحسّ الإمام بلذع السيف انفرجت شفتاه عن ابتسامة، وانطلق صوته يدوي في رحاب الجامع، قائلاً:

فزتُ ورب الكعبة.

أجل ـ والله ـ أنت أول الفائزين، وأعظم الرابحين بمرضاة الله وغفرانه، فقد خضت غمار الحروب، وشدائد الأمور في مناجزة الشرك ومناهضة الإلحاد، فحصدت ببتارك رؤوس المشركين والكافرين، وكنت للرسول الأعظم ﷺ درعه الحصين، ويده التي بها يصول.

ولما رفع ﷺ مشعل التوحيد كنت أول السابقين لإجابته وحمايته، تضرب بالسيف قدامه، وتشاركه في إرهاقه وعنائه، باذلاً مهجتك في سبيله، وواقياً له بنفسك في مبيتك على فراشه، حينما أجمع المشركون على قتله، فكيف لا تكون أول الفائزين وأنت أول المساهمين في بناء صرح الإسلام؟

أنت ـ يا أمير المؤمنين ـ سيد الفائزين بكرامة الله، فقد سايرت الحق منذ نعومة أظفارك، فلم تداهن في دينك، ولم تؤثر رضا أحد على طاعة الله، وقد طلقت الدنيا ثلاثاً، فلم تعن بأي شيء من شؤونها، وطويت حياتك وأنت ساغب، ولما آل أمر المسلمين إليك صنعت المعاجز في عدلك ومساواتك، ورفضك جميع مظاهر الملك، وقد شاركت الفقراء في حياتهم، فلم تأكل إلا أجشب الطعام، ولم تلبس إلا أخشن اللباس، ولم تضع لبنة على لبنة، فسلام الله عليك غادية ورائحة.

وحينما انتشر النبأ المفزع هرع الناس بجميع طبقاتهم إلى الجامع، وهم معولون صارخون، وقد علا النحيب من الفقراء والبؤساء والأيتام، فقد بلغ بهم الحزن إلى وادٍ ما له قرار، وحفّ الناس بالإمام فوجدوه مطروحاً في

محرابه، وجعدة ابن هبيرة وجماعة قد حفوا به، وهم يعالجونه للصلاة وهو لا يستطيع، فقد فتك النزيف بقواه، وصلى بالناس سبط الرسول وريحانته الإمام الحسن عليه السلام وصلى الإمام جالساً والدم ينزف منه.

وقُبض على المجرم الأثيم ابن ملجم، فجيء به مكتوفاً، فقال له الحسن:

يا ملعون، قتلت أمير المؤمنين، وإمام المسلمين، هذا جزاؤه حين آواك وقربك، حتى تجازيه بهذا الجزاء.

وفتح أمير المؤمنين عينيه، وقال له بصوت خافت:

لقد جئت شيئاً إدا، وأمراً عظيماً ألم أشفق عليك وأقدمك على غيرك في العطاء، فلماذا تجازيني بهذا الجزاء؟

وأشفق الإمام على قاتله، فراح يوصي ولده ببره، والإحسان إليه:

يا بني ارفق بأسيرك، وارحمه، واشفق عليه.

وانطلق الإمام الحسن، وقد اضطرم قلبه من الأسى، وفاجع الخطب قائلاً: يا أبتاه قتلك هذا اللعين، وفجعنا بك، وأنت تأمرنا بالرفق به.

فنظر الإمام بعطف ورأفة إلى ولده قائلاً:

نحن أهل بيت الرحمة والمغفرة ـ أطعمه مما تأكل، واسقه مما تشرب، فإن أنا مت فاقتص منه، بأن تقتله، ولا تمثل بالرجل، فإني سمعت جدك رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: إياكم والمثلة ولو بالكلب العقور.

وإن أنا عشت فأنا أعلم ما أفعل به، وأنا أولى بالعفو. فنحن أهل بيت لا نزداد على المذنب إلينا إلا عفواً وكرامة.

أنت ـ يا أمير المؤمنين ـ شأنك العفو والرفق، وسجيتك الاحسان إلى

مَن أساء إليك، فخلقك الرفيع من خلق الرسول ﷺ فلا تعرف النقمة والإساءة لمن ظلمك واعتدى عليك.

وحُمل الإمام إلى الدار والناس يهرولون خلفه قد أشرفوا على الهلاك من البكاء والعويل، وهم يهتفون معولين:

قُتل إمام الحق والعدل.

قُتل أبو الضعفاء والغرباء.

قُتل ناصر المظلومين، وملجأ المنكوبين.

واستقبلته بناته وأفراد عائلته بالبكاء والعويل، فهدأ روعهن، وأمرهن بالصبر على هذا المصاب العظيم.

والتفت الإمام الحسن إلى أبيه ودموعه تتبلور على خديه قائلاً:

يا أبتي مَن لنا بعدك؟ إنّ مصابنا بك مثل مصابنا برسول الله ﷺ.

فرقّ له الإمام وضمّه إليه وقال له:

يا بني أسكن الله قلبك بالصبر، وعظّم الله أجرك وأجر أخوتك بقدر مصابك.

ولما ثقل حال الإمام، وأخذت منه الآلام المبرحة أي مأخذ، نظر إليه سبط رسول الله وريحانته الإمام الحسن: فقال له:

أبتي كسرت ظهري كيف أستطيع أن أراك بهذه الحالة؟

وسرى السم في دم الإمام، وحال وجهه الشريف إلى الصفرة، وكان في تلك الحالة هادىء النفس، قرير العين بملاقاة الله تعالى، وهو يواصل حمد الله وشكره، ويطيل النظر إلى آفاق السماء مبتهلاً إلى الله بالدعاء قائلاً:

إلٰهي أسألك مرافقة الأنبياء والأوصياء، وأعلى درجات الجنة، وغشي

عليه فصار سبط النبي يذرف الدموع لفراق أبيه، فسقطت قطرات من دموعه على وجه أبيه فأفاق، فلما نظر إلى ولده، وقد نخب الحزن قلبه قال له:

يا بني ما هذا البكاء؟ لا خوف ولا جزع على أبيك بعد اليوم، يا بني لا تبكِ، فأنتَ تقتل بالسم، ويقتل أخوك الحسين بالسيف.

وتحقق تنبؤ الإمام فإنه لم تمضِ حفنة من السنين على انتقاله إلى حضيرة القدس، وإذا بالإمام الحسن عليه السلام يقتله معاوية بالسم فتتقطع أمعاؤه وأحشاؤه به، وبعده توالت جيوش الشرك والالحاد على ريحانة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وسبطه الثاني الإمام الحسين عليه السلام فتناهبت جسمه السيوف والرماح، وتقطعت أوصاله على صعيد كربلاء، وأبيدت معه الصفوة الطاهرة من أصحابه وأبنائه، وأبردت رؤوسهم إلى يزيد بن معاوية خليفة أبيه ووريثه.

وَصَايا الإمام:

ولمّا دنا الموت من الإمام، أخذ يوصي أولاده بمكارم الأخلاق، ويضع بين أيديهم المثل الرفيعة، والدروس القيمة، وقد وجّه وصاياه لولديه الحسن والحسين عليهما السلام ثم لعموم المسلمين، قائلاً:

أوصيكما بتقوى الله، وأن لا تبغيا الدنيا وإن بغتكما، ولا تأسفا على شيء منها زوي عنكما، وقولا للحق، واعملا للأجر، وكونا للظالم خصماً وللمظلوم عوناً.

أوصيكما وجميع ولدي وأهلي ومن بلغه كتابي بتقوى الله، ونظم أمركم، وإصلاح ذات بينكم، فإني سمعت جدكما صلى الله عليه وآله وسلم يقول: (صلاح ذات البين أفضل من عامة الصلاة والصيام).

الله الله في اليتامى لا تغبوا أفواههم[١]، ولا يضيعوا بحضرتكم، الله الله

(١) تغبوا: لا تقطعوا صلتكم عنهم.

في جيرانكم فإنهم وصية نبيّكم، ما زال يوصي بهم حتى ظننا أنه سيورثهم، والله الله في القرآن لا يسبقكم بالعمل به غيركم، والله الله في الصلاة فإنها عمود دينكم، والله الله في بيت ربكم لا تخلوه ما بقيتم، فإنه إن تُرك لم تناظروا، والله الله في الجهاد بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم في سبيل الله، وعليكم بالتواصل والتباذل، وإياكم والتدابر والتقاطع، لا تتركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيتولى عليكم شراركم، ثم تدعون فلا يُستجاب لكم.

ووجّه خطابه لآله:

يا بني عبد المطلب: لا ألفينكم تخوضون دماء المسلمين خوضاً، تقولون قُتِلَ أمير المؤمنين، ألا لا تقتلن بي إلا قاتلي، انظروا إذا أنا مِتُّ من ضربته هذه، فاضربوه ضربة بضربة، ولا يمثل بالرجل، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: إياكم والمثلة ولو بالكلب العقور[1].

وحفلت هذه الوصية بجميع القيم الانسانية، والمثل الكريمة التي تحقق للمجتمع السعادة والوئام والاتحاد.

إلى الرفيق الأعلىٰ

وأخذ الإمام يعاني آلام الاحتضار، وهو يتلو القرآن الكريم، ويكثر من الدعاء والإستغفار، وكان آخر ما فاه به قوله تعالى: **﴿لمثل هذا فليعمل العاملون﴾**.

وفاضت روحه الزكية، وسمت إلى جنة المأوى، وقد ارتفع إلى السماء ذلك اللطف الإلٰهي، الذي أضاء الدنيا بعلومه وعدله ومساواته.

---

(١) نهج البلاغة، محمد عبده: ٣/ ٨٥

لقد مادت أركان العدل، وانطمست معالم الدين، وانفصمت العروة الوثقىٰ، لقد مات أبو الأيتام، وأخو الغرباء، وملاذ المنكوبين والمحرومين، وملجأ المظلومين والمعذبين.

لقد ارتفعت إلى السماء تلك الروح العظيمة التي جهدت في أن تبني الحياة العامة على أساس وثيق من التوازن في المجالات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، فتزيل من دنيا الوجود شبح الفقر والحرمان، وتكتسح ظل الأثرة والإستغلال والعبودية، والتحكم في رقاب الناس، وتقيم في دخائل النفوس روح المودة والاخاء والتعاون. لقد جهد علي أن يقيم بين المسلمين حكماً صالحاً هادفاً إلى تحقيق العدالة الاجتماعية، والمساواة الاجتماعية، ورفع الظلم والحيف والغبن عن الناس.

شكوىٰ علي:

وكأني بالإمام يطل على أهل المحشر، ووجهه الشريف كالشمس في نوره وبهائه، ويشرف الجميع للنظر إليه، ويرفع شكواه وظلامته إلى الحاكم المطلق الذي لا يجوزه ظلم ظالم، ولا يفوته اعتداء معتد فيقول:

لقد بغى عليّ معاوية، وجند جميع القوى لمناجزتي، وهو يعلم بمكانتي من النبي ﷺ وإنني منه بمنزلة هارون من موسى، وإنني خليفته ووصيه حقاً، وإني باب مدينة علمه، وأبو سبطيه، ويعلم أنّ الرسول ﷺ قد أخذ لي البيعة من عموم المسلمين، وعيّنني خليفة من بعده في يوم غدير خم، كل ذلك يعلم به معاوية، ولما آل الأمر لي بعد مقتل عثمان طلب مني أن أقرّه على الشام والياً، ولم يسعني إجابته لعلمي به بأنه لا حريجة له بالدين، وأنه سوف يستغل أموال المسلمين، ويستنزف ثرواتهم، ويفسد عليهم أمور دينهم، وإقراري لولايته، إنما هو إبقاء للظلم والجور والفساد.

وقد طلب مني طلحة والزبير أن أوليهما البصرة والكوفة فما وسعني

إجابتهما لأنهما يستميلان السفيه بالطمع، ويضربان الضعيف بالبلاء، ويقويان على الضعيف بالسلطان وكذلك معاوية لا يتعدى هذه السياسة ولا يحيد عنها.

ولما يئس معاوية من ولاية الشام، أعلن التمرد، واتخذ دم عثمان وسيلة لعصيانه وبغيه، فتارة يتهمني بالتآمر على قتله، وأخرى يطالبني بتمكينه من قاتليه، وقد قتله خيار المسلمين، والمتحرجون في دينهم، نظراً للأحداث الجسام التي ارتكبها، وقد حرض على قتله طلحة والزبير وعائشة، ورضي بقتله كبار المهاجرين والانصار أمثال الصحابي العظيم عمار بن ياسر. وقد استنجد عثمان بمعاوية حينما حاصره الثوار فامتنع من نجدته ونصرته، وقد عدى عليّ يتهمني بدمه، ففتح باب الحرب، وألّب جميع قوى الشر لمناجزتي، وقد عرض الإدعاء ـ بصورة مفصلة ـ مدى المحن الشاقة التي لاقيتها منه، ولو كنت أداهن في ديني لما وجد معاوية سبيلاً إلى الانتصار عليّ. فما معاوية بأدهى مني، ولكنه يغدر ويفجر، ولولا كراهية الغدر كنت أدهى الناس، وقد يرى الحوّل القلّب وجه الحيلة، ودونها مانع من أمر الله ونهيه، فيدعها رأي العين بعد القدرة عليها، وينتهز فرصتها من لا حريجة له في الدين.

لقد حاربتُ جميع وسائل النفاق الاجتماعي من الغدر والمكر والخداع، واعتمدت في سلوكي على الخلق الرصين، والايمان العميق بحق الأمة والمجتمع، فلم أعتمد على أي وسيلة من الوسائل التي اعتمد عليها معاوية، ونال بها نجاحه السياسي المؤقت.

وقد أدت جميع أساليب معاوية وخططه إلى زعزعة العقيدة الإسلامية في نفوس المسلمين، وتصدع وحدتهم، واختلاف كلمتهم.

لقد أخلد معاوية الفتن والمصاعب للمسلمين، وجرّ لهم الويلات

والخطوب، وأشاع الثكل والحزن والحداد في بلاد المسلمين، وقد تفجرت سياسته بكل ما خالف كتاب الله، وسنة نبيه، فقد حاول في أيام حكمه وسلطانه أن يمحو رسالة الإسلام، ويقلع جذورها، ويعيد بين الناس معالم الجاهلية وعقائدها.

لقد انتهك معاوية حرمتي وكرامتي، وفرض سبي على رؤوس الاشهاد، وتتبع شيعتي تحت كل حجر ومدر، فسمل عيونهم، وقطع أيديهم وأرجلهم، وصلبهم على الاعواد.

اللهم: إن معاوية قد صد عن سبيلك، وحارب دينك، وقتل أولياءك، وعادى أحباءك، ووالى أعداءك، وانتهك محرماتك.

اللهم: احكم بيننا وبينه بالحق، يا من لا يفوته ظلم ظالم، ولا اعتداء معتد، وهو بالمرصاد للطغاة والجبارين.

وترتفع الاصوات من جميع جنبات القيامة بالدعاء على معاوية، واخلاده في النار، وأن يضاعف له العذاب الأليم.

الإدعـاء:

إنه سوف يعلن في حقه قرار الحكم بالتجريم عند نهاية المطاف.



الإمام الحسن
يخاصم معاويةَ

منظر مفزع رهيب، ساد فيه الحزن والصمت، قد انشغل كل إنسان بمحنته، فلا يعرف مصيره، أنّ الحساب عسير، والحاكم بصير، والناس يجزون بأعمالهم، إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

وبينما الناس في محنتهم الكبرى إذ أطل على ساحة المحكمة العليا سبط الرسول الأعظم وريحانته: الإمام الحسن عليه السلام فأشرقت جنبات المحشر بنوره، وعجّت الاصوات بالتكبير والتهليل لقدومه، وقد احتفت به الانبياء والاوصياء، وقام الجميع احتفاءً به وتكريماً له.

ومعاوية في قفص الاتهام ينظر إليه، فيتميز غيظاً وحقداً، ويتأوه على ما فرط في أمر نفسه، ويندم على ما ارتكبه من عظيم الإثم تجاه حفيد الرسول صلى الله عليه وآله وحبيبه.

الإدعـاء:

وينبري الإدعاء إلى تقديم الإمام، وتعريفه إلى المجتمع بما آثر عن النبي صلى الله عليه وآله في حقه، فيقول:

لقد آثر النبي صلى الله عليه وآله الإمام الحسن بحبه، حتى كان من أحب الناس إليه، وقال فيه:

اللهم إني أحبه فأحبّه[1].

وكان يأخذه فيضمه فيقول:

اللهم إنّ هذا ابني، وأنا أحبه، فأحبه، وأحب من يحبه[2].

وقد وضعه في حبوته وقال:

من أحبني فليحبه، فليبلغ الشاهد الغائب[3].

وقال ﷺ:

«من أسره أن ينظر إلى سيد شباب أهل الجنة، فلينظر إلى الحسن»[4].

وقال ﷺ:

«الحسن ريحانتي من الدنيا»[5].

وقال أنس: دخل الحسن على النبي ﷺ فأردت أن أميطه عنه، فقال ﷺ: ويحك يا أنس، دع ابني وثمرة فؤادي، فإنه من آذى هذا فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله[6].

وقال ﷺ فيه وفي أخيه الحسين:

هذان ريحانتي من الدنيا من أحبني فليحبهما[7].

وقال ﷺ فيهما:

---

(١) حياة الإمام الحسن: ١/ ٧٩ ـ ٨٠

(٢) حياة الإمام الحسن: ١/ ٧٩ ـ ٨٠

(٣) حياة الإمام الحسن: ١/ ٨٠ نقلاً عن تهذيب التهذيب: ٢/ ٢٩٧.

(٤) البداية والنهاية: ٨/ ٣٥، فضائل الاصحاب ص ١٦٥.

(٥) حياة الإمام الحسن نقلاً عن الاستيعاب: ٢/ ٣٦٩

(٦) كنز العمال: ٦/ ٢٢٢

(٧) حياة الإمام الحسن نقلاً عن ذخائر العقبى ص ١٢٤

الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة وأبوهما خير منهما[1].

وقال ﷺ: الحسن والحسين سبطان من الأسباط[2].

وقال ﷺ: الحسن والحسين إمامان قاما أو قعدا[3].

وقال ﷺ: فيهما وفي أبويهما: إنما مثل أهل بيتي فيكم كسفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق، وإنما مثل أهل بيتي فيكم مثل باب حطة في بني اسرائيل من دخله غُفر له[4].

وقال ﷺ: إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي، أحدهما أعظم من الآخر، كتاب الله حبلٌ ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، ولن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما[5].

وقال ﷺ: اجعلوا أهل بيتي منكم مكان الرأس من الجسد، ومكان العينين من الرأس ولا يهتدي الرأس إلا بالعينين[6].

إلى غير ذلك من الاخبار التي آثرت عنه ﷺ في فضل أهل بيته. وهي تلزم المسلمين بودهم، والرجوع إليهم في جميع المجالات، ولكن معاوية قد سعى جاهداً إلى قهر عترة النبي ﷺ وإرغامهم، وقد قابل سيد العترة الطاهرة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام بالنكاية، وجرعه صنوف الآلام، وكذلك جرع ولده الإمام الحسن عليه السلام غصصاً مبرحة من الخطوب والآلام، وبالغ في إيذائه والإستهانة به والحط من شأنه.

---

(١) حياة الإمام الحسن نقلاً عن مستدرك الحاكم: ٣/ ١٦٧، صحيح ابن ماجه وصحيح الترمذي: ٢/ ٣٠٦ وغيرهما.

(٢) كنز العمال: ٦/ ٢٢١، الصواعق المحرقة: ص ١١٤.

(٣) حياة الإمام الحسن: ١/ ٨٨ نقلاً عن البحار: ١٠/ ٧٨ وغيره.

(٤) مجمع الزوائد: ٩/ ١٦٨.

(٥) أسد الغابة: ٢/ ١٢، صحيح الترمذي: ٢/ ٣٠٨، حياة الإمام الحسن: ١/ ٩٠.

(٦) المراجعات للامام شرف الدين عن الشرف المؤبد ص ٥٨.

لقد كان أبو محمد الحسن بن علي عليه السلام فذاً من أفذاذ الانسانية، وانموذجاً حياً للتكامل الانساني، فقد ضارع جده العظيم في سمو أخلاقه، فكان لا يثيره الغضب، ولا يزعجه المكروه، وقد قابل جميع من أساء إليه بالصفح والصبر، وقد اعترف ألد خصومه مروان بن الحكم بسمو أخلاقه، فقد قال:

(إن حلمه يوازن الجبال)[1]:

وكان عليه السلام من أسخى الناس وأنداهم كفاً، حتى لقب بكريم أهل البيت، فكان لا يعرف للمال قيمة ما سوى ما يرد به جوع جائع، أو يكسو به عارياً، أو يقيت به ملهوفاً، أو يفي به دين غارم، فالسخاء من إحدى عناصر ذاته الكريمة الحافلة بجميع القيم الرفيعة.

ومن مظاهر شخصيته الزهد، فقد رفض جميع مباهج الحياة، واتجه بجميع قواه إلى الدار الآخرة التي أعدها الله للمتقين من عباده، وقد قال:

بكسرة من خسيس الخبز تشبعني　　　وشربة من قراح الماء تكفيني
وطمرة من دقيق الثوب تسترني　　　حياً وإن مت تكفيني لتكفيني[2]

وكان عليه السلام في عبادته وتقواه المثل الأعلى للايمان، فكان من أشد الناس إيماناً، ومن أكثرهم إخلاصاً وطاعة لله، فلم يُرَ في وقت من الأوقات إلا وهو يلهج بذكر الله، وإذا ذكر الجنة والنار اضطرب اضطراب السليم[3] فسأل الله الجنة وتعوّذ من النار، وإذا ذكر الموت وما يعقبه من

---

(١) حياة الإمام الحسن: ١/ ٢٩٤.
(٢) حياة الإمام الحسن: ١/ ٣٠٦.
(٣) السليم: مَن لسعه العقرب.

البعث والنشور بكى بكاء الخائفين والمنيبين، وإذا ذكر العرض على الله شهق شهقة يغشى عليه منها.

وإذا توضأ تغيّر حاله، وداخله خوف عميق حتى يصفر لونه، وترتعد فرائصه، وقد سُئل عن سرّ ذلك فقال:

(حقٌّ على من وقف بين يدي رب العرش أن ترتعد فرائصه، ويصفر لونه) وإذا فرغ من الوضوء، وأراد الدخول إلى المسجد، رفع صوته قائلاً:

(إلٰهي ضيفك ببابك، يا محسن قد أتاك المسيء فتجاوز عن قبيح ما عندي بجميل ما عندك).

وإذا أقبل على صلاته ظهر عليه الخوف من الله، حتى ترتعد فرائصه وأعضاؤه، وإذا فرغ من صلاة الفجر لا يتكلم إلا بذكر الله، حتى تطلع الشمس.

وقد حج بيت الله الحرام خمساً وعشرين حجة ماشياً على قدميه، وكانت النجائب تقاد بين يديه، وسُئل عن كثرة حجه ماشياً، فأجاب:

(إني أستحي من ربي، أن لا أمضي إلى بيته ماشياً على قدمي).

وقد تصدق بجميع ما يملكه مرتين، وشاطر الله أمواله ثلاث، حتى أعطى نعلاً، وأمسك أخرى[1].

هذه بعض مظاهر مثله الكريمة التي فاق بها الصديقين، وقد بقيت هذه السيرة الرائعة مثلاً كريماً يقتدي بها الصالحون والمتقون.

---

(١) حياة الإمام الحسن للشيخ باقر القرشي عرض فيه بصورة مفصلة عن نزعات الإمام ومثله الكريمة.

بيعتــهُ

وأقام الإمام أمير المؤمنين عليه السلام سبط الرسول وريحانته الإمام الحسن علماً من بعده، ونصبه خليفة على المسلمين، وقد بايعته الاقطار الإسلامية ما سوى أهل الشام، فإنهم صمموا على غيهم وتمردهم، وتابعوا ابن هند، ورفضوا ما أجمع عليه المسلمون من مبايعة حفيد النبي وسبطه.

فَـزعُ معاويَة

ولما أذيع النبأ بولاية الإمام الحسن على المسلمين فزع ابن هند، وبلغ به الحزن إلى قرار سحيق، وذلك لما يتمتع به الإمام من النزعات الكريمة، والصفات الشريفة التي قلما أن يتوفر بعضها في أي شخص، فهو ابن رسول الله صلى الله عليه وآله ووريثه، وهو أندى المسلمين كفاً، وأعظمهم حلماً، وأكثرهم زهادة، وأوسعهم خلقاً، فإليه تهفو قلوب المسلمين وتنتظر أيامه، وترتقب دولته، ولم يجد ابن هند مجالاً يقدح به الإمام عليه السلام أو يتهمه به، فلذلك عظم حزنه، وكثرت هواجسه، وقد عقد مؤتمراً ضم خلصاءه ومستشاريه، والمفكرين من قومه، فعرض عليهم بيعة الإمام الحسن عليه السلام وطلب منهم الرأي باتخاذ الوسائل إلى افسادها، وشل حركتها، والقضاء عليها، وقد أجمع رأيهم على اتخاذ ما يلي:

١ ـ نشر الجواسيس في الاقطار الإسلامية الخاضعة لحكم الإمام خصوصاً البصرة والكوفة، ليعرفونه الانباء بالتفصيل، ومدى اخلاص المواطنين لحكم آل البيت عليهم السلام، كما عهد إليهم بإذاعة الذعر والخوف والارهاب بين المسلمين بقوة معاوية، وضعف جهاز الدولة الحسنية.

٢ ـ مراسلة الزعماء والوجوه والشخصيات البارزة، وإرشائهم بالأموال

والمناصب، إن ساروا في ركاب ابن هند، وخذلوا سبط الرسول عليه السلام وقد أرجىء هذا الأمر ـ بالإجماع ـ وأما الأمر الأول فقد نفذ بالفور، فقد استدعى معاوية رجلين بصيرين بشؤون التجسس، فأوفد أحدهما إلى الكوفة، والآخر إلى البصرة، وقد قاما بتنفيذ ما عهد إليهما، وقد شاع أمرهما، فقبضت عليهما الشرطة المحلية، وجيء بأحدهما إلى الإمام، فأمر بقتله، وأما الثاني فقد جيء به إلى عبد الله بن عباس عامل الإمام على البصرة، فأمر بإعدامه أيضاً.

مُذكـرةُ الإمام

ورفع الإمام الحسن عليه السلام مذكرة إلى معاوية، يتهدده ويتوعده بإعلان الحرب لهذا الاعتداء، وهذا نصها:

أما بعد: فإنك دسست إليّ الرجال، كأنك تحب اللقاء، لا شك في ذلك، فتوقعه إن شاء الله، وبلغني أنك شمتَ بما لم يشمت به ذوو الحجىٰ، وإنما مثلك في ذلك كما قال الأول:

فـأنـا ومـن قـد مـات منـا لكـلـذي يروح فيمسي في المبيت ليفتدي
فقل للذي يبغي خلاف الذي مضى تجهز لأخرى مثلها فكأن قدِ[1]

ودلّت هذه الرسالة على عزم الإمام وتصميمه على فتح باب الحرب، ومواصلة الجهاد مع عدوه، كما دلّت على شجبه على ما أبداه معاوية من السرور والفرح بمقتل الإمام أمير المؤمنين عليه السلام.

جَـوابُ مُعاويَة

وأخذ معاوية يفتش في حقيبة مكره عذراً يدافع به عمّا ارتكبه من الإثم

---

(١) حياة الإمام الحسن: ٢/ ٤٥

والعدوان، فلم يجد له وسيلة إلا السكوت والاعراض عن بعثه للعيون والجواسيس، وإنكار ما أظهره من السرور بمقتل الإمام علي عليه السلام وهذا نص جوابه:

أما بعد: فقد وصل كتابك، وفهمت ما ذكرت فيه، ولقد علمت بما حدث، فلم أفرح، ولم أحزن، ولم أشمت، ولم آس، وأن علياً أباك لكما قال أعشى بني قيس بن ثعلبة:

فــأنــت الجــواد وأنــت الــذي ... إذا مـا القلـوب مـلأن الصـدورا
جــديــر بطعنــة يــوم اللقــا ... يُضــرَب منهــا النســاء النحــورا
ومـا مـزبـد مـن خليـج البحـا ... ر يعلـو الآكـام ويعلـو الجسـورا
يــا جــود منــه بمــا عنــده ... فيعطـي الالـوف ويعطـي البـدورا

وقد أظهر معاوية في رسالته مدح الإمام علي عليه السلام وثنائه عليه، وقد كان في حياته قد جرعه أمرّ ألوان الغصص والخطوب.

تهيؤ معاوية للحرب

وبادر معاوية إلى إعلان الحرب على سبط رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وريحانته، وقد كتب إلى جميع عماله وولاته يأمرهم فيها بالالتحاق به سريعاً، بأحسن هيئة وأتم استعداد:

من عبد الله معاوية أمير المؤمنين إلى فلان بن فلان، ومن قبله من المسلمين، سلام عليكم، فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو.

أما بعد: فالحمد لله الذي كفاكم مؤونة عدوكم، وقتلة خليفتكم، إن الله بلطفه أتاح لعلي بن أبي طالب رجلاً من عباده فاغتاله فقتله، فترك أصحابه متفرقين مختلفين، وقد جاءتنا كتب أشرافهم وقادتهم، يلتمسون الأمان لأنفسهم وعشائرهم، فأقبلوا إليّ حين يأتيكم كتابي هذا بجهدكم وجندكم

وحسن عدتكم، فقد أصبتم بحمد الله الثأر، وبلغتم الأمل، وأهلك الله أهل البغي والعدوان، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته[1].

ودلّت هذه الرسالة على مراسلة الوجوه والزعماء والقادة من العراقيين معاوية يلتمسون منه الأمن. ويطلبون منه الدعة، ولولا ذلك لما وجد معاوية سبيلاً إلى فتح باب الحرب، ولأجّله بكل ما يتمكن عليه.

ولما وصلت هذه الرسالة إلى عماله قاموا بتحريض الناس وحثّهم على الخروج لحرب ريحانة رسول الله ﷺ وفي أقرب وقت التحقت به قوى هائلة منظمة، مزودة بجميع آلات الحرب.

ولما توفرت لمعاوية الجيوش الضخمة، وهي مجمعة على طاعته، وتنفيذ مخططاته، زحف بها نحو العراق لمناجزة حفيد الرسول وريحانته، وقد طوى البيداء حتى انتهى إلى جسر منبج، فأقام فيه.

فزع العراقيين

ولما علمت الأوساط العراقية بتوجه معاوية إلى العراق ساد فيها الذعر، وانتشرت فيها المخاوف، وبادر سبط الرسول ﷺ إلى الجامع، فاعتلى أعواد المنبر، وخطب في الناس، فقال بعد حمد الله والثناء عليه:

أما بعد: فإن الله كتب الجهاد على خلقه، وسماه كرهاً، ثم قال لأهل الجهاد: اصبروا إنّ الله مع الصابرين، فلستم أيها الناس نائلين ما تحبون إلا بالصبر على ما تكرهون، إنه بلغني أن معاوية بلغه إنا كنا أزمعنا على المسير إليه، فتحرك لذلك، أخرجوا رحمكم الله إلى معسكركم في النخيلة، حتى ننظر وتنظرون، ونرى وترون.

---

(١) شرح ابن أبي الحديد: ٤/ ١٣.

وأخرست ألسنة القوم، واصفرّت ألوانهم، كأنهم قد سيقوا إلى المجازر، ولم ينبر أحد إلى تلبية نداء الحق، فقد آثروا العافية، وكرهوا الموت في سبيل الله، وكانت هذه البادرة منذرة بالخطر، وداعية إلى التشاؤم، واليأس من إصلاحهم. ووقف الإمام الحسن عليه السلام صامتاً حزيناً، لم يُجبْه أحد، ولم يُبدوا أي رغبة في الزحف إلى ميادين الجهاد ولما رأى هذا التخاذل الفظيع الصحابي العظيم عدي بن حاتم انبرى إلى مخاطبة الجماهير التي فقدت وعيها ورشدها، قائلاً:

أنا عدي بن حاتم، سبحان الله ما أقبح هذا المقام... ألا تجيبون إمامكم، وابن بنت نبيكم؟ أين خطباء المصر الذين ألسنتهم كالمخاريق في الدعة، فإذا جدّ الجد راوغوا كالثعالب، أما تخافون مقت الله، ولا عيبها وعارها.

لقد طحنت حرب صفين خطباء المصر، وأحرار البلاد، ولم يبق في ذلك المجتمع سوى الغوغاء، وأصحاب المطامع، والخوارج والشكاكين في دينهم، ولو كان هناك أدنى شعور بالكرامة والشرف عندهم لما رضخوا للذلّ والعبودية، ولهبوا جميعاً إلى نصرة الحق، وتلبية الجهاد.

والتفت عدي بن حاتم إلى الإمام قائلاً:

أصاب الله بك المراشد، وجنّبك المكاره، ووفّقك لما يحمد ورده، وصدره، قد سمعنا مقالتك، وانتهينا إلى أمرك، وسمعنا لك، وأطعنا فيما قلتَ ورأيت.

ثم التفت إلى أولئك الجبناء قائلاً:

وهذا وجهي إلى معسكرنا، فمن أحب أن يوافي فليوافِ.

ثم خرج من الجامع، وكانت دابته في الباب، فركبها، وخرج وحده من

دون أن يلتحق به أحد، وانتهى إلى النخيلة فعسكر بها وحده.

وقد دلّت هذه البادرة على مدى التخاذل والانهيار الذي مُني به الجيش العراقي، وقد استشف الإمام أنهم سوف يسلمونه عند الوثبة، واصطكاك الأسنة، وسيغدرون به كما غدروا بأبيه من قبل.

وانبرى كل من الزعيم قيس بن سعد بن عبادة، ومعقل بن قيس، وزياد بن صعصعة إلى بثّ روح العزم في النفوس، وحثّ الناس على الخروج للجهاد، وكلموا الإمام فأظهروا له الطاعة والانقياد، فشكرهم الإمام وقال لهم:

ما زلتُ أعرفكم بصدق النية والوفاء والنصيحة، فجزاكم الله خيراً.

وخرج الإمام من فوره لمناجزة معاوية، وقد خف معه أخلاط من الناس، وهم مكرهون، لا يوثق بهم، وليس لهم أي صدق في النية، والعزم على الجهاد.

واستمر الإمام في مسيره حتى انتهى إلى (دير عبد الرحمن) فأقام فيه ثلاثة أيام ليلتحق به المتخلفون من جنده، وقد بدا له أن يبعث مقدمة جيشه للاستطلاع على قوة العدو، وإيقاف زحفه، وقد جعل القيادة العامة إلى عبيد الله بن العباس، وزوده بهذه الوصية:

يا ابن العم، إني باعث معك اثني عشر ألفاً من فرسان العرب وقرّاء المصر، الرجل منهم يزيد الكتيبة فسر بهم، وألن لهم جانبك، وافرش لهم جناحك، وادنهم من مجلسك، فإنهم بقية ثقات أمير المؤمنين، وسِر بهم على شط الفرات، ثم امض حتى تستقبل بهم معاوية، فإن أنت لقيته فاحتبسه، حتى آتيك فإني على أثرك وشيكاً، وليكن خبرك عندي كل يوم، وشاور هذين قيس بن سعد، وسعد بن قيس، وإذا لقيت معاوية فلا تقاتله،

حتى يقاتلك، فإن فعل فقاتله، وإن أُصبت فقيس بن سعد على الناس، فإن أصيب فسعد بن قيس على الناس[1].

وحفلت هذه الوصية بخبرات الإمام عليه السلام الواسعة بالفنون الحربية، فقد عهد فيها إلى عبيد الله بالإحسان إلى الجيش والعناية به، ومن الطبيعي أن ذلك يوجب إخلاصه في الجهاد، وانقياده إلى حكومته.

خيانةُ عبيدِ الله

وغزت الأطماع مشاعر عبيد الله بن العباس فألقى بنفسه وبشرفه في مساحق الخيانة والرذيلة، فخان الله ورسوله وإمامه والمسلمين، فقد استولى عليه الشيطان، وأنساه ذكر الله العظيم، فقد مدّ إليه معاوية أسلاك مكره فجذبه إليه، وقد رفع إليه رسالة جاء فيها:

إن الحسن قد راسلني في الصلح، وهو مسلم إليّ الأمر، فإن دخلت في طاعتي الآن كنت متبوعاً، وإلا دخلت وأنت تابع، ولك إن أجبتني الآن أن أعطيك ألف ألف درهم، أعجل لك في هذا الوقت نصفها وإذا دخلت الكوفة أعطيك النصف الآخر...

وتمثلت أمامه النقاط المغريات التي نصّت عليها هذه الرسالة وهي:

١ ـ طلب الإمام الحسن من معاوية الصلح ـ حسب الإدعاء المزعوم ـ.

٢ ـ الدخول في طاعة معاوية، وهو متبوع خير له من أن يكون تابع.

٣ ـ الحصول على ألف ألف درهم.

وأنفق عبيد الله ليله ساهراً يفكر في الأمر، قد ملأت الحيرة أهابه، وصار في صراع نفسي، فقد أرشاه معاوية بهذا المال الضخم، وهو لم يظفر

---

(١) حياة الإمام الحسن: ٢/ ٧٤، فيه عرض رائع إلى تحليل هذه الوصية.

ببعضه في ظل الحكومة الهاشمية التي بنيت على العدل، والتحرج في أموال الأمة. وسوّلت له نفسه الشريرة الإثم، والانضمام إلى معسكر الخيانة والجور، فتسلل في غلس الليل البهيم إلى معاوية، ومعه ثمانية آلاف من الجيش[1]. وكان هذا الغدر من أهم الأسباب التي أدّت إلى اندحار الجيش الحسني، فقد فتح عبيد الله باب الخيانة والغدر لذوي الأطماع والمنحرفين عن الدين.

حَيرةُ الجيشِ

وأصبحت البقية الباقية تفتش عن قائدها ليصلي بها صلاة الصبح فلم تجده، ولما علمت خيانته وغدره، والتحاقه بمعسكر معاوية اضطربت أشد الاضطراب، وماجت بالفتن، وارتطمت بالنزاع والاختلاف، وانبرى القائد العظيم قيس بن سعد فصلى بالجيش صلاة الصبح، وبعد الفراغ منها، قام خطيباً، فقال:

إن هذا وأباه وأخاه لم يأتوا بيوم خيراً قط، إن أباه عم رسول الله ﷺ خرج يقاتل ببدر، فأسره أبو اليسر: كعب بن عمر الانصاري، فأتى به رسول الله ﷺ فأخذ فداءه، فقسمه بين المسلمين، وإن أخاه ولاّه علي عليه السلام على البصرة فسرق ماله ومال المسلمين، فاشترى به الجواري، وزعم أن ذلك حلال له وهذا ولاّه علي على اليمن فهرب من بسر بن أبي أرطأة، وترك ولده حتى قتلوا، وصنع الآن هذا الذي صنع[2].

وملك المؤمن الثائر قيس بهذا الخطاب المؤثر الرصين أحاسيس الجيش، فقدروا في منطقه صلابة الحق والعدل، وتبين لهم أن عبيد الله الجلف الأثيم خليق بكل رذيلة وإجرام، وأنه لو كان عنده أدنى شعور بالشرف والكرامة لما غدر بالإمام وانضمّ إلى معسكر معاوية الذي أفجعه بمقتل ولديه.

وانبرى الجيش بجميع فصائله يعلن التأييد المطلق للزعيم قيس، وقد

---

(١) تأريخ اليعقوبي: ٢/ ١٩١.

(٢) مقاتل الطالبيين: ص ٣٥.

تسلّم قيادة الجيش بنصّ الإمام، وبالترشيح من جميع القوات المسلحة، وفور تسلّمه لمنصب القيادة رفع رسالة للإمام، جاء فيها:

إنهم نازلوا معاوية بقرية يقال لها (الجنوبية) بإزاء (مسكن) وأنّ معاوية أرسل إلى عبيد الله بن العباس، يرغبه في المصير إليه، وضمن له ألف ألف درهم، يعجل له منها النصف، ويعطيه النصف الآخر عند دخوله الكوفة، فانسل عبيد الله في الليل إلى معسكر معاوية في خاصته، وأصبح الناس قد فقدوا أميرهم فصليت بهم ونظرت في أمورهم[1].

ارتياع الإمام

واترعت نفس الإمام الحسن عليه السلام بالأسى الشديد، والحزن العميق على هذا الحادث الخطير، وعلم أن أكثرية من معه من الجيش لا واقعية لهم، وأنهم سوف يسلمونه عند الوثبة، ويغدرون به عند اندلاع نار الحرب، فقد أعطاه ذلك درساً عن نفسية مجتمعه وقومه.

وما جيش الإمام الذي كان أيضاً معه في (المدائن) فقد ارتطم بالفتن والاختلاف، وساد الذعر والخوف في جميع قطعاته، كما مهدت الخيانة والغدر للقادة الذين لا حريجة لهم في الدين.

إشاعةُ الإرهاب

وعمد معاوية بعد غدر عبيد الله، إلى بثّ الجواسيس في الجيش العراقي وعهد إليهم القيام بما يلي:

أ ـ أنّ قيس بن سعد قد صار مع معاوية[2]، ولم يرتاب الجيش في صدق هذا النبأ بعد غدر عبيد الله.

---

(١) مقاتل الطالبيين: ص ٣٥.

(٢) البداية والنهاية: ٨/ ١٤.

ب ـ إشاعتهم في (مسكن) أن الإمام قد صالح معاوية[1].

وأماتت هذه الدعاية النشاط العسكري ونزعت الثقة من نفسه، فقد أصبح متغللاً ومختلفاً أشد الاختلاف.

رَشوةُ الزُعَماءِ

وقام معاوية بدور مهم في إفساد الجيش العراقي وخيانته، فقد قام ببذل الرشوة للقادة العسكريين وكانت تحمل طوابع مختلفة وهي:

١ ـ منح القيادة العامة على الجيش، والولاية على قطر من الأقطار الإسلامية.

٢ ـ منح الأموال الضخمة من المائة ألف فما فوق.

٣ ـ التزويج بإحدى بناته.

الإستجابة للخيانة

واستجابت النفوس المريضة إلى إغراء معاوية، فقد بعث جمع الوجوه والأشراف إلى معاوية رسائل تعرب عن استعدادهم بالفتك بالإمام متى أراد، وكانت رسائلهم ذات مضمونين:

١ ـ اغتيال الإمام.

٢ ـ تسليمه أسيراً سراً أو جهراً له.

وبعث معاوية بتلك الرسائل إلى الإمام، فتيقن الإمام بخيانة جيشه وغدره به.

---

(١) تأريخ اليعقوبي: ٢/ ١٩١.

نهبُ أمتعة الإمام:

وبلغ الفساد أقصاه في نفوس الجيش العراقي، فقد عمدوا إلى أمتعة الإمام وأجهزته فنهبوها، حتى نزعوا بساطاً كان الإمام جالساً عليه، واستلبوا منه رداءه[1].

تكفير الإمام:

وبلغ من طيش الجيش العراقي وفساده وزيفه أن حكموا على حفيد نبيهم الأعظم بالكفر، فقد عمد الجراح بن سنان إلى الإمام قائلاً له:

أشركت يا حسن كما أشرك أبوك من قبل.

محاولة اغتياله

ولم تقف محنة الإمام وبلاؤه في جيشه إلى هذا الحد، فقد قدم المرتشون على اغتياله عدة مرات، وقد سلم منها، وهي:

١ ـ أنه كان يصلي فرماه شخص بسهم إلا أنه لم يؤثر فيه شيئاً.

٢ ـ طعنه الجراح بن سنان في فخذه[2].

٣ ـ طعنه بخنجر في أثناء الصلاة[3].

موقف الإمام

ووقف الإمام عليه السلام أمام هذه الزعازع والخطوب موقف الحازم اليقظ، فقد جمع القوات المسلحة، وبين لها النتائج الخطيرة التي تترتب على هذا

---

(١) تاريخ اليعقوبي، أعيان الشيعة.

(٢) الإرشاد ص ١٧٠.

(٣) ينابيع المودة ص ٢٩٢.

التمرد، وأوضح لهم ما يتمتعون به من الذل والعبودية قائلاً:

ويلكم، والله إنَّ معاوية لا يفي لأِحد منكم بما ضمنه في قتلي، وإني أظن أني إن وضعت يدي في يده فأسالمه لم يتركني أدين بدين جدي، وإني أقدر أن أعبد الله عز وجل وحدي، ولكن كأني أنظر إلى أبنائكم واقفين على أبواب أبنائهم يستقونهم ويستطعمونهم بما جعل الله لهم، فلا يُسقون ولا يطعمون فبعداً وسحقاً لما كسبته أيديهم، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون.

لقد دلّهم الإمام عليه السلام على النتائج الفظيعة التي تترتب على تمردهم، وأنهم سوف يصابون بالذل والعبودية والهوان من بعده، فإن الحكم الأموي سيمعن في إرهاقهم وحرمانهم وإذلالهم.

ولم تجد محاولات الإمام معهم فقد أصروا على البغي والعدوان، والإثم والخذلان.

خطابُ الإمام

وأراد الإمام عليه السلام أن يمتحن جميع القوات المسلحة، ويعرف مدى استجابتها إلى الحرب، فأوعز إليهم بالإجتماع، وقام فيهم خطيباً فقال:

والله ما يثنينا عن أهل الشام شك، ولا ندم، وإنما كنا نقاتل أهل الشام بالسلامة والصبر، فشيبت السلامة بالعداوة، والصبر بالجزع، وكنتم في مسيركم إلى صفين، ودينكم أمام دنياكم، وأصبحتم اليوم ودنياكم أمام دينكم، ألا وقد أصبحتم بين قتيلين، قتيل بصفين تبكون عليه، وقتيل بالنهروان تطلبون بثأره، وأما الباقي فخاذل وثائر.

وألمعت هذه الفقرات من خطاب الإمام بالأسباب التي أدّت إلى تخاذل جيشه وعصيانه، فإنهم كانوا في حربهم في صفين يقاتلون من أجل دينهم،

ومن أجل كرامتهم وهم في هذه المرحلة لم يقاتلوا من أجل دينهم، وإنما انسابوا وراء دنياهم ومنافعهم، بالإضافة إلى أن قسماً منهم قد فجعوا بأحبائهم وإخوانهم الذين أبادتهم حرب صفين والنهروان، فهم يطلبون بثأرهم، وغير هؤلاء فقد مُنوا بالخذلان.

وعرض الإمام الحسن عليه السلام بعد هذه الفقرات من حديثه إلى دعوة معاوية في الصلح فقال:

ألا وإن معاوية دعانا لأمر ليس فيه عز، ونصفة، فإن أردتم الموت رددناه عليه، وحاكمناه بظبات السيوف، وإن أردتم الحياة قبلناه، وأخذناه بالرضا، وارتفعت الأصوات من جميع أفراد القوات المسلحة، وهي ذات مضمون واحد:

(البقية، البقية)[1].

واستبان للإمام عليه السلام بعد هذه الإستجابة الشاملة من جيشه أنه إن حارب معاوية، حاربه بيد جذاء، إذ لم يكن له ناصر ولا معين، ولم يكن له هناك ركن شديد يأوي إليه، ورأى عليه السلام أن قادة الجيش قد استجابوا لمعاوية، ورغبوا في أطماعه، ودنياه، وأنه من الأمور المحتومة سوف يبعثونه أسيراً لعدوه، ويغتالونه، وقد قال عليه السلام ليزيد بن وهب الجهني:

والله أرى معاوية خيراً لي، هؤلاء يزعمون أنهم لي شيعة وابتغوا قتلي، وانتهبوا ثقلي، وأخذوا مالي، والله لأن آخذ من معاوية عهداً أحقن به دمي، وآمن به أهلي وشيعتي، خير لي من أن يقتلوني فيضيع أهل بيتي ولو قاتلت معاوية لأخذوا بعنقي حتى يدفعوني إليه سلماً، والله لأن أسالمه وأنا عزيز أحب من أن يقتلني وأنا أسير، أو يمنّ عليّ فتكون سبة على بني هاشم إلى

(١) حماة الإسلام: ١/١٢٣.

آخر الدهر، وإن معاوية لم يزل يمنّ بها وعقبه على الحي منا والميت.

لقد أخذ الإمام عليه السلام بهذه الأحداث الخطيرة التي ألمّت به، يفكر في الأمر، ويجيل النظر في حرب معاوية، فرأى أنه إن فتح باب الحرب معه، فسوف يخسر الحرب لا محالة، ويؤدي ذلك إلى الأضرار البالغة على الإسلام والمسلمين، وأنه لا بدّ أن يُقتل أو يمنّ عليه معاوية، ولا تستفيد القضية الإسلامية بتضحيته، فإن معاوية بمكره ودهائه سوف يوصمه بالخروج على جماعة المسلمين، والقضاء عليه أمر ضروري حفظاً لحياة المسلمين من القلق والاضطراب.

لقد رأى الإمام عليه السلام أن المصلحة العامة للمسلمين تقضي بمسالمة معاوية، وتسليم الأمر له، ليتبين بعد ذلك واقع معاوية، وتبرز حقيقته إلى المجتمع الإسلامي، ويعرفون أنهم قد جانبوا الرشاد، وحادوا عن جادة العدل في سلوكهم المعادي لذرية نبيهم صلى الله عليه وآله وأنهم قد أخطأوا حظهم، وحرموا على أنفسهم السعادة لهم ولأجيالهم الصاعدة.

وقد تحقق على مسرح الحياة العامة بعد تنازل الإمام عن الخلافة جميع ما كان يحذره الإمام، فقد أمعنت السلطة الحاكمة في إرهاق المسلمين وإذلالهم، وإرغامهم على ما يكرهون، فلم يعد في البلاد أي ظل للحرية والمساواة والعدالة التي ينشدها الإسلام في ظلال حكمه.

الصُلـحُ

وكانت المصلحة العامة تقضي بضرورة الصلح، وتسليم الأمر إلى معاوية، وذلك لخيانة الجيش العراقي آنذاك، وإيثاره للعافية، وحبه للدعة، ولم يكن للإمام أي قوة عسكرية يستطيع بها على مناجزة معاوية، فقد خلد الجيش بأسره إلى الدعة، وسئم الحرب، وقد كانت غارات معاوية على الحدود العراقية في أيام الإمام أمير المؤمنين عليه السلام وهو يدعوهم إلى ردّ

الإعتداء فلم يستجيبوا له، وأراد أن يمضي وحده إلى صد العدوان عن المواطنين العزل، ولم يثر ذلك أي اهتمام في نفوس القوم، نعم كانت هناك عدة مجالات لارغامهم على الخروج، وهي:

١ ـ إشاعة التنكيل والإعدام في صفوف القادة العسكريين الذي عُرفوا بالانحراف، والميل مع المعسكر الأموي.

٢ ـ بذل الأموال للوجوه وذوي النفوذ، وشراء ضمائرهم بأموال الأمة.

٣ ـ الإعتماد على الخداع والمكر والإغراء وغير ذلك من وسائل النفاق الاجتماعي التي يعتمد عليها عشاق السلطة والحكم.

وهذه الوسائل لا يعتمد عليها أهل البيت عليهم السلام في سياستهم المبنية على الصراحة والصدق، والإيمان بالله، ولو أنهم سلكوا الطرق الملتوية لما آل الحكم إلى غيرهم، ولكنهم هيهات أن يعتمدوا على أي طريق لا يقره الإسلام ولا تبيحه الشرعة المحمدية.

وأما خصومهم فقد اعتمدوا على جميع الوسائل للظفر بالحكم، وهي بجميع صورها لا تحمل أي طابع ديني، فاشتروا الضمائر بأموال الأمة، وبذلوها بسخاء لكل من يؤيد سياستهم الغاشمة، ويدعم حكمهم، كما اعتمدوا على التضليل وإغراء السذج والبسطاء، وقربوا كل ماكر يكيد للإسلام، ويبغي عليه، وكان ذلك هو البارز في سياسة معاوية التي تفجرت بكل ما خالف كتاب الله وسنة نبيه.

فلم تكن للإمام أي مندوحة ما سوى الصلح، وكان ذلك هو التكليف الشرعي الملزم بتنفيذه، وقد سالم أبوه أمير المؤمنين عليه السلام من قبل بقية الخلفاء، مع أنه صاحب الحق المنصوص، إذ لم تكن له قوة يعتمد عليها، ولم يكن له ركن شديد حتى يأوي إليه، فسالم على ما في السلم من قَذىً في العين، وشجاً في الحلق، وكذلك ولده سبط الرسول وريحانته.

بنُودُ الصلحِ

أما الصلح فقد وقع على البنود التالية:

١ ـ تسليم الأمر لمعاوية على أن يعمل بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ وسيرة الخلفاء والصالحين.

٢ ـ ليس لمعاوية أن يعهد بالأمر إلى أحد من بعده، والأمر بعده للحسن، فإن حدث به حدث فالأمر للحسين.

٣ ـ الأمن العام للعموم سواء فيه الأسود والأحمر، وأن يحتمل عنهم معاوية ما يكون من هفواتهم، وأن لا يتبع أحداً بما مضى، وأن لا يأخذ أهل العراق بأحنة.

٤ ـ أن لا يقيم عنده الشهادة.

٥ ـ أن لا يسميه أمير المؤمنين.

٦ ـ أن يترك سبّ أمير المؤمنين عليه السلام وأن لا يذكره إلاّ بالخير.

٧ ـ أن يوصل كل ذي حق حقه.

٨ ـ الأمن لشيعة أمير المؤمنين عليه السلام وعدم التعرض لهم.

٩ ـ أن يفرق في أولاد من قُتل مع أبيه في يوم الجمل وصفين ألف ألف درهم، ويجعل ذلك من خراج دار (ابجرد).

١٠ ـ أن لا يبغي للحسن بن علي عليه السلام ولا لأخيه الحسين عليه السلام ولا لأهل بيت رسول الله ﷺ غائلة، سراً ولا جهراً، ولا يخيف أحداً منهم في أفق من الآفاق[١].

---

(١) حياة الامام: ٢/٢٢٨ ـ ٢٣٠.

وعلى هذه الشروط وقع الصلح وأبرم أمره، إلا أن ابن هند لم يفِ بشرط منها، فقد عمد إلى إلغائها، وخرقها جميعاً.

الإجتماعُ

ومن أقصى المحن التي واجهها الإمام الحسن عليه السلام التقاؤه بابن هند فقد استوعب الحزن والأسى كيانه، وذلك لأنه رأى باطل معاوية قد انتصر، وأن الأمة ستواجه أقصى المحن والخطوب في عهده، وأنه سيصب على المسلمين وابلاً من الجور والعذاب.

لقد اجتمع الإمام عليه السلام مع معاوية في النخيلة، وقد حضرته جموع حاشدة من الفريقين، وقد بان السرور والفرح على أهل الشام، كما بان الانخذال والحزن على المؤمنين من أهل العراق.

خطاب معاوية:

وانبرى معاوية إلى أعواد المنبر ليظهر السر في الحرب التي أثارها على الإمام الحسن وعلى أبيه من قبل، فقال:

أيها الناس، ما اختلف أمر أمة بعد نبيها إلا وظهر أهل باطلها على أهل حقها... وهو منطق حق، فقد حكى واقع الحال، فإن المسلمين لما اختلفوا بعد نبيهم صلى الله عليه وآله ظهر أهل الباطل والجور على أهل الحق والعدل، وقد التفت معاوية إلى أنه قد عني نفسه بخطابه، فندم على ذلك واستدرك، وقال:

(إلا هذه الأمة).

ثم وجه خطابه القاسي إلى العراقيين، فقال:

والله إني ما قتلتكم لتصلوا، ولا لتصوموا، ولا لتحجوا، ولا لتزكوا،

إنكم لتفعلون ذلك، وإنما قاتلتكم لأتأمّر عليكم، وقد أعطاني الله ذلك، وأنتم له كارهون.

ثم أعلن رفضه للشروط التي أعطاها الإمام الحسن، فقال:

ألا وإن كل دم أصيب بهذه الفتنة مطلول، وكل شرط شرطته فتَحْتَ قدميَّ هاتين[1]، ولا يصلح الناس إلا ثلاث: إخراج العطاء عند محله، وإقفال الجنود لوقتها، وغزو العدو في داره، فإن لم تغزوهم غزوكم.

وأخذ يكيل السب والشتم للإمام أمير المؤمنين عليه السلام وولده الحسن، غير مستأثم من ذلك ولا متحرج، وقد خرق بذلك أبرز بنود المعاهدة التي وقّع عليها.

الإدعـاء:

إيه معاوية.

لقد قاتلت المسلمين، وسفكتَ دماءهم، ونشرت الحزن والحداد في ديارهم، من أجل أن تتأمّر عليهم، وتستنزف ثرواتهم، وتشيع فيهم الجور والظلم.

أين دم عثمان الذي ملأت الدنيا عجيجاً بالمطالبة به، فلِمَ لم تذكره بقليل ولا بكثير حينما صفا لك الملك والسلطان؟

إيه معاويه:

أليس خطابك يدل على واقعك الجاهلي، وعلى مدى ما تتسم به من الشر، وحب الانتقام من الناس؟

إيه معاوية:

---

(١) وفي رواية: (ألا وإن كل شيء أعطيت للحسن بن علي تحت قدميّ هاتين لا أفي به).

لقد جافيت العهد الذي ألزمت به نفسك بأن لا تتعرض لأمير المؤمنين عليه السلام وأبنائه عليهم السلام بالسب والشتم، فقد خرقت ذلك في بداية الشوط من حكمك.

معاوية:

ويطرق معاوية برأسه إلى الأرض، قد ملأت الحياة إهابة، ولا يجد جواباً للدفاع به عن نفسه.

خطاب الإمام الحسن عليه السلام

وبعد ما أعلن معاوية خرقه للشروط التي أعطاها للإمام الحسن، وعدم التزامه بشيء منها، انبرى الإمام الحسن عليه السلام إلى أعواد المنبر، فخطب في الناس خطبة طويلة كانت في منتهى الروعة والبلاغة، وقد وضع فيها النقاط على الحروف، وعزى جميع ما جرى على أهل البيت من المحن والبلوى إلى الصدر الأول الذين نزعوا الخلافة منهم، قال عليه السلام:

الحمد لله كما حمده حامد، وأشهد أن لا إله إلا الله هو كلما شهد له شاهد، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى، وائتمنه على الوحي صلى الله عليه وآله وسلم.

أما بعد: فوالله إني لأرجو أن أكون قد أصبحت بحمد الله ومنّه، وأنا أنصح خلق الله لخلقه، وما أصبحت محتملاً على مسلم ضغينة، ولا مريداً له سوء، ولا غائلة، ألا وإن ما تكرهون في الجماعة خير لكم مما تحبون في الفرقة، ألا وإني ناظر لكم خير من نظركم لأنفسكم، فلا تخالفوا أمري، ولا تردوا عليّ رأيي، غفر الله لي ولكم، وأرشدني وإياكم لما فيه المحبة والرضا[1].

---

(١) الإرشاد: ص ١٦٩.

ثم التفت عليه السلام إلى الناس فقال:

أيها الناس: إن أكيس الكيس التقى، وأحمق الحمق الفجور، والله لو طلبتم ما بين (جابلق) و(جابرس) رجلاً جده رسول الله ﷺ ما وجدتموه غيري وغير أخي الحسين، وقد علمتم أن الله هداكم بجدي محمد ﷺ فأنقذكم به من الضلالة، ورفعكم به من الجهالة، وأعزكم به بعد الذلة، وكثركم به بعد القلة، إنّ معاوية نازعني حقاً هو لي دونه، فنظرت لصلاح هذه الأمة، وقطع الفتنة، وقد كنتم بايعتموني على أن تسالموا من سالمت، وتحاربوا من حاربت، فرأيت أن أسالم معاوية، وأضع الحرب بيني وبينه، وقد بايعته، وقد رأيت أن حقن الدماء خير من سفكها، ولم أرد بذلك إلا صلاحكم وبقاءكم دون أن أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين[1].

ثم أخذ عليه السلام يدلي بظلامة أهل البيت، فقال:

وإن معاوية إن زعم لكم إني رأيتُه للخلافة أهلاً، ولم أرَ نفسي لها أهلاً، فقد كذب.

نحن أولى الناس بالناس في كتاب الله عز وجل، وعلى لسان نبيه، ولم نزل أهل البيت ـ مظلومين منذ قبض الله نبيه، فالله بيننا وبين من ظلمنا، وتوثب على رقابنا، وحمل الناس علينا، ومنعنا سهمنا من الفيء ومنع امّنا ما جعل لها رسول الله ﷺ.

وأقسم بالله لو أن الناس بايعوا أبي حين فارقهم رسول الله ﷺ لأعطتهم السماء قطرها، والأرض بركتها، ولما طمعتَ فيها يا معاوية.

فلما خرجت من معدنها تنازعتها قريش بينها، فطمع بها الطلقاء وأبناء الطلقاء: أنت وأصحابك. وقد قال رسول الله ﷺ:

---

(١) كشف الغمة: ص ١٧٠.

ما ولّت أمة أمرها رجلاً، وفيهم من هو أعلم منهم إلا لم يزل أمرهم يذهب سفالاً حتى يرجعوا إلى ما تركوا، فقد ترك بنو إسرائيل هارون، وهم يعلمون أنه خليفة موسى فيهم، واتّبعوا السامري، وتركت هذه الأمة أبي، وبايعوا غيره وقد سمعوا رسول الله ﷺ يقول له:

أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا النبوة.

وقد رأوا رسول الله ﷺ نصّب أبي يوم غدير خم، وأمرهم أن يبلغ أمره الشاهد الغائب.

وهرب رسول الله ﷺ من قومه، وهو يدعوهم إلى الله، حتى دخل الغار، ولو أنه وجد أعواناً لما هرب. كفّ أبي يده حين ناشدهم، واستغاث فلم يُغث، فجعل الله هارون في سعة حين دخل الغار، ولم يجد أعواناً. وكذلك أبي وأنا في سعة من الله حين خذلتنا هذه الأمة، وإنما هي السنن والأمثال يتبع بعضها بعضاً[1].

ثم التفت إلى الناس فقال:

من الذي بعث محمداً بالحق، لا ينقص من حقنا ـ أهل البيت ـ أحد إلا نقصه الله من عمله، ولا تكون علينا دولة إلا وتكون لنا العاقبة، ولتعلمن نبأه بعد حين.

ووجه خطابه إلى معاوية، فقال له:

أيها الذاكر علياً، أنا الحسن، وابن علي، وأنت معاوية، وأبو صخر، وأمي فاطمة، وأمك هند، وجدي رسول الله ﷺ وجدك عتبة بن ربيعة، وجدتي خديجة، وجدتك فتيلة، فلعن الله أخملنا ذكراً، وألأمنا حسباً، وشرنا قديماً وحديثاً، وأقدمنا كفراً ونفاقاً.

وارتفعت الأصوات من جميع الحاضرين: (آمين آمين)

---

(١) البحار: ١٠/١١٤.

وعلت الأصوات من جميع جنبات المجلس بقول (آمين آمين) وعلت الأيدي بالدعاء: اللهم ضاعف عذابك على الذين ظلموا عترة نبيك، وغصبوهم تراثهم، وأزالوهم عن مقامهم الذي رتبهم الله فيه.

شكوى الإمام الحسن (ع):

ويرفع الإمام الحسن عليه السلام شكواه إلى الحاكم المطلق، الذي هو بالمرصاد لكل جبار ومعتدي، قائلاً:

اللهم: إن معاوية قد نازعني حقي، وسلبني تراثي، وقد لاقيت من ظلمه وجوره ما لا سبيل إلى تصويره، فقد أفسد عليّ جيشي بما بذله لقادة الفرق من الرشوة، وما بثّه في صفوف الجيش من الفتن والدعايات المضللة، وقد فتكت به العمليات التخريبية التي قام بها، حتى أصبحت أحاذر منه أكثر مما أحاذر من معاوية، وأخشى منه أكثر مما أخشى من معاوية، وقد اعتدت عليّ فصائل منه، كما حكمت عليّ بعض عصاباته بالمروق من الدين، وطفقت بعد ذلك أرى أني إن حاربته فليس لي ناصر أو معين ما سوى أهل بيتي، والنزر اليسير من المؤمنين الذين إن طحنتهم الحرب فسوف تتلاشى قواعد الإيمان، وتذهب رسالة الإسلام. ولاحظت بدقة وعمق: أن الخونة من جيشي سوف يسلموني أسيراً لمعاوية، وأنه حتماً سوف يمن عليّ، فتكون سبة وعار عليّ وعلى بني هاشم إلى آخر الدهر.

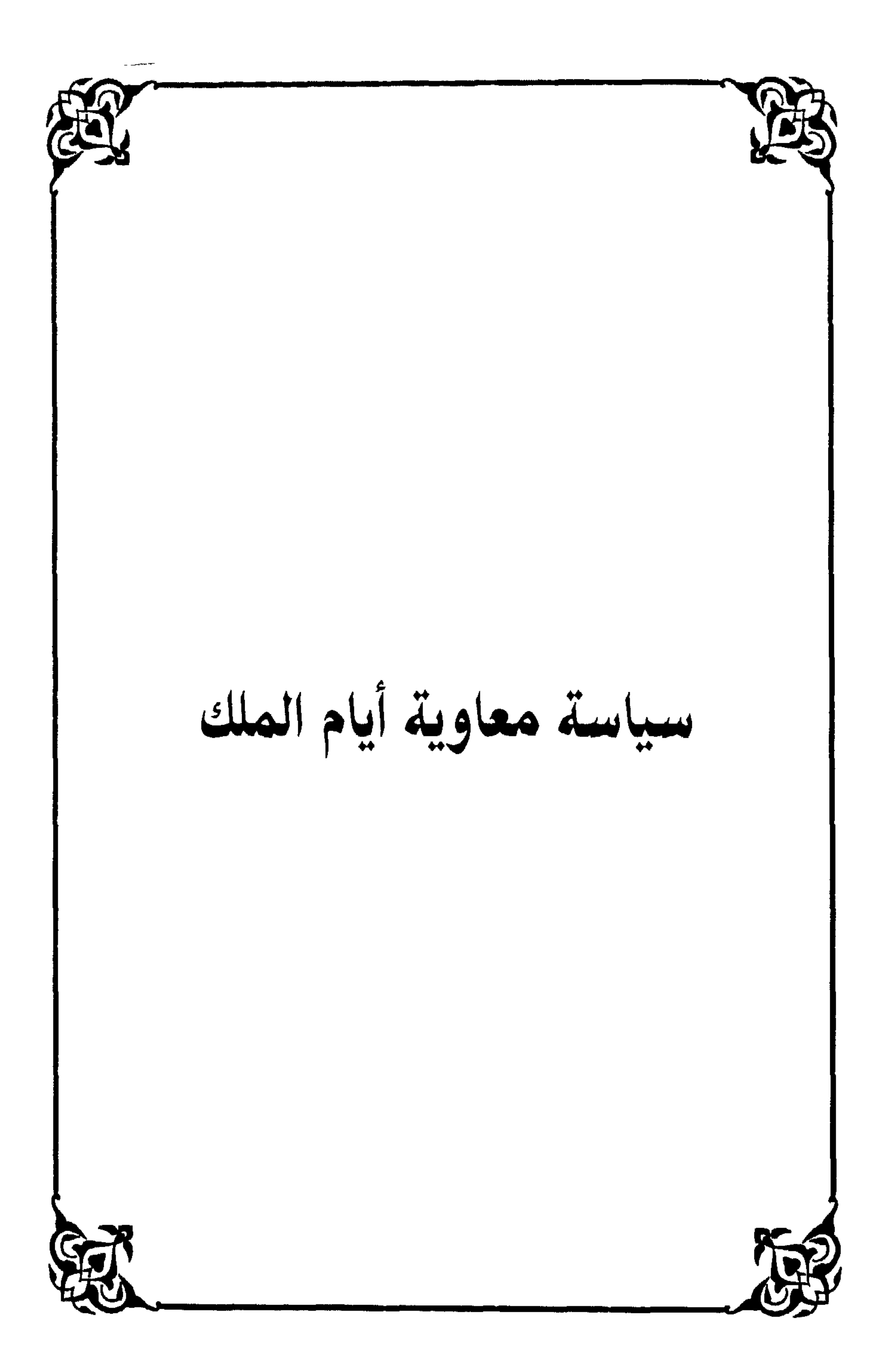
لقد كنت في جيل متدافع نحو الشهوات والمنافع المادية الخاصة، وهو يصيب منها فوق كفايته على موائد معاوية، ولم يكن بالمستطاع لي إخضاع تلك النفوس وإرجاعها إلى طريق الحق والرشاد، فتحملت آلام الصبر، فإني لو فتحت باب الحرب مع خصمي الجبار لأعنته على نفسي حياً وميتاً، وليس أتفه ـ في عالم التضحية ـ من الموت الذي يجني ثمراته الخصم الذي له القابليات على إظهار نفسه مظهر العادل المنصف، وبهذا تكون التضحية في

جميع أبعادها مسلوبة الأثر، عديمة الفائدة.

لقد كان صلحي من أكبر مصادر الثورة التحريرية الهادفة إلى قلب الحكم وإظهار الخصم بما هو عليه من تفسخ في الأخلاق، وتجرد من انحلال الكريمة، ولولا الصلح وما أعقبته من ثورة أخي سيد الشهداء، الحسين بن علي عليه السلام لما بقي للإسلام اسم ولا رسم، ولضاعت جهود جدي محمد صلى الله عليه وآله وكل ما جاء به للناس من خير وبركة.

وكأني بالنداء يأتي عالياً من قِبل الحق: ألا بوركت تلك الخطة الرشيدة التي احتطت بها للاسلام، وحقنت بها دماء المسلمين ولو ولجت باب الحرب لوقع الإسلام فيما لا تحمد عقباه، وواجه المسلمون أعنف المشاكل والخطوب.

وبهذا ينتهي بنا المطاف من حديث الإمام الحسن عليه السلام لننظر أيام ملك معاوية، وما حفلت به من الأحداث والخطوب.



سياسة معاوية أيام الملك

وعمد معاوية ـ بعد أن تمّ له الملك ـ إلى إبادة جميع القيم الانسانية، ونسف جميع الأسس التي أقامها الإسلام، فقد راح يسوس البلاد بسياسة العنف والارهاب والجور، وبسط الخنوع والذل والعبودية على جميع الحواضر الإسلامية، محاولاً بذلك استئصال جذور الكرامة والنبل والشرف، التي غرسها الإسلام في نفوس المسلمين، حتى يتم له بذلك تربية المسلمين على واقع جاهلي، لا يمتّ إلى روح الإسلام وهديه بصلة.

إن سياسة معاوية بجميع خطوطها كانت تستهدف زعزعة العقيدة الإسلامية، وشلّ الحركة الإصلاحية، وإبادة جميع المثل الخيرة، التي يؤمن بها الانسان الحر في جميع مراحل حياته، وفيما يلي عرض إلى بعض الوان تلك السياسة القائمة:

إبادة القيم الانسانية:

إن السياسة التي انتهجها معاوية في أيام حكمه كانت تستهدف في جميع أبعادها قلب جميع المفاهيم العامة، وتغيير مناهج الحياة، ووضعها على أساس خاص من الرذيلة والمنكر، والفسق والإثم. وقد برزت هذه المفاهيم بجميع ما تحمل من معانٍ منكرة فيما يلي من سياسته:

١ ـ نقض المواثيق:

التزمت جميع الأعراف العامة للانسان على اختلاف معتقداته بتنفيذ العهود، والالتزام بها كقاعدة أساسية في بناء المجتمع الانساني، وقد أكدها الإسلام وبنى عليها مجتمعه في جميع مقرراته، وقد أعلن القرآن الكريم ذلك في سورة النحل: **﴿وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله كفيلا. إن الله يعلم ما تفعلون. ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم أن تكون أمة هي أربى من أمة إنما يبلوكم الله به وليبين لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون﴾**.

وقال تعالى في سورة الإسراء: **﴿وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولا﴾**.

وجعل تعالى الوفاء بالعهد خصلة من خصال البر التي عددها بالآية الكريمة من سورة البقرة: **﴿ليس البر أن تولوا وجوهكم قِبَل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون﴾**.

هذا هو منطق الإسلام تجاه الوفاء بالعهد، ولكن معاوية قد جافى ذلك، وسار في المسلمين سيرة تنحرف عن كتاب الله وسنة نبيه، فقد كان ألزم نفسه بالايمان المغلظة، والعهود المؤكدة على الوفاء بما أعطاه للإمام الحسن عليه السلام من شروط. فقد جاء في ختام المعاهدة بتوقيعه:

وعلى معاوية بن أبي سفيان عهد الله وميثاقه، وما أخذ الله على أحد من خلقه بالوفاء، وبما أعطى الله من نفسه.

هكذا التزم معاوية على نفسه، ولكنه لم تمضِ أيام على ذلك حتى أعلن أمام الناس نقضها، فقال:

ألا إن كل شيء أعطيته للحسن بن علي تحت قدمي لا أفي به.

إن جميع بنود المعاهدة قد خرقها معاوية، ولم يفِ بشيء منها، وقد أسفر بذلك عن سياسته الملتوية التي رفعت شعار الغدر، ونكث الذمم، ونقض العهود.

٢ ـ إفساد الأخلاق:

وهناك حادثة تثير المتأمل، وتكشف عن سياسة معاوية وما تستهدفه من العبث بأخلاق الناس، وإماتة الشعور بالكرامة الانسانية.

فقد كان في يثرب رجل اسمه عبد الله بن سلام، وكانت له زوجة اسمها زينب ابنة اسحاق، وهي أجمل إمرأة في عصرها، وقد رآها يزيد فهام بها حباً، وعرف معاوية ذلك، وقد امتنعت المرأة على ولده، ففكر في أن يطلقها من زوجها ليزوجها بعده من يزيد.

فأرسل معاوية إلى عبد الله، فلما مثل عنده قربه إليه، ثم فاتحه أن يزوجه من ابنته، فما كان من الرجل إلا أن طار فرحاً وسروراً، ولكن معاوية عاد إليه، فقال له: إنه لا ينبغي أن يجمع إلى زواجه من ابنته زوجة أخرى.

فطلّق عبد الله زوجته، وبعد الطلاق فوجىء بأن ابنة معاوية ترفض زواجه، وأن معاوية يمتنع أن يرغم ابنته على زواج تأباه.

وأوفد معاوية أبا هريرة إلى زينب ليخطبها إلى يزيد، فرفضت إجابته، وسارع الحسين بن علي عليه السلام لإنقاذ الموقف إلى العقد عليها، حتى إذا جاء عبد الله بن سلام خائباً، ردها الحسين إليه دون أن يقربها.

إن هذه البادرة تكشف عن المدى السحيق الذي وصلت إليه السياسة

الأموية التي راحت تفسد أخلاق الناس، وتبعث فيهم الشذوذ والانحراف.

٣ ـ إثارة النزعات القبلية:

وعمد معاوية إلى إحياء النزعات القبلية، وبثّ روح التفرقة بين صفوف المسلمين، ودوافع ذلك هو إشغالهم بحروب أهلية طاحنة، حتى تتمزق وحدتهم، وليكون في مأمن من ثوراتهم على جوره وطغيانه واستبداده وإرهابه.

وكانت إثارة الحزازات والنعرات ذات طوابع مختلفة وهي:

أ ـ إلقاء العداوة والبغضاء بين الأوس والخزرج: فقد أوعز إلى المغنين بإنشاء الشعر الجاهلي الذي كانت القبائل تتهاجا به قبل الإسلام، وكان (أويس) ولعاً بالشعر الذي قالته الأوس والخزرج في حروبها، فيعهد به إلى (طويس) ليغني به في المجالس، وكان لا يفرغ من غنائه إلا وقد حدث شغب في مجلسه، وقد وقع بينهم العداء والبغضاء بسبب ذلك[1] والسبب في ذلك هو تفتيت الوحدة بين هاتين الأسرتين اللتين تملكان رصيداً كبيراً من الاكبار والتقدير في نفوس المسلمين، وكانت الاغلبية الساحقة منهما تثير حفائظ النفوس ضد الحكم الأموي، فأراد معاوية بعملية التفريق بينهما إشغالهم عن المعارضة والنقد لحكمه.

ب ـ إثارة الحفائظ والبغضاء بين المضريين واليمانيين: فقد كان اليمانيون من أشد القبائل إخلاصاً وولاءً إلى الإمام أمير المؤمنين عليه السلام فقد أراد معاوية إضعاف شوكتها، وألقى التنافر بينهما وبين المضريين حتى تتفتت القوى، وتخمد حركة الثورة ضد حكمه[2].

---

(١) الأغاني: ٢ ـ ١٧٠.

(٢) ثورة الحسين: ص ٧٢.

ج ـ **وعمدت السلطة الأموية إلى إلقاء الفتنة حتى بين أعضاء الأسرة الواحدة**: فقد عهد زياد بن أبيه إلى محمد بن الأشعث الكندي بالقبض على حجر بن عدي الكندي، وغرضه بذلك إلقاء العداء بين كنده، وقد علم الصحابي العظيم حجر بن عدي بهذا المخطط، فبادر إلى تسليم نفسه إلى زياد[1].

د ـ **إشعال نار الفتنة بين الشيعة والخوارج**: فقد عمد المغير بن شعبة والي معاوية على الكوفة إلى إثارة العداء بينهما، وبذلك استطاع أن يشغلهم عن معارضة الحكم الأموي[2].

هـ ـ **إلقاء التفرقة بين صفوف المسلمين**: وذلك بتمييز العربي على الموالي، وتفضيلهم عليهم، وقد سلك معاوية طريقاً آخر في إذلالهم واضطهادهم، فقد رام أن يقتل شطراً منهم، ويدع شطراً آخر لعمارة الطريق، وإقامة السوق.

وكانت هذه الخطط بجميع أبعادها تحمل معول الهدم والتخريب على الأسس التي جاء بها الإسلام، فإنه ساوى بين جميع المسلمين على اختلاف قومياتهم، ولم يجعل هناك أي تفاوت بينهم ما سوى التقوى وعمل الخير.

لقد كانت هذه السياسة النكراء سياسة تفريق وبطش، فهي تحمل الوباء لإبادة المسلمين، وتمزيق صفوفهم ووحدتهم، وهي من أهم عوامل الردة، فقد نقم الموالي من ذلك، ورجع الكثيرون إلى ما كانوا يدينون به قبل الإسلام.

إن سياسة التفريق التي سلكها معاوية في الأقاليم الإسلامية كانت تهدف

---

(١) ثورة الحسين: ص ٧٢.

(٢) تاريخ الشعوب الإسلامية: ١ ـ ١٤٦.

إلى صرف المسلمين عن واقع حكمه وسياسته الهادفة إلى نشر الظلم والجور وإرغام المسلمين على ما يكرهون.

البطش وسفك الدماء:

ونشر معاوية الجور والارهاب في جميع أنحاء العالم الإسلامي، فقد ساس البلاد سياسة عنف وجور، فكان هو وعماله يأخذون بالظنة، ويقضون بالهوى، ويقتلون على الغضب، حتى عم الهرج والمرج، وانتزعت من الناس جميع الحريات، وقد عبر زياد عن خطته الارهابية في خطبته البتراء، فقد جاء فيها:

(وإني أقسم بالله لآخذن الولي بالولي، والمقيم بالظاعن، والمقبل بالمدبر، والصحيح منكم بالسقيم، حتى يلقى الرجل منكم أخاه، فيقول:

(انج سعد فقد هلك سعيد) ومنها:

وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة، فمن غرّق قوماً غرّقناه، ومن حرق على قوم حرقناه، ومن نقب بيتاً نقبت عن قلبه ومن نبش قبراً دفنته حياً، ثم قال:

وأيم الله: إن لي فيكم لصرعى كثيرة، فليحذر كل امرىء أن يكون من صرعاي)[1].

ودلّ هذا الخطاب على أن ابن سمية لم يكن يرى الذي بيّنه الله ورسوله ﷺ للمسلمين من الحدود كافياً لحمل المواطنين على الرجوع بهم إلى الصراط المستقيم. فإن الإسلام لا يغرّق من أغرق ولا يحرّق من أحرق، ولا ينقب من قلب السارق وإن نقب عن البيوت، والإسلام لا يدفن الناس أحياء، وإن نبشوا عن الموتى في قبورهم. والإسلام لا يقيم الحدود بالشبهات، وإنما يدرؤها بها.

---

(١) الكامل: ٣ ـ ٢٢٦.

إن هذه السياسة المنكرة التي أعلنها زياد بن سمية، قد أوجبت نشر الارهاب، وفزع الناس وخوفهم، وقد أخذ زياد بسياسة البطش والانتقام حتى للبريء، فقد قبضت شرطته على أعرابي فجاءت به مخفوراً، فقال له زياد:

هل سمعت النداء؟

لا والله قدمت بحلوبة لي وغشيني الليل فاضطررتها إلى موضع فأقمت فيه لأصبح، ولا علم بما كان من الأيد.

فقال له زياد:

أظنك والله صادقاً، ولكن في قتلك صلاح هذه الأمة، ثم أمر به فضربت عنقه صبراً[1].

وهو حسب اعترافه لم يقترف إثماً أو جرماً، ولكن في قتله صلاح هذه الأمة ـ كما يقول الدعي ـ فهل إن سفك الدماء بغير حق فيه صلاح للمسلمين؟

نعم. هو في شريعة معاوية وعماله فيه صلاح للأمة.

لقد أوعز معاوية إلى جميع سلطاته باتخاذ التدابير القاسية ضد المواطنين، فقد أسرف عامله سمرة بن جندب في القتل، حتى أثكل المسلمين، ونشر في ربوعهم الحزن والحداد.

وقال أنس بن سيرين في معرض حديث له:

وهل يُحصى من قتل سمرة بن جندب؟ استخلفه زياد على البصرة وأتى الكوفة، فجاء وقد قتل ثمانية آلاف من الناس.

---

(١) الطبري: ٦ ـ ١٣٥.

فقال له زياد بن سمية:

هل تخاف أن تكون قتلت أحداً بريئاً؟

فأجابه الخبيث:

لو قتلت البهم مثلهم ما خشيت[1].

إن سمرة بن جندب كان لا يرجو لله وقاراً، ولو قتل جميع المسلمين لم يتحرج من ذلك، فقد باع آخرته بدنياه، ونسي ذكر الله العظيم.

وقال أبو سرار العدوي:

إن سمرة قتل من قومه سبعة وأربعين رجلاً، كانوا قد جمعوا القرآن[2].

وخرج سمرة من يثرب، فلما كان عند دور بني أسد، خرج رجل من بعض أزقتهم، ففاجأ أول القوم، فحمل عليه رجل فأوجزه بحربته، فلما مضت الخيل، اجتاز عليه سمرة فرآه متشحطاً بدمه، فقال:

ما هنا؟

أصابته أوائل الايد.

فقال عتواً واستكباراً:

إذا سمعتم بنا قد ركبنا فاتقوا أسنتنا[3].

وكان هذا الطاغي مولعاً بسفك الدماء، وإراقتها بغير الحق، فكان يقتل على الظنة والتهمة، فقيل له في ذلك:

يا سمرة: ما تقول لربك غداً؟ تُؤتى بالرجل فيقال لك: هو من الخوارج، فتأمر بقتله، ثم تُؤتى بآخر فيقال لك: ليس الذي قتلته بخارجي،

---

(١) الكامل: ٣ ـ ١٩٣، الطبري: ٦ ـ ١٣٢.
(٢) الطبري: ٦ ـ ١٣٢.
(٣) تاريخ الطبري: ٦ ـ ١٣٢.

إنما وجدناه ماضياً في حاجته، فشُبه علينا، وإنما الخارجي هذا، فتأمر بقتله.

فأجاب سمرة على ما انطوت عليه نفسه من الإلحاد والمروق في الدين قائلاً:

وأي بأس في ذلك؟ إن كان من أهل الجنة مضى إلى الجنة، وإن كان من أهل النار مضى إلى النار...)[1].

فأي ضمير زائغ عن الحق مثل هذا الضمير المتوحش الذي يتلذذ بإراقة الدماء، وزهق الأرواح؟

ومن آثار هذا الطاغية أن رجلاً من أهل خراسان جاء إلى البصرة، فزكى مالاً كان معه، في بيت المال، وأخذ براءة، ثم دخل المسجد فصلى ركعتين، فأخذه سمرة واتهمه برأي الخوارج، فقدمه فضرب عنقه، فنظروا فيما معه، فإذا البراءة - أي من فكرة الخوارج - بخط بيت المال، فاندفع أبو بكرة - هو أخو زياد - منكراً عليه قائلاً:

يا سمرة: أما سمعت الله تعالى يقول: ﴿**قد أفلح من تزكّى وذكر اسم ربّه فصلى**﴾.

فأجابه سمرة:

أخوك أمرني بذلك[2].

لقد ارتطمت الاقطار الإسلامية بالمحن والبلوى، وعمّ فيها الهرج والمرج، وساد فيها القتل وسفك الدماء، والتعذيب والارهاق، كل ذلك لدعم الحكم الأموي، وإرغام المسلمين على قبوله الرضا به.

---

(١) الكامل: ٣ - ١٨٣.

(٢) شرح ابن أبي الحديد.

وإن سلطاناً يقوم على التعذيب والارهاق وقتل الانفس لهو سلطان سوء وعذاب.

استنزاف الثروات:

وعمد معاوية إلى استنزاف ثروات الأمة، ومصادرتها، حتى عم الفقر وانتشر البؤس، وساد الحرمان، وقد أمعن الولاة في استقصاء أموال الرعية، ونهمها، وقد فزع عقبة بن هبيرة الأسدي إلى معاوية يشكو إليه ما ألمّ به وبقومه من الفقر من جراء عماله، يقول له:

معاوي إننا بشر فاسجح ... فلسنا بالجبال ولا الحديد
أكلتم أرضنا فجردتموها ... فهل من قائم أو من حصيد
فهبنا أمة ذهبت ضياعاً ... (يزيد) أميرها وأبو يزيد
أتطمع بالخلافة إذ هلكنا ... وليس لنا ولا لك من خلود
ذروا خول الخلافة واستقيموا ... وتأمير الأراذل والعبيد
واعطونا السوية لا تزدكم ... جنود مردخات بالجنود[1]

لقد أمعن معاوية مع عماله في استنزاف ثروات الأمة، واستصفاء ما شاؤوا منها، (فالمال مال الله، ومعاوية خليفة الله) فله أن يأخذ أموال المسلمين، وينفقها بغير حساب، ولننظر.

لمن يُعطي المال؟

إنه يعطي ويُغدق على الذين يدعمون الحكم الأموي، ويبررون ظلم معاوية وجوره واستبداده في أمور المسلمين.

إنه يُمنح لشراء الضمائر والاديان وزيادة الأعوان والعملاء.

---

(١) خزانة الأدب: ٢ ـ ٢٢٥.

إنه يُعطي للوجوه والاعيان وذوي النفوذ، فعاشوا في قصور فخمة، وفي عيشة رغدة، يُجلب إليها من جميع الاقطار وسائل الترفيه من القيان والمغنين والماجنين.

إنه يبذل بسخاء للدعايات المضللة التي صعّدت عمليات الافتراء والوضع ضد آل البيت عليهم السلام، فشوّهت واقعهم لصرف الأمة عن مسيرتها وقادتها الواقعيين.

لقد أغدق معاوية العطاء بغير حساب على الذين يضعون على لسان النبي العظيم ﷺ في مدح الأمويين، ونفي من ألصق بهم الخزي والعار في محاربة الإسلام منذ بزوغ نوره، وإشراق فجره.

إن أموال المسلمين تُمنح لخصوم الإسلام وأعدائه الذين كادوا له، وبغوا عليه، أمثال مروان بن الحكم، وعمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبة، وسمرة بن جندب، وأمثالهم من القوى المنحرفة عن الإسلام.

وليس للفقراء والمحرومين والبائسين في تلك الأموال شيء، فنصيبهم الحرمان والضياع والبؤس والشقاء.

الإدعاء:

إيه معاوية:

على من صرفت خزينة الدولة وإمكانياتها وثرائها؟

لقد صرفتها لتدعيم حكمك، وإقامة السلطان في بني أمية، وحرمتها على الفقراء والأرامل والأيتام والمساكين، وأمثالهم الذين خصهم الله بالنصيب الأوفر منها، وخصّ المشاريع العامة بقسم آخر منها، ولم يؤثر عنك أنك صرفت شيئاً من خزينة الدولة على صالح المسلمين، وتطوير حياتهم الاقتصادية، ونشر السعة والرفاهية فيما بينهم، فقد أخذ الفقر بخناقهم،

وراحت العامة تبحث عن مصادر القوت ومصادر العيش فلم تجده. وأنت وسائر حزبك، ومؤيدو سياستك ترفلون بالحرير والديباج، وتتنعمون بخيرات الأمة، وتمعنون اختيار الملاذ وأطائب العيش، قد شيدتم القصور واحطتموها بالملاهي والغناء والرقص.

إيه معاوية:

لقد أخذت مفاتيح خزائن الدولة، وقبضت عليها بيد من حديد، فلا ينال أحد من تلك الأموال شيئاً إلا أن يسجد لك، ويبيع عليك دينه وشرفه وكرامته، ويبرر ظلمك وإسرافك وجورك، وابتزازك لأمور المسلمين.

معاويـة:

لقد اقتديت بسياستي المالية بذي النورين الزكي الشهيد: عثمان، فقد أغدق الأموال بغير حساب على بني أمية، وآل أبي معيط، ووهب الثراء العريض للأشراف والوجوه من المؤيدين لسياسته، حتى أن بعضهم قد ترك بعد وفاته من الذهب ما يكسر بالفؤوس.

وقد رفّه عثمان على نفسه غاية الترفيه، فهو الذي قد بنى القصور لنفسه، وشيّدها بالكلس والحجر، ونضد أسنانه بالذهب، وقد سرت على وفق سياسته وطبقت جميع خطوطها على مسرح الحياة العامة.

ولو لم أسلك مسلكه لما تمكنت من قهر علي والتغلب عليه، فإنه قد تحرج في أموال المسلمين أشد الحرج، وضيّق على نفسه غاية التضييق، فكان يشد حجر المجاعة على بطنه، وكان يأكل ما جشب من الطعام، ويلبس ما خشن من الثياب، فضيّق على عائلته وأبنائه ومن يمتّ إليه، حتى هرب منه أخوه عقيل وغيره.

وإني لم أترك ملذة من ملاذ الحياة إلا نلتها وظفرت بها، كل ذلك اقتداء بابن عمي عثمان.

الإدعـاء:

هل كانت سياسة عثمان المالية على حق، وأنها تمثل وجهة الإسلام في صرف بيت المال؟

معاويـة:

إن عثمان خليفة المسلمين، ومن خيارهم، وهو أعلم بوجهة الإسلام وحكمه.

الإدعـاء:

ألم تنظر إلى سيرة الرسول ﷺ وشدة احتياطه وتحرجه في أموال المسلمين؟ لقد جاءت إليه حبيبته سيدة نساء العالمين: فاطمة الزهراء عليها السلام وقد مجلت يداها من الرحى، وهي تبغي وصيفاً يساعدها على شؤونها البيتية، فصرفها، ولم يسعفها بذلك، وقد مات ﷺ وهو يشد حجر المجاعة على بطنه، وكان من الضيق والبؤس بمكان، وكان في قبضته وتحت تصرفه كلّ ما يفيئه الله على المسلمين، وقد اقتدى بسلوكه، وسار على منهجه وصيه وخليفته من بعده الإمام أمير المؤمنين عليه السلام.

إن عثمان كان في سياسته بعيداً عن الجادة، ومنحرفاً عن الطريق القويم، لذا نقم عليه خيار المسلمين وقتلوه.

معاويـة:

إني سأوضح الجواب بمزيد من البيان عند دفاعي الكامل.

الإدعـاء:

ويوالي الإدعاء في عرض الأحداث الجسام التي ارتكبها معاوية أيام حكمه وسلطانه:

سب الإمام (ع):

وسعى معاوية جاهداً في إزالة رصيد أهل البيت عليهم السلام، فقد سخّر جميع إمكانيات الدولة إلى محو ذكرهم وعزلهم عن قيادة المسلمين، وعقد القلوب على كراهيتهم وبغضهم وانتقاصهم، وقد فرض سبهم على جميع المسلمين، فقد أوعز إلى جميع عماله بلعن أمير المؤمنين عليه السلام وكان يخطب بالناس ويقول في آخر خطبته:

اللهم إن أبا تراب ألحد في دينك، وصدّ عن سبيلك، فالعنه لعناً وبيلاً وعذبه عذاباً أليماً[1].

وقد انبرى الخطباء في كل كورة، وعلى كل منبر، يلعنون علياً، ويبرؤون منه[2].

وسار عماله على هذه السنة الظالمة، ومن أبى منهم عزله عن منصبه، فقد عزل سعيد بن العاص عن إمارة يثرب، لما أبى من سب الإمام، وجعل مكانه الوغد الخبيث مروان بن الحكم، فبالغ في سبّ الإمام علي عليه السلام وانتقاصه، حتى امتنع الإمام الحسن عليه السلام عن الحضور في الجامع النبوي[3].

وصار سبّ الإمام عليه السلام فريضة من فرائض الإسلام في أيام بني أمية، فقد كان في أيام حكمهم أكثر من سبعين ألف منبر يُلعن عليها الإمام عليه السلام[4].

---

(١) النصائح الكافية: ص٧٢.

(٢) شرح ابن أبي الحديد: ٣ ـ ١٥.

(٣) تطهير الجنان واللسان: ص ١٤٢.

(٤) النصائح الكافية: ص ٧٩.

إيه معاوية:

ما كنت تبغي في هذه الاجراءات المشددة في سب علي عليه السلام خليفة المسلمين الشرعي، وانتقاصه، وأي فائدة تجنيها من ذلك؟

معاويـة:

سببت علياً، لأخفي اسمه، وأمحو سيرته، وأُربي أبناء المسلمين على بغضه وكراهيته.

الإدعـاء:

إن علياً قد انتقل إلى رضوان الله ومغفرته، وقد استرحت من معارضته، فصفا لك الملك، واستوسقت لك الدنيا، فلم يكن لديك حاجة إلى سبه، وإلى إيعازك إلى جميع عمالك بلعنه، وجعله فريضة من فرائض الإسلام كما ترتئي.

معاويـة:

إني لم أسترح من علي بعد موته، فقد ترك في الأيام القليلة من حكمه سيرة ندية عاطرة، حافلة بما تبهر العقول، وتحير الأبصار، فقد تحدث الناس عن عدله ومساواته وزهده، وحرصه على رعاية الصالح العام، وتعاهده للأرامل والأيتام وسائر الضعفاء، واحتياطه الشديد على أموال الأمة، حتى أنه لم يصرف درهماً واحد في غير صالحها، وتحدث الناس عن علمه وحصانة رأيه، فلم تشاهد أمة الإسلام نظيراً له في عبقرياته وعلومه وسائر نزعاته، لقد كادت سيرة علي تضعضع عرشي وسلطاني، فرأيت أن الأمر لا يتم لي إلا بانتقاصه، وإبرازه أمام المجتمع بصورة مشوهة، حتى يعرض المسلمون عنه، ويزهدون في شخصيته.

إن هذا هو الذي دفعني إلى تسخير جميع أجهزة الدولة إلى انتقاصه،

ولولا ذلك لم يكتب لي البقاء على كرسي الحكم ساعة من أيام سلطاني وحكمي.

الإدعـاء:

إنه تعليل وثيق للغاية، وقد نهج الملوك من بعدك من بني أمية وبني العباس هذا النهج، فقد صعّدوا جميع عمليات الانتقاص ضد الإمام رائد العدالة الكبرى في الأرض، وقد وهبوا الاموال الضخمة للدعاية الواسعة النطاق لأجل الحطّ من كرامة الإمام وقدسيته، ولكن الله تعالى قد جعل أعمالهم هباءً منثوراً، وخابت مساعيهم، وضلّ كيدهم، فإن علياً قد استوعب ذكره جميع لغات الأرض، تذكره وتعلن قدسيته مقرونة بالإكبار والتقدير، وقد جعله الله باباً من أبوابه يلجأ إليه المظلومون والمفزوعون والمروعون، فجعل قبره مفزعاً وملاذاً، فروضته المقدسة لا تخلو في كل ساعة من زائر، حتى تزاحمت الملوك على لثم أعتابه والتشرف بقبره، وها هو في الآخرة حامل لواء الحمد، والساقي على الحوض، وقد أعدّ الله له من الكرامة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت.

وأما أنت يا معاوية فكنت في الدنيا مذموماً محقراً، لا تذكر إلا قرين الخيبة والخسران، وها أنت في الآخرة في قفص الاتهام، وسوف يُتلى في حقك قرار الحكم بالتجريم، فتخلد في نار جهنم: تلك النار التي سعرها الله لغضبه، وأعدها للطغاة والجبابرة من عباده.

معاويـة:

ويطرق معاوية برأسه، وقد مزّق الندم نفسه، وهو يقول:

لقد غرّني الملك، وغلبني هواي إلى هذا المهوى السحيق، الذي لا مفرّ لي منه، يا ليتني لم أكن شيئاً مذكوراً، يا ليتني لم أولد ولم أتقلد الحكم الجائر، فأجر على نفسي هذا البلاء العظيم.

الإدعـاء:

لقد ندمت في وقت لا يجدي فيه الندم، فهذا هو يوم الحسرة عليك وعلى أمثالك من الذين صدوا عن ذكر الله، واتخذوا أياته هزواً.

استمع يا معاوية: إلى الإجراءات التي اتخذتها ضد أهل البيت وشيعتهم.

منع الحديث عن أهل البيت:

وحشد معاوية جميع أجهزة دولته إلى منع الرواة ، وصد المحدثين عن رواية ما أثر عن النبي ﷺ في فضائل عترته، فقد أوعز إلى جميع عماله بمعاقبة من يروي أي منقبة أو مأثرة من مآثر أهل البيت عليهم السلام.

وقد جرت بينه وبين ابن عباس في مكة مناظرة خطيرة، جاء فيها أن معاوية قال لابن عباس:

إنا كتبنا إلى الآفاق ننهى عن ذكر مناقب علي وأهل بيته، فكفّ لسانك يا ابن عباس عنه.

فسدّد له ابن عباس سهماً من منطقه الفياض:

أفتنهانا عن قراءة القرآن؟

(لا)

أفتنهانا عن تأويله؟

(نعم)

أفنقرؤه ولا نسأل عما عني الله به؟

(نعم)

فأيهما أوجب علينا قراءته أو العمل به؟

(العمل به).

فكيف نعمل به حتى نعلم ما عنى الله بما أنزل علينا؟

(سل عن ذلك من يتأوله على غير ما تتأوله أنت وأهل بيتك).

إنما أُنزل القرآن على أهل بيتي، أفأسأل عنه آل أبي سفيان وآل أبي معيط؟

فاقرؤوا القرآن، ولا ترووا شيئاً مما أنزل الله فيكم، ومما قال رسول الله، وارووا ما سوى ذلك.

قال الله تعالى: **﴿يُريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون. .﴾**.

ولم يطق معاوية جواباً، واندفع يصيح بابن عباس، قائلاً له:

يا ابن عباس اكفني نفسك، وكفّ عني لسانك، وإن كنت فاعلاً فليكن سراً ولا تسمعه أحد علانية. . .)[1]

ودلّت هذه المناظرة على الأساليب الخبيثة التي اتخذها معاوية في حجب الأمة عن أهل البيت وإلقاء الستار على مناقبهم ومآثرهم.

هدم دور الشيعة:

ومن الوسائل التي اعتمد عليها معاوية في تصفية الحساب مع الطائفة الشيعية: أنه أوعز إلى عماله بهدم دورهم، فقامت الجلاوزة في كل مكان

---

(١) شرح ابن أبي الحديد: ٣ ـ ١٥، وسليم بن قيس.

بنسف بيوت الشيعة[1] فتركوهم بلا مأوى من أجل تغللهم وإضعافهم وإذلالهم.

عدم قبول شهادة الشيعة:

وكتب معاوية إلى جميع عماله: أن لا يجيزوا شهادة لأحد من شيعة علي وأهل بيته[2]، فامتثل العمال أمره.

حرمان الشيعة من العطاء:

وعهد معاوية إلى جميع ولاته وعماله: أن يحرموا شيعة الإمام من العطاء والمخصصات التي تجري لعموم المسلمين، وهذا نص كتابه:

أنظروا منْ قامت عليه البينة أنه يحب علياً وأهل بيته فامحوه من الديوان، وأسقطوا عطاءه ورزقه...

لقد كان معاوية يحاول بهذه الحرب الاقتصادية استئصال شيعة أهل البيت عليهم السلام ومحوهم من دنيا الإسلام، فقد حاربهم بكل طاقاته ومقدرته، ولم يدخر وسعاً في إنزال البلاء والمكروه بهم.

محنة الشيعة:

وامتحنت الشيعة امتحاناً مرهقاً في عهد معاوية، وخصوصاً شيعة الكوفة، فقد استعمل معاوية عليهم زياد بن سمية وضم إليها البصرة فكان يتتبع الشيعة وهو بهم عارف، لأنه كان منهم أيام الإمام علي، فقتلهم تحت كل حجر ومدر، وأخافهم، وقطع الأيدي والأرجل وسمل العيون، وصلبهم

---

(١) أعيان الشيعة: ٤ ـ ٤٦.
(٢) شرح ابن أبي الحديد: ٣ ـ ١٥.

على جذوع النخل، وطردهم وشردهم عن العراق، فلم يبق فيها أي شخص معروف منهم.

وقد بلغ الاضطهاد والخوف بهم اقصاه، فكان الشخص منهم يحب أن يقال له: زنديق أو كافر، ولا يقال له من شيعة أمير المؤمنين عليه السلام [(١)].

وضع الحديث في انتقاص آل الرسول (ص):

وعهد معاوية إلى لجان الوضع: أن تصطنع الاحاديث في انتقاص آل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وحطّ من شأنهم وقد استجاب أبو هريرة وسمرة بن جندب وعمرو بن العاص فلبوا نداء معاوية، فلفقوا الأكاذيب وافتعلوا الأحاديث ضد العترة الطاهرة، فروى ابن العاص لأهل الشام: أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال في آل أبي طالب: (إن آل أبي طالب ليسوا لي بأولياء، وإنما وليي الله وصالح المؤمنين...)[(٢)].

الويل لابن العاص، لماذا لم يكون آل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أولياء النبي؟

أليسوا هم حماة الإسلام وحضنته، ودعاته الاوفياء، والذين بذلوا مهجهم دونه؟

أليس منهم أبو طالب حامي الإسلام أيام محنته وغربته؟

أليس منهم جعفر الطيار الذي قطعت يداه وأزهقت روحه في سبيل الدعوة الإسلامية؟

أليس منهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب الناصر الأول للنبي صلى الله عليه وآله وسلم والذي خاض معه جميع حروبه، وحضر كل مواقفه؟

---

(١) شرح النهج لابن أبي الحديد: ١١ ـ ٤٤.

(٢) شرح النهج لابن أبي الحديد: ٣ ـ ١٥.

من هم أولياء النبي ﷺ إذا لم يكونوا آل أبي طالب أولياؤه؟

أتكون بنو أمية وآل أبي معيط هم حماة النبي وأولياؤه؟

الويل كل الويل لابن العاص، وسيأتي معه للتحقيق، وسوف يحاسب ويحاكم على ما اقترف من عظيم الموبقات والآثام.

وروى سمرة بن جندب: أن الآية الكريمة وهي: ﴿**ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويُشهد الله على ما في قلبه وهو ألدّ الخصام وإذا تولّى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد**﴾[1] أنها نزلت في علي[2].

بئساً لسمرة: أفي علي نزلت هذه الآية الكريمة، وهو صاحب المواقف المشهورة في دفاعه عن الإسلام؟

لقد غرر سمرة وشركاؤه في الإثم بالمسلمين، وأفسدوا عليهم عقائدهم، وحالوا بينهم وبين دينهم. فالويل كل الويل لهم من عذاب الله.

وسيحاكم سمرة ويحاسب على ضلاله وعلى ما جنته يداه، وستُعرض على شاشة القيامة أعماله الرهيبة من قتل المسلمين ظلماً وعدواناً، وعدم حريجته في سفك الدماء، وسينزل الله به أعظم العقاب والبلاء، وما الله بظلام للعبيد.

إيه معاوية:

لماذا أوعزت إلى هؤلاء الكذابين بافتعال الحديث؟

ولماذا منحتهم الاموال الطائلة عوض ذلك؟

---

(١) سورة البقرة: آية ٢٠٣ ـ ٢٠٤.

(٢) النصائح الكافية: ص ٢٥٣.

معاويـة :

لقــد شجعت الـوضـاعيـن، ووهبتهـم الثـراء العـريـض لأحجب عـن المسلمين فضائل عترة النبي ﷺ وأستر مناقبهم ومآثرهم، فإنهم بفضلهم يشكلون خطراً على دولتي وسلطاني.

وقد شجعت حركة الوضع بكل ما أملك من خداع ومكر، فقد عهدت إلى الوضاعين أن يرووا في فضل أبي بكر وعمر، فإن فضلهما وسوابقهما أحب إليّ وأقر لعيني، وأدحض لحجة أهل البيت[1] فروى الوضاعون من صنائعي وعملائي الأحاديث الكثيرة في مناقب الشيخين فموهت بذلك على المسلمين وصددتهم عن عترة النبي ﷺ.

ولولا ذلك لما تركز ملكي وثبتت دعائمه ولانهارت صروحه واندكّت قواعده، لقد بنيت ملكي على انتقاص علي وعترته، وذلك بما سولت لي نفسي، فقد أعماني حب الدنيا، وأغراني السلطان عن النظر إلى أمر آخرتي، ولم يطف في مخيلتي أو يلج في ذهني أني أحاسب هذا الحساب العسير، وأن يفتضح أمري أمام هذا الحشد الهائل من الناس.

الإدعـاء :

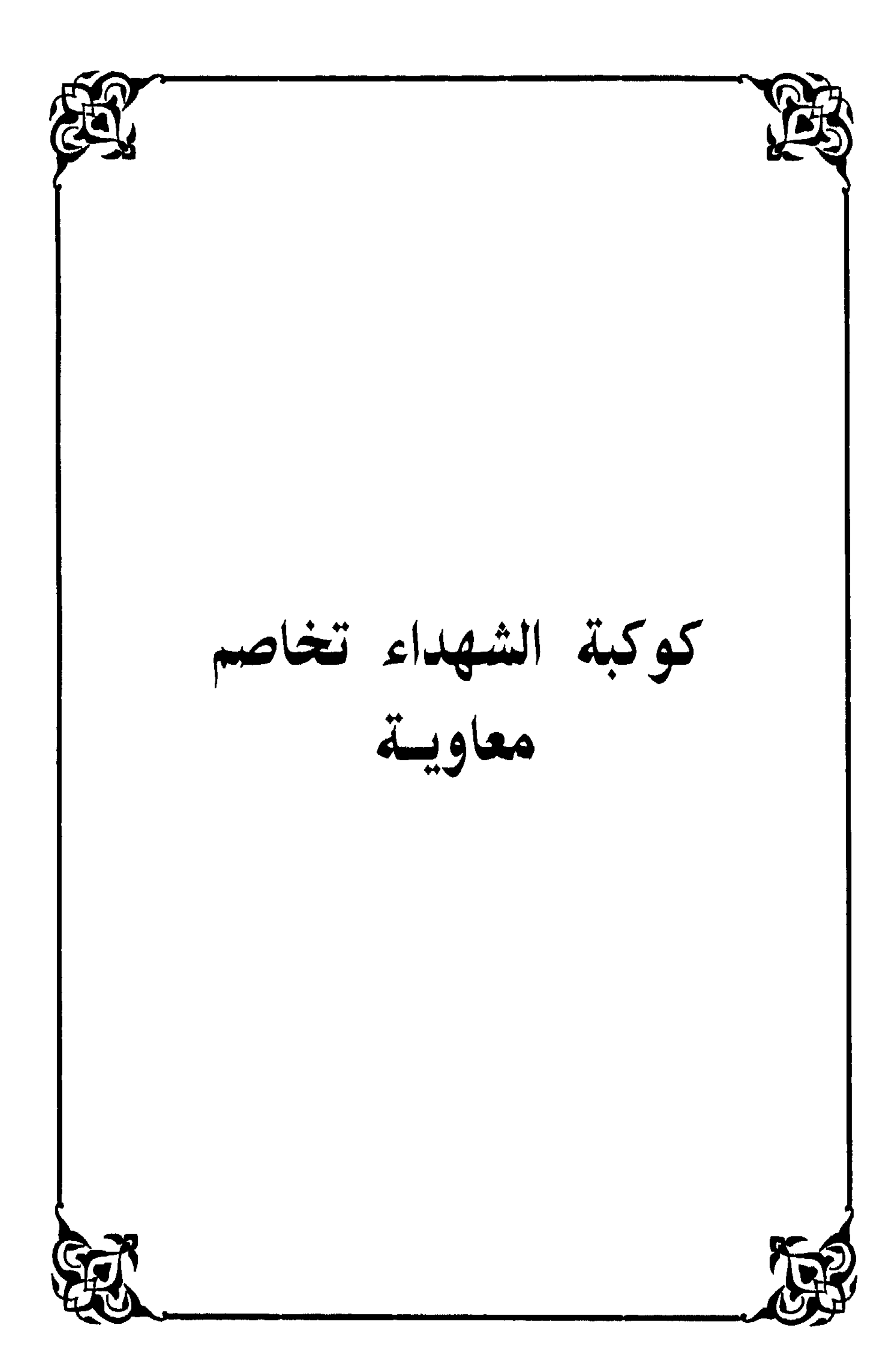
إن حسابك اليوم لعسير، فقد اقترفت من الذنوب الجسام اللواتي قلما يقترفها أحد سواك، فتباً لك وترحاً، وسوف تنال جزاءك العادل من الله الذي لا يظلم أحداً. إن هذه الأعمال التي صدرت منك تدل على أنك لم تؤمن بالله ولا باليوم الآخر الذي تجزى به كل نفس بما عملت.

لقد حسبت أنك تقضي بهذه الأعمال على سمو عترة النبي ﷺ فلقد

---

(١) يراجع حياة الإمام الحسن: للشيخ القرشي: ٢/ ١٦٠ ـ ١٦٧.

خاب سعيك، وفشل كيدك، فإن الله تعالى حكم بعدله ولطفه أن يعز عترة نبيه وأن يعلي من شأنهم فمنحهم في دار الدنيا أسمى منزلة، وأعظم مكاناً، فمراقدهم تتوافد إليها الملايين من المسلمين بكل خضوع وخشوع، ومنحهم الله في الآخرة دار الخلود يتبؤون منها حيثما شاؤوا، فهم وشيعتهم في أعلى عليين، وأنت وحزبك وأتباعك ومن سوّل لك ورضي بعملك في دار الهوان، تتلقون العذاب الأليم، فتباً لك على ما اقترفته من عظيم الإثم.



كوكبة الشهداء تخاصم معاويـة

ويسود المحشر وجوم رهيب فقد أطلت على قاعة المحكمة كوكبة من شهداء الإسلام الذين سفك معاوية دماءهم بغير حق، وقد خفوا أمام الله، وجروحهم تشخب دماً، وقد علت أصواتهم: يا عدل يا حكيم:

أحكم بيننا وبين معاوية بالحق، فأنت خير الحاكمين... لقد أراق معاوية دماءنا، وأنزل بنا أقصى الآلام، وأكثرها محنة وبلاء. فرمل نساءنا وأيتم أطفالنا، ولم نقترف معه أي ذنب ما سوى الولاء لعترة نبيك الذين فرضت على المسلمين ولاءهم ومودتهم، وقد طلب منا معاداتهم وأن نعلن بغضهم، فلم نستجب له، وآثرنا طاعتك وأمرك بولائهم على كل شيء، فتنكر لنا هذا الطاغية، وأرهقنا إرهاقاً شديداً، وأنزل بنا أمر العذاب وأقساه.

الإدعاء:

إن هذا يوم لا تقدر فيه ظلامة ولا يفوت أي حق من أي أحد من خلق الله، وسيُجازى الجاني بجريمته وجنايته...

وها هو معاوية في قفص الاتهام أمامكم، وسينال عقابه العادل على ما اقترفه في حقكم...

وليتقدم كل واحد منكم ليدلي بظلامته.

وتقدم أولاً إلى الساحة شهداء صفين، وقد أجمعوا على تقديم عمار بن

ياسر أمامهم، فهو شيخ الصحابة ومن أبرز الشهداء في الإسلام.

وينبري إلى ساحة المحكمة الشهيد العظيم: عمار بن ياسر، ممثلاً لإخوانه الشهداء الذين أريقت دماؤهم في صفين... وتشخص إليه الأبصار، ويزحف الجميع إلى القاعة للنظر إلى الصاحبي العظيم: عمار، ولسماع حججه، ويقوم أعضاء المحكمة تكريماً وتقديراً له لما أسداه للاسلام في أول محنته وتكبده عظيم البلاء من أجله.

الإدعـاء:

وقبل أن تستمع المحكمة إلى أقوال عمار وظلامته يقوم المدعي العام ليعرفه للحشود المحتشدة، ويبين نباهة شأنه، وعظيم مكانته في الإسلام.

إن عمار بن ياسر من المساهمين في بناء الإسلام ومن اللبنات الأولى في رصّ أسسه، وأحد عظمائه الذين أبلوا فيه بلاءً حسناً، وقد صبت عليه قريش ألواناً مريعة من العذاب الأليم، وكان الرسول الأعظم ﷺ يجتار عليه وعلى أبويه، وقد أمعنت قريش في تعذيبهم فكان ﷺ يقول لهم:

(اصبروا آل ياسر موعدكم الجنة)[١]

وبقي عمار وأبواه تحت وطأة التعذيب المرهق، حتى استشهد ياسر وسمية، وظلّ عمار يعاني الآلام القاسية، وقد نخر الحزن قلبه على فقد أبويه.

فعرضت قريش عليه سبّ النبي ﷺ فأجابهم على كره، وأقبل عمار يبكي على ما فرط منه من سب النبي ﷺ فقام ﷺ إليه، ومسح دموع عينيه، وقال له:

---

(١) مجمع الزوائد: ٩ ـ ٢٦٣.

إن عادوا لك، فعد لهم بما قلت.

وأنزل الله تعالى فيه: **﴿من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان﴾**[1].

لقد كان عمار في الطليعة الأولى من صحابة الرسول ﷺ إيماناً وجهاداً، وانطلاقاً في خدمة الإسلام، وكان أثيراً على النبي، فقد جرت بينه وبين شخص مشادة، فلما سمع النبي ﷺ ذلك غضب وقال في حق عمار:

ما لهم ولعمار يدعوهم إلى الجنة، ويدعونه إلى النار، إن عماراً جلدة ما بين عيني وأنفي، فإذا بلغ ذلك من الرجل فاجتنبوه...[2]

وقال صلى الله عليه وآله في حقه:

ما خُير عمار بين أمرين إلا اختار أرشدهما...[3]

وقد سبق عمار في ميادين الجهاد فكافح وناضل في سبيل الإسلام، ولما آل أمر المسلمين إلى عثمان بن عفان، واستبد بشؤون المسلمين، وجعل يهب أموالهم إلى الأمويين وآل أبي معيط، وخصهم بالوظائف الرئيسية، ثار عليه عمار وناهضه، فقد دفعه الحق الذي جُبل عليه إلى مناجزة تلك السياسة التي لم تساير سياسة الرسول ﷺ وسنته، وقد لقي عمار من عثمان في سبيل ذلك أعظم الجهد والعناء.

ولما أعلن المسلمون عن عزمهم بإصلاح شؤون عثمان وإعادته إلى الخط المستقيم كان عمار من أوائل الناصحين والمرشدين له، ولما يئس من أوبته إلى الحق صار من المؤلبين على قتله، ولما قُتل عثمان، وأعلن معاوية

---

(١) سورة النحل: آية ١٠٦.
(٢) سيرة ابن هشام: ٢ ـ ١٦٤.
(٣) مصابيح السنة: ٢ ـ ٢٨٨.

التمرد على حكومة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام لازم عمار الإمام، وانضم تحت لوائه، يدعو المسلمين إلى نصرته والانضمام إلى معسكره.

وقد استشهد عمار في سبيل الله مجاهداً ذاباً عن الإسلام، ومدافعاً عن وصي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وقد لاقى في جميع فترات حياته أعظم الجهد في سبيل الإسلام وحماية مبادئه.

عمـار:

ويقوم عمار وقد علا نوره، وأضاء كالكوكب لأهل المحشر، ليعرض ظلامته وظلامة أخوانه الشهداء الذين سُفكت دماؤهم في صفين، ويسود الصمت على الجميع ولم يسمع إلا صوت عمار مجلجلاً، وهو يدوي في جنبات المحشر قائلاً:

أنا عمار بن ياسر صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وخليله، وقد اتبعت علياً من بعده، ولازمته فلم أفترق عنه، ولم أخل سبيله، فقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول لي:

(يا عمار ستكون بعدي فتنة، فاتبع علياً وحزبه).

ولما أعلن معاوية التمرد كان الواجب عليّ نصرة علي ومسايرته وأن لا أتخلى عنه، وقد زحف معاوية بجيشه إلى صفين لمناجزته، والقضاء عليه، حتى يصفو له الملك، فيتخذ مال الله دولاً وعباد الله خولا، وقد تذرع هذا الطاغية بالمطالبة بدم عثمان، والأخذ بثأره، والقصاص من القتلة، كل ذلك ليتخذ من قميصه فتيلاً لنار الحرب يستنير بشعاعه، ويحرق الناس بلهبه، وجعل من رفاته جسراً للعبور إلى غاياته وأطماعه، فخدع بمكره ودهائه السذج والبسطاء، واستلحق بركبه العملاء وأرباب المطامع والانتهازيين، فتسبب بحرب صفين وإشعال نار الفتنة بين المسلمين، فصبغ وجه البسيطة بالنجيع القاني، وكون بركاً وغدراناً من دماء الشهداء الابرار الذين أزهقت

أرواحهم الزكية دفاعاً عن الحق، ونصرة لدين الله، وقد تبعثرت أشلاء الأبرياء وأطرافهم على الأرض حتى تكونت منها تلالاً، وملأ الفضاء بعويل الارامل واليتامى وأنين الجرحى، فما من بيت في الكوفة إلا وفيه نائح ونائحة، كما اتخذ دم عثمان وسيلة إلى عصيانه وتمرده على حكومة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام التي هي امتداد لحكومة الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله والتي تمثل أهداف الإسلام، وتعني بحقوق الضعيف والمحروم وإشاعة الحق والعدل بين الناس.

لقد ضيع هذا الباغي الأثيم على المسلمين أملهم في المساواة والعدالة، وحرمهم من التمتع بظل حكومة الإمام عليه السلام . . . وقد ملأ قلب الإمام بالآهات والأحزان، وجرعه نضب التهمام، وأفسد عليه أمره.

إن هذه الكوكبة من الشهداء، وفيهم أعلام الإسلام وحماته، قد اندفعوا إلى ميادين الحرب لنصرة الحق وتوطيد دعائم الإسلام، وإنقاذ الأمة من شر معاوية وظلمه وطغيانه، وقد حصدت رؤوسهم سيوف البغي والضلال.

إننا جميعاً لم نبغِ حكماً أو سلطاناً، ولم نندفع بدوافع مادية أو عاطفية في حربنا لمعاوية، وإنماكنا نبغي نصرة الحق، والدفاع عن الإسلام.

اللهم: احكم بيننا وبين معاوية بالحق، وأنت خير الحاكمين.

معاوية:

ويقوم معاوية مدافعاً عن نفسه، فيقول بنبرات متقطعة:

إن عماراً بالذات قد اشترك في قتل الشهيد عثمان بن عفان، وألّب عليه، حتى أريق دمه ظلماً وعدواناً. . .

الإدعاء:

ويلتفت الإدعاء إلى عمار مخاطباً:

يا شيخ صحابة النبي ﷺ هل كنت من المحرضين على قتل عثمان؟

نعم

لماذا؟

إن عثمان قد انحرف عن الطريق القويم، وخفناه على ديننا، فقد مكّن الأمويين من رقاب المسلمين، ومنحهم الثراء العريض، وولاهم على جميع الأقطار الإسلامية، ونكل بخيار المسلمين كأبي ذر صاحب رسول الله ﷺ وخليله، فنفاه إلى الشام ثم إلى الربذة حتى مات غريباً جائعاً، كما نكّل بعبد الله بن مسعود وغيره من أعلام الإسلام، فكانت الثورة شرعية بكل ما تحتمله هذه الكلمة من معنى، ولما قتله المسلمون تذرع بدمه معاوية، وهو من دون شك لا يهمه أمر عثمان، ولا يحزنه مصرعه، وأي علاقة لمعاوية بدم عثمان فهل هو وليه ووريثه لكي يطالب بدمه؟

معاويـة:

إني لم أقتل عماراً، كما أني لم أقتل هذه المجموعة الكبيرة من الشهداء، وإنما قتلهم عليّ، فقد دفعهم إلى الحرب، فاستشهدوا فيها، ولست أنا المسؤول عن دمائهم.

الإدعـاء:

غريب هذا المنطق الرخيص، فعليه أن رسول الله ﷺ قد قتل عمه حمزة لأنه دفعه إلى الحرب، وكذلك قتل ابن عمه جعفر الطيار لأنه قد زجه في حرب موته.

يا معاوية: لقد تذرعت بهذا القول الذي لقنك به وزيرك وباني دولتك: عمرو بن العاص، حينما قُتل عمار، فقد ثار أهل الشام لقول رسول الله ﷺ في عمار: (إن عمار تقتله الفئة الباغية).

فخدعتما الغوغاء والسذج بذلك القول المكذوب، وتحسب أنه يجديك في هذا اليوم الذي لا تنطلي فيه الأغاليط والأكاذيب، إنه لا موضع إلا للحق، ولا مجال للكذب والافتراء.

فأنت المسؤول مباشرة عن دم عمار ودماء هذه الصفوة من المؤمنين الصلحاء الذين وقفوا إلى جانب وصي رسول الله ﷺ يحمونه، ويدافعون عن بيضة الإسلام.

يا معاوية: ألم يقرع سمعك قول الرسول الأعظم ﷺ في عمار؟

لو قتل عمار جميع أهل الأرض لدخلوا النار[١].

يا معاوية:

لقد سمعت ذلك ووعيته، ولكنك كنت مرتاباً في الإسلام، لم تؤمن به، ولم ينطوي قلبك إلا على الحقد والبغضاء لكل من ساهم في بناء هذا الدين.

لقد كان قاتل عمار عندك أثيراً، فكنت تسمح له بالولوج عليك في كل وقت، لا يحجبه عنك حاجب، وكنت تقربه إليك تقديراً وإكباراً لعمله، فتباً لك، وما أبعدك عن الله، وما أكثر عقابك وعذابك.

ويأمر الإدعاء بأن تسجل قائمة الشهداء في السجل الخاص لموبقات معاوية، وتدون أسماؤهم.

شهداء مرج عذراء:

وهذه مأساة أخرى من المآسي الحمر التي رُوعت بها الأمة الإسلامية، وهي حادثة حجر بن عدي وأصحابه... إنها تُمثل أمام الحق، وتُعرض على

---

(١) شرح ابن أبي الحديد: ٥ ـ ٢٨٥.

ساحة العدل ليحاسب عليها معاوية بن أبي سفيان، وقد نُودوا بالمثُول أمام محكمة العدل ليجاثوا معاوية، ويخاصموه على ما اقترفه فيهم من عظيم الإثم.

وبطل شهداء مرج عذراء على الساحة الكبرى، فتشرئب أعين أهل المحشر نحوهم، ويقدمهم حجر بن عدي تعلو وجهه هالة من النور، وهو متلفع بدم الشهادة، ومعه الزمرة الطاهرة من أخوانه الذين قدموا أنفسهم قرابين للعدل والحق.

الإدعـاء:

وينبري الإدعاء لتعريف حجر إلى الجماهير، ويكشف لهم واقع هذا العملاق العظيم الذي تربى في مدرسة أمير المؤمنين عليه السلام وسار على هديه، واتّبع سنته وطريقه، ويذكر ما جرى عليه من النكبات والخطوب! فيقول:

إن الماثل أمامكم هو حجر بن عدي الأدبر، من معادن الشرف والحسب في الإسلام، وفد هو وأخوه هاني على النبي صلى الله عليه وآله في المدينة المنورة، وقد صحب النبي صلى الله عليه وآله [1] فكان في زهده وخشونة عيشه راهب أصحاب النبي صلى الله عليه وآله [2] وقد اتخذ الإسلام ميزاناً لأعماله، وجعل الحق هدفه الأعلى في جميع أقواله وأفعاله، وانحاز إلى الإمام أمير المؤمنين عليه السلام انحيازاً كاملاً، فأعلن ولاءه وحبه له، وقد قال الإمام فيه وفي أصحابه:

حجر بن عدي وأصحابه كأصحاب الاخدود. ،. . وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالعزيز الحميد[3] وبلغ من عظيم طاعته إلى الله أنه ما أحدث إلا

(١) مستدرك الحاكم.
(٢) شذرات الذهب في حوادث سنة ٥١.
(٣) شذرات الذهب في حوادث سنة ٥١.

وتوضأ، وما توضأ إلا صلى، وكان يصلي في اليوم والليلة ألف ركعة، وكان مستجاب الدعوة.

فإنه لما أُخذ أسيراً إلى معاوية أصابته جنابة في أثناء الطريق، فقال للموكل به:

أعطني شرابي أتطهر به.

أخاف أن تموت عطشاً إذا أعطيته لك فيقتلني معاوية.

فشق على حجر أن يبقى جنباً، فدعا الله أن يمكنه من الماء، فاستجاب الله دعاءه، فبعث سحابة سكبت ماءً غزيراً، فأخذ منه ما احتاجه[1].

ولما انتقل الإمام أمير المؤمنين عليه السلام إلى جنة المأوى، بقي حجر ملازماً إلى سبط الرسول صلى الله عليه وآله الإمام الحسن عليه السلام وواقفاً إلى جنبه، ولما اضطر الإمام الحسن إلى الصلح ـ نظراً لقلة الناصر، وانعدام الجيش المؤمن برسالته ـ ظل حجر ينسج من خيوط محنته بلواه الخالدة في تاريخ العالم الإسلامي، فقد بقي على إيمانه بآل الرسول صلى الله عليه وآله وولائه لهم، وأعلن سخطه العارم على السياسة الأموية التي انتهكت جميع حقوق الانسان.

لقد صمد حجر في وجه الاعاصير العاتية، وظل يدافع بحماس عن عقيدته.

ولما فرض ابن هند على ولاته وعماله سب أمير المؤمنين على أعواد المنابر، كان من بينهم المغيرة بن شعبة: المنافق الأول في الإسلام، فكان لا يفتأ من سب الإمام، وقد أعلن ذلك في مسجد الكوفة، فلم يسع حجر السكوت، وانبرى إليه قائلاً:

---

(١) حياة الامام الحسن.

كونوا قوامين بالقسط شهداء لله، وأنا أشهد أن من تذمون وتعيرون لاحق بالفضل ومن تتركون أولى بالذم...

ووثب قوم من المؤمنين، فقالوا بمقالته، فجفل المغيرة، ورعب من تلك الأصوات الهادرة التي تمثل الحق والايمان. والتفت إلى حجر! فقال له:

يا حجر: لقد رمي بسهمك إذ كنت أنا الوالي عليك، يا حجر: إتق غضب السلطان وسطوته، فإن غضبة السلطان مما تهلك أمثالك كثيراً...

ولكن حجر لم يخفه هذا الإنذار، ولم يداخله خوف أو فزع من السلطة، ما دام على يقين من أمره. وخطب المغيرة ثانياً وتعرض إلى سب الإمام، فصاح به حجر صيحة أسمعت كل من كان في المسجد وخارجه وقال له:

إنك لا تدري أيها الانسان بمن تولع؟ مر لنا بأعطياتنا وأرزاقنا فإنك قد حبستها عنا، ولم يكن يطمع في ذلك من كان قبلك، وقد أصبحت مولعاً بقطعها وتقريض المجرمين.

وقام أكثر من ثلثي الناس[1] وهم يقولون: صدق حجر وبر، مر لنا باعطياتنا، فإنا لا ننتفع بقولك هذا ولا يجدي علينا[2].

وخاف الجبان من انتفاضة الناس، فولى هارباً إلى قصره.

وتحمس شباب من ثقيف فطلبوا من المغيرة أن يأذن لهم بمناجزة حجر. ففكر المغيرة كثيراً وقال لهم:

---

(١) في الأغاني وقام معه أكثر من ثلثين.

(٢) تاريخ الطبري وابن الاثير.

والله ما كنت لأقتل حجراً أبداً، ثم تابع حديثه قائلاً:

إني قد قتلته.

وكيف ذلك؟

إنه سيأتي أمير من بعدي يحسبه مثلي، فيصنع به شبيهاً بما ترونه، فيأخذه عند أول وهلة، فيقتله شر قتلة، إنه قد اقترب أجلي، وضعف عملي، وما أحب أن أبتدىء أهل هذا المصر بقتل أخيارهم، فيسعدوا بذلك وأشقى، ويعز معاوية في الدنيا، ويذل المغيرة في الآخرة.

ولما هلك المغيرة ولي الكوفة من بعده زياد بن سمية الذي انطبعت نفسه الشريرة على بغض الإمام أمير المؤمنين عليه السلام فاستدعى حجراً وهمس في أذنه قائلاً: تعلم أني أعرفك، وقد كنت وإياك على ما قد علمت ـ يعني من حب علي ـ وأنه قد جاء غير ذلك، وإني أنشدك الله أن تقطرني من دمك قطرة فاستفرغه كله، أملك عليك لسانك، وليسعك منزلك، وهذا سريري فهو مجلسك، وحوائجك مقضية لدي، فاكفني نفسك، إني أعرف عجلتك، فأنشدك الله أبا عبد الرحمن من نفسك، وإياك وهذه السفلة، وهؤلاء السفهاء أن يستفزوك عن رأيك، فإنك لو وهنت عليّ أو استخففت بحقك، لم أخصمك بهذا من نفسي...

لقد أراد ابن سمية أن يشتري من حجر ضميره ودينه، وقد خاب سعي الدعي، فإن حجر هو الصلب في إيمانه ودينه، فلا تخدعه هذه المواعيد الرخيصة التي ينخدع بها ذوو الضمائر القلقة.

وترى زياد على المنبر يوم الجمعة، فأطال في خطابه حتى ضاق وقت الصلاة غير معني بذلك، فانبرى إليه حجر ينكر عليه تأخير الفريضة قائلاً:

الصلاة الصلاة.

فلم يُقم زياد وزناً لمقالة حجر، واسترسل في خطابه، فخشي حجر فوت الصلاة، فضرب بيده إلى كف من الحصى، وثار الناس.

فلما رأى زياد ذلك خاف على نفسه، ونزل عن المنبر، وهو يتميز من الغيظ والغضب وهو يقول:

ما أنا بشيء إن لم أمنع ساحة الكوفة من حجر، وأدعه نكالاً لمن بعده، ويل أمك يا حجر، سقط العشاء بك على سرحان، ثم تمثل بقول الشاعر:

أبلــغ نصيحــة أن راعــي ابلهــا   سقـط العشـاء بـه علـى سـرحـان

إن حجر لم يسعه أن يصبر على الإستهانة بفرائض الله وأحكامه، وقد أصر ابن سمية أن ينكل بهذا الرجل العظيم، وأن يشفي كوامن غيظه وأحقاده وأن يجعل دم حجر قرباناً لمعاوية، يثبت به نسبه اللصيق، فأصدر أوامره بإلقاء القبض عليه، وبعد مناوشة جرت بين شرطته وبين أتباع حجر، استطاعت الجلاوزة أن تلقي القبض عليه، فأمر بإيداعه في السجن.

وطلب ابن سمية من أوغاد أهل الكوفة أن يشهدوا على حجر بأنه شق عصا الطاعة، وفارق الجماعة، ليتخذ من ذلك وسيلة إلى سفك دمه، فكتبوا شهادتهم، وهذا نصها:

هذا ما شهد به أبو بردة بن أبي موسى الأشعري لله رب العالمين. أشهد أن حجر بن عدي خلع الطاعة، وفارق الجماعة، ولعن الخليفة، ودعا إلى الحرب، وجمع إليه الجموع يدعوهم إلى نكث البيعة، وكفر بالله كفرة صلعاء.

إنها الثغرة الأثيمة التي نفذ منها ابن سمية إلى إباحة دم حجر، وقد شهد فيها جماعة منهم عمر بن سعد، وشمر بن ذي الجوشن، وشيث بن ربعي وعمرو بن الحجاج الزبيدي، وحجار بن ابجر... وهؤلاء من أشرار خلق

الله، وقد قدمهم عبيد الله بن مرجانة إلى حرب الحسين: سبط الرسول وريحانته.

ودفع ابن سمية شهادة الزور إلى معاوية، فأمره أن يحمل إليه حجراً وأصحابه مكبلين بالحديد، فأمر زياد بإخراج حجر وأصحابه ليلاً إلى دمشق، فأخرجوا، ووقعت النياحة، وعلا الصراخ المؤلم في دار حجر، وصعدت ابنته ـ ولا عقب له غيرها ـ فوق سطح الدار، وهي تلقي نظراتها المشبعة بالدموع على القافلة التي تسير إلى الموت، وهي تبكي أمرّ البكاء وأشجاه، وأخذت تناجي القمر، وتبثه أحزانها:

ترفع أيها القمر المنير ... لعلك أن ترى حجراً يسير

يسير إلى معاوية بن حرب ... ليقتله كذا زعم الأمير

ويصلبه على بابي دمشق ... وتأكل من محاسنه الطيور

تجبرت الجبار بعد حجر ... وطاب لها الخورنق والسدير

ألا يا حجر حجر بني عدي ... تلقتك السلامة والسرور

أخاف عليك ما أردى علياً ... وشيخاً في دمشق له زئير

ألا يا ليت حجر مات موتاً ... ولم يُنحر كما نُحر البعير

فإن تهلك فكل عميد قوم ... إلى هلك من الدنيا يصير[1]

وذابت النفوس حزناً وأسىً لهذه المأساة المفجعة التي انتهكت فيها حرمة الانسان وحقوقه.

وازدلفت القافلة تجوب الصحراء حتى انتهت إلى مرج عذراء، فلما عرف حجر أنه بهذه القرية! قال:

---

(١) مروج الذهب: ٢ ـ ٢٠٧.

والله إني لأول مسلم نبحته كلابها، وأول مسلم كبر بواديها[1] وتقدم البريد بإخبارهم إلى معاوية، فأنس وارتاح بذلك، فأرسل إليهم رجلاً أعور وقد أمره بإعدامهم إن لم يتبرأوا من أمير المؤمنين عليه السلام ويسبوه، فلما قدم عليهم رآه بعضهم! فقال متنبأ: إن صدق الزجر[2] فإنه سيُقتل منا النصف وينجو الباقون:

وكيف ذلك؟

أما ترون الرجل المقبل مصاباً بإحدى عينيه؟

وقدم عليهم الجلاد فالتفت إلى حجر قائلاً:

إن أمير المؤمنين أمرني بقتلك يا رأس الضلال، ومعدن الكفر والطغيان، والمتولي لأبي تراب، وأقتل أصحابك إلا أن ترجعوا عن كفركم وتلعنوا صاحبكم وتتبرأوا منه.

فانبرى إليه حجر مع الزمرة الصالحة التي آمنت بإيمانه وهم يضربون أمثلة للعقيدة وللفداء في سبيل الله قائلين بلسان واحد:

إن الصبر على حد السيف لا يسر علينا مما تدعونا إليه ثم القدوم على الله وعلى نبيه وعلى وصيه أحب إلينا من دخول النار.

ورجع نصف من أصحاب حجر عن عقيدتهم والنصف الآخر بقوا مرابطين على عقيدتهم وولائهم لأمير المؤمنين عليه السلام وصدق زجر من قال منهم أنه يقتل منهم النصف، ثم حفرت قبورهم وقام الجلادون بتنفيذ حكم

---

(١) الكامل: ٣ ـ ١٩٢، وذكر ابن حجر في الاصابة أن حجراً هو الذي فتح مرج عذراء وأخيراً كانت شهادته بها.

(٢) الزجر: الحدس.

الاعدام فيهم، فطلب منهم حجر حاجة ـ قبل تنفيذ إعدامه ـ غالية عنده ورخيصة عند القوم قائلاً:

أتركوني أتوضأ وأصلي، فإني ما توضأت إلا صليت.

فسمحوا له بذلك، فصلى حجر وأطال في صلاته، وبعد الفراغ منها التفت إلى القوم قائلاً:

والله ما صليت صلاة أخف منها ولولا أن تظنوا فيَّ جزعاً من الموت لاستكثرت منها.

وأخذ يناجي ربه ويبثه شكواه وأحزانه من هذه الأمة التي أسلمته إلى عدوه الماكر قائلاً:

اللهم إنا نستعديك على أمتنا، فإن أهل الكوفة شهدوا علينا وإن أهل الشام يقتلوننا، أما والله لأن قتلتموني بها فإني لأول من المسلمين هلك في واديها وأول رجل من المسلمين نبحته كلابها.

وانطلق إليه الخبيث الأعور: هدبة بن فياض القضاعي شاهراً سيفه، فلما رآه حجر ارتعدت أوصاله، وخارت قواه، فقالوا له:

زعمت أنك لا تجزع من الموت، فابرأ من صاحبك وندعك.

فقال لهم حجر:

وما لي لا أجزع وأرى قبراً محفوراً، وكفناً منشوراً، وسيفاً مشهوراً، وإني والله إن جزعت من القتل لا أقول ما يسخط الرب[1].

ثم أجري عليه الاعدام. فكان آخر ما انطلق من حنجرته:

---

(١) الكامل: ٣ ـ ١٩٢.

لا تطلقوا عني حديداً ولا تغسلوا عني دماً، فإني ملاقٍ معاوية على الجادة[1].

وألقي حجر إلى الأرض جثة هامدة يتخبط بدمه مع ستة من أصحابه الشهداء الأبرار.

ففي ذمة الله يا حجر أنت وأصحابك، فقد مضيتم إلى عالم الخلود وأنتم شهداء العقيدة، وشهداء الانسانية الكاملة، فأنتم من أروع أمثلة البطولة الفذة التي ثارت على الظلم والطغيان، وقاومت جور الحاكمين واستبداد الطغاة الظالمين.

ضحايا العقيدة من أصحاب حجر:

ولم يذق حجر الحمام ويقتل صبراً وحده فقد قُتل معه ومن بعده جماعة من أصحابه المثاليين الذي ضحّوا بحياتهم الغالية تجاه عقيدتهم الدينية، ومبدئهم المقدس غير مبالين بالموت، وبهؤلاء وأمثالهم من أبطال الخلود، وعظماء العالم ترتكز العقائد، ويستقيم الحق، ويعم العدل ويزول الظلم، وها نحن نذكر أسماءهم مع ما جرى عليهم من العسف والتنكيل من قبل معاوية وولاته:

أ ـ عبد الرحمن

وكان عبد الرحمٰن بن حسان العنزي في طليعة أصحاب حجر، وقد أُخذ معه مكبلاً بالحديد إلى مرج عذراء، فطلب من الجلاوزة مواجهة معاوية لعله أن يعفو عنه، فاستجابوا لقوله، فجيء به إليه، فلما مثُل عنده قال له معاوية:

---

(١) الاستيعاب: ١ ـ ٢٥٦.

إيه أخا ربيعة، ما تقول في علي؟

دعني ولا تسألني، فهو خير لك.

والله لا أدعك.

أشهد أنه كان من الذاكرين الله كثيراً، والآمرين بالحق، والقائمين بالقسط، والعافين عن الناس.

ولم يجد معاوية بعد هذا وسيلة يستبيح بها إراقة دمه، فعرج إلى دم عثمان الذي بُلي به المسلمون حياً وميتاً ليجعله جواز عبور للتنكيل به! فقال له:

ما قولك في عثمان؟

هو أول من فتح باب الظلم، وارتج أبواب الحق.

قتلت نفسك.

بل إياكِ قتلت ولا ربيعة بالوادي.

لقد ظن أن أسرته تتشفع به وتفك أسره، وتدفع عنه ظلامته، فلم يجبه أحد، وأشاح معاوية بوجهه عنه، ثم رفع رسالة إلى عامله زياد، جاء فيها:

أما بعد: فإن هذا العنزي شر من بعثته فعاقبه عقوبته التي هو أهلها واقتله أشر قتلة.

ولما وردت رسالته إلى زياد بعث به إلى قس الناطق[١] وأمر بدفنه حياً فيه فدفن وهو حي[٢].

---

(١) موضع قريب من الكوفة.

(٢) الطبري: ٦ ـ ١٥٥.

ب ـ صيفي بن فسيل:

وصيفي بن فسيل الشيباني من أبطال المسلمين وعباقرتهم وأفذاذهم ومن خيرة أصحاب حجر، سُعي به إلى زياد فبعث الدعي خلفه، فلما حضر عنده بادره بالسؤال عن أمير المؤمنين عليه السلام ليتخذ من ذلك وسيلة يستحل بها دمه، فقال له بنبرات تقطر غيظاً وغضباً:

يا عدو الله: ما تقول في أبي تراب؟

ما أعرف أبا تراب.

ما أعرفك به.

ما أعرفه.

أما تعرف علي بن أبي طالب؟

(بلى)

فذاك أبو تراب.

كلا، ذاك أبو الحسن والحسين عليه السلام.

والتفت مدير شرطة زياد إلى صيفي منكراً عليه مقاله ليتقرب إلى ابن سمية قائلاً:

يقول لك الأمير: هو أبو تراب، وتقول أنت: لا.

فنهره صيفي ورد عليه وهو غير معتن به ولا بأميره! قائلاً:

وإن كذب الأمير، أتريد أن أكذب وأشهد له على باطل كما شهد؟

فثار ابن سمية وانتفخت أوداجه غضباً! فقال له:

وهذا أيضاً مع ذنبك.

والتفت إلى شرطته وهو مغيظ! فقال لهم:

(عليّ بالعصا) فأُتي بها، والتفت إلى صيفي:

ما قولك؟

فقال له بكل شجاعة وإيمان:

أحسن قول أنا قلته في عبد من عباد الله المؤمنين.

وأمر زياد جلاوزته بضرب عاتقه حتى يلصق بالأرض، فبادروا إليه وضربوه ضرباً عنيفاً حتى وصل عاتقه إلى الأرض، ثم أمرهم بالكف عنه والتفت إليه:

إيه ما قولك في علي؟

وأصرّ بكل العقيدة على إيمانه ومبدئه! فقال:

والله لو شرحتني بالمواسي والمدي ما قلت إلا ما سمعت مني.

لتلعننّه أو لأضربنّ عنقك.

إذاً تضربها والله قبل ذلك، فإن أبيت إلا أن تضربها، رضيت بالله وشقيت أنت.

ادفعوا في رقبته.

ثم أمر به ثانياً أن يوقر في الحديد ويلقى في ظلمات السجون[1] وأخيراً بعثه مع حجر فاستشهد معه في مرج عذراء.

ج ـ قبيصة بن ربيعة

ومن جملة أصحاب حجر الذين أرهقهم زياد قبيصة بن ربيعة العبسي، فقد بعث إليه مدير شرطته: شداد بن الهيثم، فهجم عليه خفية، فلما أحس به

---

(١) الطبري: ٤ ـ ١٩٨، الكامل: ٣ ـ ١٣٩.

قبيصة أخذ سيفه ووقف للدفاع عن نفسه، ولحق به فريق من قومه، فقال مدير الشرطة إلى قبيصة مخادعاً:

أنت آمن على دمك ومالك، فلِمَ تقتل نفسك؟

ولما سمع بذلك أصحابه انخدعوا، فلم يحاموا عنه ولم ينقذوه، لأن خوفهم من سلطة زياد أشد وقعاً في نفوسهم من خطر الموت، فاندفعوا قائلين:

قد أمنت فعلى مَ تقتل نفسك وتقتلنا معك؟

ولم يذعن لمقالة أصحابه، وذلك لعلمه بغدر الأمويين وأذنابهم وعدم وفائهم بالعهد والوعد، فقال لهم:

ويحكم إن هذا الدعي ابن العاهرة والله لأن وقعت في يده لا أفلت أبداً أو يقتلني.

(كلا)

ولما لم يجد بداً من ذلك وضع يده في أيديهم، وأُخذ أسيراً إلى زياد، فلما مثل عنده قال له:

أما والله لأجعلن لك شاغلاً عن تلقيح الفتن والتوثب على الأمراء.

إني لم آتك إلا على الامان.

انطلقوا به إلى السجن[1].

لقد نقض زياد الامان وخاس بالميثاق، ثم أمر به أن يحمل مع حجر وأصحابه إلى مرج عذراء، فحمل معهم، فلما انتهت قافلتهم إلى جبانة

(١) تاريخ الطبري: ٦ ـ ١٤٩.

(عرزم) وكانت فيها داره، نظر إليها وإذا بناته قد أشرفن من أعلى الدار ينظرن إليه وهنّ يخمشن الوجوه، ويخلطن الدموع بالدعاء، قد أخذتهن المائقة، ومزق الأسى قلوبهن، فلما نظر إلى ذلك المنظر الرهيب طلب من الشرطة الموكلة بخفارته أن يسمحوا له بالدنو من بناته ليوصيهن بما أراد، فسمحوا له بذلك، فلما دنا منهن علا صراخهن، فأمرهن بالسكوت والخلود إلى الصبر، وأوصاهن بوصيته التي مثلت الايمان والرضا بقضاء الله! قائلاً:

إتقين الله عز وجل، واصبرن، فإني أرجو من ربي في وجهي هذا إحدى الحسنيين إما الشهادة وهي السعادة، وإما الانصراف اليكن في عافية، وإن الذي كان يرزقكن ويكفيني مؤنتكن هو الله، وهو حي لا يموت، أرجو أن لا يضيعكن، وأن يحفظني فيكن، ثم ودعهن وانصرف، ولما رأى من معه شجون بناته وما داخلهن من فزع رقوا لهن، ثم رفعوا أيديهم بالدعاء والابتهال إلى الله تعالى طالبين منه العافية والسلامة إلى قبيصة، فانبرى إليهم! قائلاً:

إنه لما يعدل عندي خطر ما أنا فيه هلاك قومي حيث لا ينصرونني[1].

أراد بذلك عدم نصرة قومه وخذلانهم له، وإن ذلك أشد وقعاً على نفسه من هلاكه.

وسار قبيصة مع حجر إلى مرج عذراء فاستشهد معه.

وأما بقية أصحاب حجر من شهداء التضحية والفداء. فهم:

شريك بن شداد الحضرمي.

كدام بن شهلب حيان العنزي.

---

(١) تاريخ الطبري: ٦ ـ ١٤٩.

محرز بن شهاب التميمي.

وهؤلاء الحماة الذين قدموا نفوسهم ضحايا للعقيدة، وقرابين للحق، كانوا من خيار المسلمين ومن صلحائهم، وقد ساقتهم السلطة الأموية إلى ساحة الاعدام، فاستباحت دماءهم لا لذنب اقترفوه، سوى مودتهم للعترة الطاهرة التي هي عديلة القرآن الكريم في لزوم مراعاتها ومودتها.

أناشيد الولاء:

وكأني بشهداء العقيدة يزدلفون مبتهجين ليرتلوا أناشيد الحب والولاء للعترة الطاهرة. آل الرسول الأعظم ﷺ التي ضمنها لسان حالهم عباقرة الشعر:

الكميت:

يشيرون بالأيدي إلي وقولهم ... ألا خاب هذا والمشيرون أخيب

فطائفة قد كفرتني بحبكم ... وطائفة قالوا مسيء ومذنب

يعيبونني من خبهم[1] وضلالهم ... على حبكم بل يسخرون وأعجب

وقالوا ترابي هواه ورأيه ... بذلك ادعى فيهم وألقب[2]

أبو الأسود الدؤلي:

أحب محمداً حباً شديداً ... وعباساً وحمزة والوصيا[3]

هوىً أعطيته منذ استدارت ... رحىٰ الإسلام لم يعدل سويا[4]

---

(١) الخب: الخداع.

(٢) الهاشميات.

(٣) الوصي: هو الإمام أمير المؤمنين عليه السلام.

(٤) سويا: أي لا مثيل له.

بنو عم النبي واقربوه أحب الناس كلهم اليّا
فإن يك حبهم رشداً أصبه ولست بمخطىء إن كان غيّا[1]

عبد الله بن كثير السهمي:

إن أمراً أمست معايبه حب النبي لغير ذي ذنب
وبني أبي حسن ووالدهم من طاب في الارحام والصلب
ايُعد ذنباً أن أحبهم؟ بل حبهم كفارة الذنب[2]

الشافعي:

قالوا ترفضت قلت كلا ما لرفض ديني ولا اعتقادي
لكن توليت دون شك خير إمام وخير هادي
إن كان حب الوصي رفضاً فإنني أرفض العبادِ

صدى الفاجعة:

وذعر المسلمون لمقتل حجر وأصحابه، وعم السخط جميع أرجاء البلاد، لأن حجراً من أعلام الإسلام، ومن خيار صحابة النبي ﷺ وقد انتُهكت في قتله حرمة الإسلام، لأنه لم يُحدث فساداً في الأرض، وإنما رأى منكراً فناهضه، وجوراً فناجزه، رأى زياداً يؤخر الصلاة فطالبه بإقامتها، ورآه يسب الإمام أمير المؤمنين فطالبه بالكف عنه، فقتل من أجل ذلك، وقد اندفعت الشخصيات الرفيعة في العالم الإسلامي إلى إعلان سخطها على معاوية والانكار عليه، ومن الخير أن نذكر بعضهم، ونستمع إلى نقدهم.

---

(١) الكامل للمبرد: ص ٥٤٥.
(٢) البيان والتبيين: ٣ ـ ٣٦٠.

أ ـ الإمام الحسين (ع):

ورفع الإمام الحسين عليه السلام من يثرب رسالة إلى معاوية أنكر فيها أشد الانكار على ما ارتكبه من قتل حجر وأصحابه الأبرار، وهذا نصها:

ألستَ القاتل حجراً أخا كندة، والمصلين العابدين الذين كانوا ينكرون الظلم، ويستعظمون البدع، ولا يخافون في الله لومة لائم؟ قتلتهم ظلماً وعدواناً من بعدما أعطيتهم الايمان المغلظة، والمواثيق المؤكدة أن لا تأخذهم بحدث، لما بينك وبينهم، ولا بإحنة تجدها بنفسك عليهم[1].

لقد أنكر الإمام الحسين عليه السلام برسالته إلى معاوية استباحته لدم حجر وأصحابه المثاليين الذين أنكروا الظلم وناهضوا الجور واستعظموا البدع، وقد قتلهم ظلماً وعدواناً، بعدما أكد على نفسه وأعطاهم المواثيق المؤكدة أن لا يأخذهم بحدث ولا بإحنة فيما مضى، ولكن ابن هند قد خان بذلك ولم يفِ به.

ب ـ عائشة:

ومن جملة المنكرين على معاوية عائشة، فقد دخل عليها في بيتها بعد منصرفه من الحج فقالت:

أأمنت أن أخبىء لك من يقتلك؟

فقال لها مخادعاً:

بيت الأمن دخلت.

أما خشيت الله في قتل حجر وأصحابه؟[2].

---

(١) البحار: ١٠ ـ ١٤٩.

(٢) البداية والنهاية: ٨ ـ ٥٥، الاصابة: ١ ـ ٣١٤.

وكانت دوماً تتحدث عن مصاب حجر، فقد حدثت عما سمعته عن رسول الله ﷺ في فضله، قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

سيقتل بعذراء أناس يغضب الله لهم وأهل السماء[1].

وقالت مندِّدة بأهل الكوفة:

أما والله لو علم معاوية أن عند أهل الكوفة منعة ما اجترأ على أن يأخذ حجراً وأصحابه من بينهم حتى يقتلهم بالشام، ولكن ابن آكلة الأكباد علم أنه قد ذهب الناس، أما والله ان كانوا لجمجمة العرب عزاً ومنعة وفقهاً، ولله در لبيد حيث يقول:

ذهب الذين يعاش في أكنافهم   وبقيت في خلف كجلد الأجرب
لا ينفعون ولا يُرجى خيرهم   ويعاب قائلهم وأن لم يشغب

ج ـ الربيع بن زياد:

ومن الناقمين على معاوية الربيع بن زياد البصري[2] عامله على خراسان فإنه لما سمع بالنبأ المؤلم طاش لبه، وذهبت نفسه حسرات فقال والحزن باد عليه:

(لا تزال العرب تُقتل صبراً بعده ـ أي بعد مقتل حجر ـ ولو نفرت عند مقتله لم يقتل واحداً منهم صبراً، ولكنها أقرت فزلت...)

---

(١) الاستيعاب: ١ ـ ٣٥٧.

(٢) الربيع بن زياد بن أنس الحارثي البصري، كان عاملاً لمعاوية على خراسان وكان كاتبه الحسن البصري، روى عن أبي بن كعب وعن جماعة، وروى عنه قوم، توفي سنة ٥١، جاء ذلك في تهذيب التهذيب: ٣ ـ ٤٣ وجاء في الإصابة: ١ ـ ٤٩١، ان الربيع وفد على عمر بن الخطاب فقال له: يا أمير المؤمنين والله ما وليت هذه الأمة إلا ببلية ابتلت بها، ولو أن شاة ظلت بشاطىء الفرات لسُئلت عنها يوم القيامة، فبكى عمر حين سمع منه هذا الكلام.

إن أهل الكوفة لو منعوا السلطة الأموية من قتل حجر وأصحابه لما تمكن الأمويون من قتل أحرارهم وأخيارهم، ولكنهم رضوا بالخمول والذل، وكرهوا الموت في سبيل الله، فهان أمرهم وذلوا، وعمل فيهم الأمويون ما أرادوا من إخضاعهم للذل والهوان.

وبقي الربيع ذاهل النفس، خائر القوى، قد مزق الأسى قلبه، فلما صار يوم الجمعة صلى بالناس صلاة الجمعة، وبعد الفراغ منها خطب في الناس فقال في خطابه: (اللّهُم، إن كان للربيع عندك خير فأقبضه إليك وعجل).

فاستجاب الله دعاءه، فما فارق المجلس حتى وافاه الأجل المحتوم[1].

د ـ الحسن البصري:

وعد الحسن البصري قتل حجر احدى الموبقات الأربعة التي ارتكبها معاوية، فقال فيما يخص حجراً:

ويل له من حجر وأصحاب حجر. مرتين.

هـ ـ عبد الله بن عمر:

لقد ذعر ابن عمر حينما علم بمقتل حجر، فقد أخبر بقتله وهو بالسوق وكان محتبياً فأطلق حبوته وولى يبكي أشد البكاء وأمرّه[2].

و ـ معاوية بن خديج:

وانتهى الخبر المؤلم إلى معاوية بن خديج[3] وكان في افريقية مع

---

(١) الكامل: ٣ ـ ١٩٥.

(٢) الإصابة: ١ ـ ٣١٤.

(٣) معاوية بن خديج بن جفنة السكوني، وقيل الكندي: هو الذي قتل العبد الصالح الطيب محمد بن أبي بكر بأمر ابن العاص، وقد غزا افريقية ثلاث مرات، جاء ذلك في الإستيعاب: =

الجيش، فقال لقومه الذين كانوا معه من كندة:

ألا ترون أنا نقاتل لقريش ونقتل أنفسنا لتثبيت ملكها، وأنهم يثبون على بني عمنا فيقتلونهم؟.

ز ـ عبد الله بن خليفة:

إن عبد الله بن خليفة ممن التاع لحادث مقتل حجر، فرثاه بقصيدة تقطر حزناً وألماً، وقد ضمنها آهاته وأحزانه وتفجعه لهذا الحادث الجلل والمصاب الأليم. ومنها:

ولاقى بها[1] حجر من الله رحمة   فقد كان أرضا الله حجر وأعذرا
ولا زال تهطال ملث وديمة   على قبر حجر أو ينادي فيحشرا
فيا حجر من للخيل ندمى نحورها   وللملك المغزى إذا ما تقشمرا[2]
ومن صادع بالحق بعدك ناطق   بتقوى ومن أن قيل بالجور غيرا
فنعم أخو الإسلام كنت وأنني   لأطمع أن تؤتي الخلود وتحبرا
وقد كنت تعطي السيف في الحرب حقه   وتُعرف معروفاً وتُنكر منكرا

لقد كان قتل حجر من الأحداث الكبار، وكان صدعاً في الإسلام، وبلاء على عموم العرب، وكان معاوية نفسه لا يشك في ذلك، فكان ينظر إليه شبحاً مخيفاً، ويردد ذكره في خلواته، وقد ذكره كثيراً في مرضه الذي هلك فيه، فكان يقول: (ويلي منك يا حجر) وكان يقول: (يوم لي من ابن الأدبر ـ يعني حجراً ـ طويلا) قال ذلك ثلاث مرات[3] نعم، ان يومه لطويل

= ٣ ـ ٣٨٩.

(١) الضمير يرجع إلى مرج عذراء.

(٢) تقشمر: أي أخذ قهراً وظلماً.

(٣) الطبري: ٦ ـ ١٥٦.

من حجر وأمثاله من المؤمنين الصالحين الذين سفك دماءهم لا لذنب اقترفوه، سوى حبهم لأهل البيت عليهم السلام.

وهنا ينتهي بنا الحديث عن محنة حجر وأصحابه لنلتقي بزملاء له آخرين.

رشيد الهجري:

ورشيد الهجري يُعد من طليعة رجال الإسلام ورعاً وتقى وعلماً وفضلاً، فقد تتلمذ في مدرسة أمير المؤمنين عليه السلام ونال الكثير من علومه ومعارفه، فكان عليه السلام يسميه (رشيد البلايا) وحدثت ابنته: قنو، قالت: سمعت أبي يقول:

قال لي أمير المؤمنين: يا رشيد كيف صبرك إذا أرسل إليك دعي بني أمية، فقطع يديك ورجليك ولسانك؟.

يا أمير المؤمنين آخر ذلك إلى الجنة.

يا رشيد أنت معي في الدنيا والآخرة.

وخرج رشيد مع أمير المؤمنين عليه السلام إلى بستان، فاستظلا تحت نخلة، فقام صاحب البستان إلى النخلة، فأخذ منها رطباً وقدمه إلى أمير المؤمنين عليه السلام فأكل عليه السلام منه، فإلتفت رشيد إلى الإمام قائلاً له:

ما أطيب هذا الرطب؟

أما أنك ستصلب على جذعها.

فكان رشيد بعد حديث الإمام يتعاهد تلك النخلة التي أكل من رطبها فيسقيها ويتعبد تحتها، واجتاز عليها يوماً فرأى سعفها قد قطع فشعر بدنو أجله، واجتاز عليها مرة أخرى فرأى نصفها قد جعل زرنوقاً يستسعى عليه،

فتيقن بدنو الأجل المحتوم[1] وفي فترات تلك المدة الرهيبة بعث خلفه ابن سمية، فلما حضر عنده! قال له:

ما قال لك خليلك إنا فاعلون بك؟

تقطعون يديَّ ورجليَّ وتصلبونني.

أما والله لأكذِبنَّ حديثه، خلوا سبيله.

فخلت الجلاوزة سراحه، فلما خرج، قال لجلاوزته: ردوه، فردوه إليه، فإلتفت له قائلاً:

لا نجد لك شيئاً أصلح مما قال صاحبك، انك لا تزال تبغي لنا سوءاً ان بقيت، اقطعوا يديه ورجليه، فإمتثلت الجلاوزة أمره، فقطعوا يديه ورجليه وهو يتكلم، فغاض كلامه زياد، فقال لجلاوزته: اصلبوه خنقاً، فقال رشيد لهم قد بقي لي عندكم شيء ما أراكم فعلتموه ـ أراد بذلك قطع لسانه ـ فأمر ابن سمية بقطع لسانه، ولما أرادوا قطع لسانه! قال لهم:

نفسوا عني حتى أتكلم كلمة واحدة، فأعطوه ذلك، فقال:

هذا والله تصديق خبر أمير المؤمنين عليه السلام أخبر بقطع لساني، ثم قطع الجلاوزة لسانه[2].

أي ذنب اقترفه هذا العابد العظيم حتى يستحق هذا التنكيل ويُمثل به بذلك التمثيل الفظيع، ولكن ابن سمية ومعاوية قد راما بذلك تصفية الحساب مع شيعة أهل البيت عليهم السلام والقضاء على روح التشيع.

---

(١) التعليقات على نهج المقال: ص ١٤٠.

(٢) سفينة البحار: ١ ـ ٥٢٢ وقال الحافظ الذهبي في التذكرة قتل زياد رشيد الهجري لتشيعه، فقطع لسانه وصلبه.

عمرو بن الحمق الخزاعي:

وكان عمرو بن الحمق يحمل شعوراً دينياً قوياً حياً، وكان من خيرة الصحابة في ورعه وتقواه، وهو الذي سقى النبي ﷺ لبناً فدعا له بأن يمتعه الله بشبابه، فاستجاب الله دعاء نبيه، فأخذ عمرو بعنق الثمانين عاماً ولم تُرفي كريمته شعرة بيضاء[1]. وكان من صفوة أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام ومن خلص أصحابه، وقد دعا عليه السلام له فقال:

اللهم نور قلبه بالتقى، وأهده إلى صراطك المستقيم[2]

وكان عليه السلام يكبره ويجله ويقدمه على غيره، فقد قال له:

ليت في جندي مثلك مائة.

وقال لأمير المؤمنين عليه السلام معرباً له عن ولائه وإخلاصه:

يا أمير المؤمنين: والله ما أحببتك للدنيا ولا لمنزلة تكون لي بها، وانما أحببتك لخمس خصال: انك أول المؤمنين إيماناً، وابن عم رسول الله ﷺ وأعظم المهاجرين والأنصار، وزوج سيدة النساء عليها السلام وأبو ذريته الباقية من رسول الله ﷺ فلو قطعت الجبال الرواسي، وعبرت البحار الطوامي في توهين عدوك وتلقيح حجتك لرأيت ذلك قليل من كثير ما يجب علي من حقك[3] وقد دل حديثه على عمق عقيدته وإيمانه، وعظيم ولائه لأمير المؤمنين عليه السلام ولاء يلتمس منه وجه الله ويبغي فيه الدار الآخرة.

ولما ولي زياد الكوفة وتتبع زعماء الشيعة ووجهائهم خاف الخزاعي من سلطنة الغاشمة ففر إلى المدائن ومعه رفاعة بن شداد، فكمنا فيها برهة من

---

(١) الإصابة: ٢ ـ ٥٢٦.

(٢) سفينة البحار: ٢ ـ ٥٢٦.

(٣) التعليقات: ص ٢٤٦.

الزمن ثم هربا إلى الموصل، وقبل أن يصلا إليها مكثا في جبل هناك ليستجما فيه، وبلغ بلتعة بن أبي عبد الله عامل معاوية أن رجلين قد كمنا في جبل من جبال الموصل فاستنكر شأنهما، فسار إليهما مع فريق من أصحابه، فلما انتهوا إلى الجبل خرج إليهم عمرو ورفاعة، فأما عمرو فقد كان مريضاً لأنه قد سقي سماً وليس عنده قوى يستطيع بها على خلاص نفسه فوقف ولم يهرب، وأما رفاعة فقد كان في شرخ الشباب، فاعتلى فرسه ثم إلتفت إلى عمرو فقال له: أقاتل عنك، فنهاه عن ذلك وقال له:

وما ينفعني أن تقاتل؟ أنج بنفسك ان استطعت.

ومضى رفاعة فهجم على القوم فافرجوا له، ثم خرجوا في طلبه فلم يتمكنوا عليه لأنه كان رامياً، وأُخذ عمور أسيراً وطلبوا منه أن يعرفهم شخصيته فامتنع! وقال لهم:

(انا من أن تركتموه كان أسلم لكم، وان قتلتموه كان أضر لكم)

وأصروا عليه أن يعرفهم نفسه، فأبى، فارتابوا من أمره، فأرسلوه مخفوراً إلى عبد الرحمن بن عبد الله الثقفي حاكم الموصل، فلما رآه عرفه، ورفع بالوقت رسالة إلى معاوية عرفه بالأمر، فأجابه:

انه زعم انه طعن عثمان بن عفان تسع طعنات بمشاقص[١](كانت معه، وانا لا نريد ان نعتدي عليه فأطعنه تسع طعنات كما طعن عثمان).

فأخرجه عبد الرحمن وأمر بطعنه تسع طعنات، فمات في الأولى أو الثانية منها[٢]. ثم أخذ رأسه وبعثه إلى معاوية، فأمر أن يطاف به في الشام

---

(١) المشاقص: جمع مفرده ـ مشقص ـ الفصل العريض، أو سهم فيه فصل عريض.

(٢) تاريخ الطبري.

وغيره فكان أول رأس طيف به في الإسلام[1]. ثم أمر به أن يبعث إلى زوجته آمنة بنت الشريد وكانت في سجنه، فجيء به فوضع في حجرها وهي غافلة لا تعلم من أمره شيئاً، فلما بصرت به اضطربت حتى كادت أن تموت ثم قالت ودموعها تتبلور على وجهها:

(واحزناه لصغره في دار هوان، وضيق من ضيمه سلطان، فغيبتموه عني طويلاً وأهديتموه إلي قتيلاً، فأهلاً وسهلاً بمن كنت له غير قالية، وأنا له اليوم غير ناسية).

ثم إلتفتت إلى الحرسي فقالت له:

ارجع به أيها الرسول إلى معاوية فقل له: (ولا تطوه دونه: أيتَم الله ولدك، وأوحش منك أهلك، ولا غفر لك ذنبك).

ورجع الرسول إلى معاوية فأخبره بمقالتها، فغضب وغاظه كلامها، فأمر بإحضارها بمجلسه، فجيء بها إليه! فقال لها:

أنت يا عدوة الله صاحبة الكلام الذي بلغني؟

فانبرت إليه غير مكترثة ولا هيابة لسلطانه! قائلة:

(نعم، غير نازعة عنه، ولا معتذرة منه، ولا منكرة له، فلعمري لقد اجتهدت في الدعاء أن نفع الإجتهاد، وأن الحق لمن وراء العباد، وما بلغت شيئاً من جزائك، وان الله بالنقمة من ورائك).

فإلتفت اياس بن حسل إلى معاوية متقرباً إليه:

أقتل هذه يا أمير المؤمنين، فوالله ما كان زوجها أحق بالقتل منها)

فقالت له: تباً لك، ويلك بين لحييك كجثمان الضفدع، ثم أنت تدعوه

---

(١) الإستيعاب: ٢ـ ٥١٧.

إلى قتلي كما قتل زوجي بالأمس. . . أن تريد إلا أن تكون جباراً في الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين).

فضحك معاوية! وقال منبهراً:

(لله درك أخرجي، ثم لا أسمع بك في شيء من الشام).

فقالت له:

(وأبي لأخرجن ثم لا تسمع لي في شيء من الشام، فما الشام لي بحبيب، ولا أعرج فيها على حميم، وما هي لي بوطن، ولا أحن فيها إلى سكن، ولقد عظم فيها ديني، وما قرت فيها عيني، وما أنا فيها إليك بعائدة، ولا حيث كنت بحامدة).

وثقل كلامها على معاوية، فأشار إليها ببنان بالخروج، فخرجت، وهي تقول:

(وأعجبني لمعاوية يكف عني لسانه، ويشير إلى الخروج ببنانه، أما والله ليعارضنه عمرو بكلام مؤيد شديد أوجع من نوافذ الحديد، أو ما أنا بابنة الشريد).

ثم خرجت من مجلسه[1].

لقد كان قتل عمرو من الأحداث الجسام في الإسلام لأنه من صحابة النبي ﷺ وقد عمد معاوية إلى إراقة دمه، فخالف ذلك ما أمر الله به من حرمة سفك دماء المسلمين إلا بالحق، ولم يشف قتله غليل معاوية، فقد أمر بأن يطاف برأسه في بلاد المسلمين، وبعث به إلى زوجته فروعها وكادت أن تموت من ألم المصاب، وقد رفع الإمام الحسين عليه السلام من يثرب رسالة إلى

---

(١) اعلام النساء: ١ ـ ٤.

معاوية أنكر فيها ارتكابه لهذا الحادث الخطير وهذا نصها:

(أولست قاتل عمرو بن الحمق صاحب رسول الله ﷺ العبد الصالح الذي أبلته العبادة، فنحل جسمه، واصفر لونه، بعدما أمنته وأعطيته من عهود الله ومواثيقه ما لو أعطيته طائراً لنزل إليك من رأس الجبل، ثم قتلته جرأة على ربك، وإستخفافاً بذلك العهد)[1].

لقد أشاد الإمام عليه السلام بفضل عمرو، فذكر أنه صاحب رسول الله ﷺ وانه قد أبلت العبادة جسمه، كما ذكر انه قد أبرم عهداً خاصاً في شأنه يتضمن أمنه وعدم البغي عليه ولكنه قد خاس بعهده ولم يف به.

أوفى بن حصن:

وكان أوفى بن حصن من المنددين بالسياسة الأموية ومن الناقدين لسلطتها، وكان يذيع مساوئهم بين أوساط الكوفيين، فبلغ ذلك زياداً، فبعث في طلبه فاختفى أوفى واستعرض زياد الناس فاجتاز عليه أوفى فشك في أمره! فقال لمن معه:

من هذا؟

أوفى بن حصن.

عليّ به.

فجيء به إليه، فقال منبهراً: (أتتك بخائن رجلاه تسعى).

ثم إلتفت إليه قائلاً:

ما رأيك في عثمان؟

---

(١) التعليقات: ص ٢٤٦.

ختن رسول الله ﷺ على ابنتيه.

ما تقول في معاوية؟

جواد حليم.

ما تقول فيّ؟

بلغني انك قلت بالبصرة: (والله لآخذن البريء بالسقيم، والمقبل بالمدبر)

قد قلت ذلك.

خبطتها خبط عشواء.

ليس النفاخ بشر الزمرة.

ثم أمر بقتله[1].

إن نكران أوفى لسياسة زياد في ذلك الظرف العصيب من أعظم الأعمال التي قام بها، ومن أفضل الجهاد الذي عناه رسول الله ﷺ بقوله: (أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر، وأفضل الشهداء حمزة بن عبد المطلب، ورجل تكلم عند سلطان جائر، فأمر به فقتل[2].

جويرية بن مسهر العبدي:

وكان جويرية من أخلص أصحاب الإمام أمير المؤمنين ومن حملة حديثه، ومن المقربين عنده، فقد نظر إليه فناداه: يا جويرية الحق بي فأني إذا رأيتك هويتك، ثم حدثه ببعض أسرار الإمامة، وقال له: (يا جويرية أحبب

(١) الكامل: ٣ ـ ١٨٣.
(٢) النصائح: ص ٦٠.

حبيبنا ما أحبنا فإذا أبغضنا فأبغضه، وأبغض بغيضنا ما أبغضنا فإذا أحبنا فأحبه)[1].

ودخل جويرية على أمير المؤمنين عليه السلام يوماً وكان مضطجعاً فقال له جويرية:

(أيها النائم استيقظ فلتضربن على رأسك ضربة تخضب منها لحيتك)

فتبسم أمير المؤمنين عليه السلام وانبرى إليه فأخبره بما يجري عليه من بعده من ولاة الجور! قائلاً:

(وأحدثك يا جويرية بأمرك، أما والذي نفسي بيده لتعتلن[2] إلى القتل الزنيم، فليقطعن يدك ورجلك وليصلبنك تحت جدع كافر)[3].

وما دارت الأيام حتى استدعى ابن سمية جويرية فأمر بقطع يده ورجله ثم صلبه على جذع قصير[4].

وقد ألف هشام بن محمد السائب كتاباً في فاجعة جويرية ورشيد وميثم التمار[5].

عبد الله بن يحيى الحضرمي:

وكان عبد الله الحضرمي من أولياء أمير المؤمنين ومن صفوة أصحابه وكان من شرطة الخميس وقد قال عليه السلام له يوم الجمل:

أبشر يا عبد الله فإنك وأباك من شرطة الخميس حقاً لقد أخبر

---

(١) ابن أبي الحديد وقريب منه جاء في التعليقات ص ٣٦٦.
(٢) لتعتلن: أي لتجذبن.
(٣) الكافر: القصير.
(٤) شرح ابن أبي الحديد.
(٥) التعليقات: ص ٣٦٦.

رسول الله ﷺ باسمك واسم أبيك من شرطة الخميس[1].

ولما قتل أمير المؤمنين عليه السلام حزن عليه عبد الله حزناً مرهقاً، فترك الكوفة، وبنى له صومعة يتعبد فيها هو وأصحابه المؤمنون، ولما علم ابن هند بجزعهم وحزنهم على أمير المؤمنين عليه السلام أمر بإحضارهم عنده، فلما جيء بهم أمر بقتلهم صبراً فقتلوا[2].

ففي ذمة الله هؤلاء الصلحاء الأخيار الذين سفكت دماؤهم، وتقطعت أوصالهم، ولم يرتكبوا ذنباً أو يحدثوا في الإسلام حدثاً ما سوى ولائهم لأمير المؤمنين عليه السلام إمتثالاً لرسول الله ﷺ الذي فرض ودهم على جميع المسلمين[3].

الإدعـاء:

إيه معاوية:

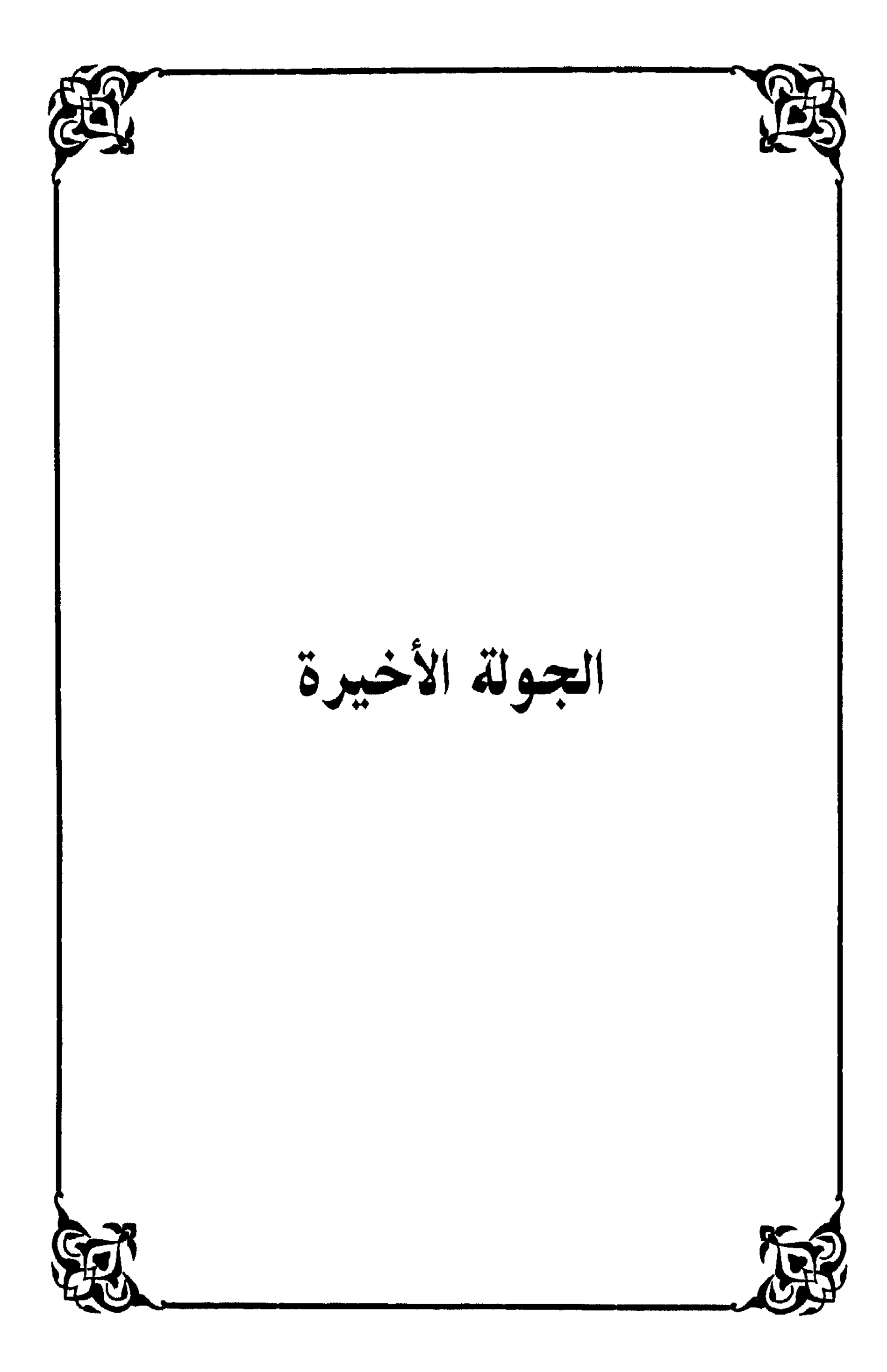
ما إعتذارك عما أفرطت فيه من الإجرام والبغي على دماء المسلمين وكراماتهم حتى كونت بركاً من الدم وتلالاً من الأشلاء.

معاويـة:

كل ما عملته لتوطيد الملك وتدعيم السلطان، وأن الملك لعقيم، ولو نازعني ابني يزيد الملك لأخذت الذي فيه عيناه، لأن من أحب شيئاً أغشى بصره، وأذهل عقله.

---

(١) التعليقات: ص ٢١٤.
(٢) البحار: ١ ـ ١٠٢.
(٣) حياة الإمام الحسن للشيخ القرشي ٢ ـ ٣٥٠ ـ ٣٧٨.



الجولة الأخيرة

نجمل حياة معاوية في سطور ليتسنى التعرف على ترجمته من أقرب زاوية والوصول إلى هويته بأقصر خطى.

أبو سفيان:

لما ابتعث الله تعالى محمداً ﷺ بدينه، وأمره أن يصدع بأمره، بدأ بأهله وعشيرته، فدعاهم إلى ربه، وأنذرهم وبشّرهم، ونصح لهم وأرشدهم، فكان من استجاب له، وصدق قوله، واتبع أمره نفر يسير، وكان ممن عانده وكذّبه وحاربه من عشيرته العدد الكثير والسواد الأعظم، يتلقونه بالضرر والتثريب[1] ويقصدونه بالأذى والتخويف، وينابذونه العداوة، وينصبون له المحاربة، ويصدون من قصده، وينالون بالتعذيب من اتبعه، وكان أشدهم في ذلك عداوة، وأعظمهم له مخالفة، أولهم في كل حرب ومناصبة، ورأسهم في كل أجلاب وفتنة، لا يرفع على الإسلام راية إلاّ كان صاحبها وقائدها ورئيسها أبا سفيان بن حرب بن أمية حامل راية الشرك في أُحد وقائد الأحزاب في الخندق وغيرها، وأشياعه من بني أمية الملعونين في كتاب الله، ثم الملعونين على لسان رسول الله ﷺ في مواطن عدّة لسابق علم الله فيهم وماضي حكمه في أمرهم، وكفرهم ونفاقهم.

---

(١) التثريب: العتاب واللّوم.

فلم يزل لعنه الله يحارب مجاهداً، ويدافع مكابداً، ويجلب منابذاً، حتى قهره السيف، وعلا أمر الله وهم كارهون، فتعوذ بالإسلام غير منطوٍ عليه، وأسرّ الكفر غير مقلع عنه كل ذلك رهبة من سيوف المسلمين عند دخولهم مكة فاتحين بقيادة الرسول الأعظم ﷺ ليحقن دمه وليتحرر من ربقة الأسر الذي أطلقهم منه رسول الله ﷺ ورغبة بالأموال التي كان رسول الله ﷺ يتألف بها القلوب الضعيفة الإيمان.

فقبله رسول الله ﷺ وقبل ولده على علم منه بحاله وحالهم، ثم أنزل الله تعالى كتاباً فيما أنزل على رسوله يذكر فيه شأنهم، وهو قوله تعالى: ﴿والشجرة الملعونة في القرآن﴾[1]. ولا خلاف بين أحد في أنه تعالى وتبارك أراد بها بني أمية ومما ورد من ذلك في السنّة، ورواه ثقاة الأمة، قول رسول الله ﷺ فيه وقد رآه مقبلاً على حمار ومعاوية يقوده ويزيد يسوقه:

«لعن الله الراكب والقائد والسائق».

وكان أبو سفيان ينتهز الفرص للإباحة بكفره وإعلان إلحاده، فقد خاطب بني أمية يوم بيعة عثمان: تلقفوها يا بني أمية تلقف الكرة، فوالذي يحلف به أبو سفيان ما من جنة ولا نار، ومازلت أرجوها لكم، ولتصيرن إلى صبيانكم وراثة[2] وقوله:

اللهم اجعل الأمر أمر جاهلية، والملك ملك غاصبية، واجعل أوتاد الأرض لبني أمية[3].

كما صرّح بقوله عند وقوفه على ثنية أُحد، من بعد ذهاب بصره، فوقف على قبر سيد الشهداء حمزة فركله برجله وقال:

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٦٠.
(٢) ابن أبي الحديد: ٥/ ١٢٩ ـ ١٣٠.
(٣) ابن أبي الحديد: ٣ ـ ٦٧.

يا أبا عمارة: ان الأمر الذي اجتلدنا عليه بالسيف أمسى في أيدي غلماننا يتلعبون به[1].

وقوله للعباس بن عبد المطلب قبل الفتح وقد عُرضت عليه الجنود: لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيماً، فقال له العباس:

ويحك إنه ليس بملك، إنها النبوّة. وقوله يوم الفتح وقد رأى بلالاً على ظهر الكعبة يؤذن ويقول: أشهد أن محمداً رسول الله: (لقد أسعد الله عتبة بن ربيعة إذ لم يشهد هذا المشهد).

هند بنت عتبة:

وكانت هند بنت عتبة بن ربيعة بن أمية: أم معاوية، تذكر في مكة بفجور وعهر.

وكان معاوية يعزى إلى أربعة: إلى مسافر بن أبي عمرو، وإلى عمارة بن الوليد بن المغيرة، وإلى العباس بن عبد المطلب، وإلى الصّباح: مغنٍ كان لعمارة بن الوليد.

وقد كان أبو سفيان دميماً قصيراً، وكان الصبّاح عسيفاً[2] لأبي سفيان، شاباً وسيماً، فدعته هند إلى نفسها فغشيها.

وقالوا: إن عتبة بن أبي سفيان من الصبّاح أيضاً، وقالوا: إنها كرهت أن تدعه في منزلها، فخرجت إلى أجياد، فوضعته هناك، وفي هذا المعنى يقول حسان أيام المهاجات بين المسلمين والمشركين في حياة رسول الله ﷺ قبل عام الفتح[3]:

---

(١) مروج الذهب: ١ ـ ٤٤٠.

(٢) العسيف: الأجير.

(٣) ديوان: ١٥٧.

لمن الصبي بجانب البطحا في الترب ملقىً غير ذي مهد
تجلت به بيضاء آنسة من عبد شمس صلتة الخد[1][2]

وهند هذه التي مثلت في أُحد بسيد الشهداء حمزة عم الرسول الأعظم ﷺ فجدعت أنفه وأذنيه وشقت بطنه فأخرجت كبده ومضغتها، ثم أنشدت بأعلى صوتها:

نحن جزيناكم بيوم بدر والحرب بعد الحرب ذات سعر[3]
وما كان عن عتبة لي من صبر ولد أخي وعمه وبكري
شفيت نفسي وقضيت نذري شفيت وحشي غليل صدري
فشكر وحشيٌّ عليّ عمري حتى ترمّ أعظمي في قبري[4][5]

مجانبته للدين:

عاش معاوية ملحداً ومات ملحداً غير معتقد بنبوة محمد ﷺ كما كان يظهر ذلك في أقواله وأفعاله، وكان يمتعض من ذكر اسم النبي في الأذان، ويقول متقززاً للمغيرة بن شعبة: إن ابن أبي كبشة ليصاح به كل يوم خمس مرات: (أشهد أن محمداً رسول الله) لا والله إلاّ دفناً دفناً.

وكان يتحدى ما يؤثر من الأحكام الشرعية عن النبي ﷺ فقد كان يلبس الحرير، ويشرب في آنية الذهب والفضة، حتى أنكر عليه أبو الدرداء، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن الشارب فيهما ليجرجر في جوفه في

---

(١) نجلت به: ولدته. وصلتة الخد: الصلت: الأملس.
(٢) ابن أبي الحديد: ١ ـ ٣٣٦ عن كتاب ربيع الأبرار للزمخشري.
(٣) ذات سعر: أي حر.
(٤) ترم أعظمي: تبلى.
(٥) سيرة ابن هشام: ٣ ـ ٤٣.

نار جهنم، فقال معاوية: أما أنا فلا أرى بذلك بأساً. فقال أبو الدرداء:

من عزيري من معاوية، أنا أخبره عن رسول الله ﷺ وهو يخبرني عن رأيه، لا أساكنك بأرض أبداً.

وهذا الخبر يقدح في عدالته، كما يقدح أيضاً في عقيدته، لأن من قال في مقابلة خبر قد روي عن رسول الله ﷺ أما أنا فلا أرى بأساً فيما حرّمه رسول الله ﷺ ليس بصحيح العقيدة، ومن المعلوم أيضاً من حاله استئثاره بمال الفيء، وضربه من لا حدّ عليه، وإسقاط الحدّ عمّن يستحق إقامة الحدّ عليه، وحكمه برأيه في الرعية وفي دين الله[1] ثم إدعاؤه زياد بن سمية أخاً، ونسبته إياه إلى أبيه، والله تعالى يقول: ﴿**وادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله**﴾[2] ورسول الله ﷺ يقول: «ملعون من ادّعى إلى غير أبيه أو انتمى إلى غير واليه». وقال: «الولد للفراش وللعاهر الحجر». فخالف حكم الله تعالى ورسوله جهاراً، وجعل الولد لغير الفراش، والحجر لغير العاهر، فأحلّ بهذه الدعوة من محارم الله ورسوله في أم حبيبة أم المؤمنين وفي غيرها من النساء من شعور ووجوه قد حرّمها الله، وأثبت بها من قربى قد أبعدها الله ما لم يدخل الدين خلل مثله، ولم ينل الإسلام تبديل يشبهه، ومهانته لأبي ذر الغفاري وجبهه وشتمه وإشخاصه إلى المدينة على قنب بعير من غير وطاء، لإنكاره عليه، ولعنه علياً وحسناً وحسيناً وعبد الله بن عباس على منابر الإسلام.

إجرامه:

ومن جرائم معاوية الغلاظ الشداد افتراؤه بالمحاربة لأفضل المسلمين في الإسلام مكاناً، وأقدمهم إليه سبقاً، وأحسنهم فيه أثراً وذكراً، علي بن أبي

---

(١) ابن أبي الحديد: ٥/ ١٣٠ ـ ١٣١.

(٢) سورة الأحزاب: آية ٥.

طالب، ينازعه حقه بباطله، ويجاهد أنصاره بضلاله وأعوانه، ويحاول ما لم يزل هو وأبوه يحاولان، من إطفاء نور الله، وجحود دينه ﴿**ويأبى الله إلاّ أن يتم نوره ولو كره الكافرون**﴾[1] ويستهوي أهل الجهالة، ويموه لأهل الغباوة بمكره وبغية الذين قدّم رسول الله ﷺ الخبر عنهما، فقال لعمار بن ياسر: «تقتلك الفئة الباغية»؛ تدعوهم إلى الجنة ويدعونك إلى النار، مؤثراً للعاجلة، كافراً بالآجلة، خارجاً من ربقة[2] الإسلام، مستحلاً للدم الحرام؛ حتى سفك في فتنته، وعلى سبيل غوايته وضلالته دم ما لا يحصى عدده من أخيار المسلمين، الذّابين عن دين الله، والناصرين لحقه، مجاهداً في عداوة الله، مجتهداً في أن يعصى الله فلا يطاع، وتبطل أحكامه، فلا تقام، ويخالف دينه، فلا بد وأن تعلو كلمة الضلال وترتفع دعوة الباطل، وكلمة الله هي العليا ودينه المنصور، وحكمه النافذ، وأمره الغالب، وكيد من عاداه المغلوب الداحض؛ حتى احتمل أوزار تلك الحروب وما تبعها، وتطوق تلك الدماء وما سفك بعدها، وسن سنن الفساد التي عليه إثمها وإثم من عمل بها، وأباح المحارم لمن ارتكبها، ومنع الحقوق أهلها، وغرّته الآمال، واستدرجه الإمهال.

وكان مما أوجب الله ـ عليه اللعنة ـ قتله من قتل صبراً[3] من خيار الصحابة والتابعين، وأهل الفضل والدين، مثل عمرو بن الحمق الخزاعي وحجر بن عدي الكندي، فيمن قتل من أمثالهم، على أن تكون له العزة والملك والغلبة.

استخلافه يزيد:

من الكبائر العظام والموبقات الجسام التي أخلدت المسلمين إلى الذل

---

(١) سورة التوبة: آية ٣٢.

(٢) الربقة: الواحدة من العرى التي في الحبل.

(٣) صبراً: أي حبساً.

والهوان إيثار معاوية لخلافة الله على عباده ابنه يزيد، السكير الخمير صاحب الديكة والفهود والقردة، وأخذ البيعة له على خيار المسلمين بالقهر والسطوة والتوعّد والإخافة، والتهديد والرهبة، وهو يعلم سفهه، ويطلع على رهقه وخبثه؛ ويعاين سكراته وفعلاته، وفجوره وكفره، ولعبه بالنرد، ونومه بين القيان والمغنيات واصطباحه معهن، ولعبه بالطنبور بينهن.

واذلــة الإســلام مــن بعــد عــزه إذا كــان والــي المسلميــن يــزيــد

فلما تمكن ـ قاتله الله ـ فيما تمكن منه، طلب بثارات المشكرين وطوائلهم عند المسلمين، وأوقع بأهل المدينة في وقعة الحرة الوقعة التي لم يكن في الإسلام أشنع منها ولا أفحش، فشفى عند نفسه غليله؛ وظن أنه قد انتقم من أولياء الله، وبلغ الثأر لأعداء الله؛ فقال مجاهراً بكفره، ومظهراً لشركه:

ليــت أشيــاخــي ببــدر شهــدوا	جزع الخزرج من وقع الأسل[1]
قــد قتلنــا القــوم مــن ســاداتهــم	وعــدلنــا ميــل بــدر فــاعتــدل
فــأهلــوا واستهلــوا فــرحــاً	ثــم قــالــوا يــا يــزيــد لا تشــل
لســت مــن خنــدف أن لــم أنتقــم	مــن بنــي أحمــد مــا كــان فعــل
لعبــت هــاشــم بــالملــك فــلا	خبــرٌ جــاء ولا وحــيٌ نــزل[2]

هذا هو المروق من الدين، وقول من لا يرجع إلى الله وإلى دينه ولا إلى رسوله ولا إلى كتابه، ولا يؤمن بالله وبما جاء من عنده.

وبايع مسلم بن عقبة[3] أهل المدينة كافة، وفيها بقايا الصحابة وأولادها

---

(١) لعبد الله بن الزبعري، من كلمته يوم أُحد، سيرة ابن هشام: ٣ ـ ٩٦.

(٢) ابن أبي الحديد: ١٥ ـ ١٧٨ عن الطبري.

(٣) مسلم بن عقبة أحد صنائع يزيد بن معاوية ـ وهو مخلوق مسمم الطبيعة، وقد بلغ الغاية في =

وصلحاء التابعين على أن كلاً منهم عبد قن[1] لأمير المؤمنين يزيد بن معاوية، إلاّ علي بن الحسين عليه السلام فإنه بايعه على أنه أخوه وابن عمه، وكان يزيد وباقي ملوك بني أمية يختمون في أعناق المسلمين كا توسم الخيل، علامة لاستعبادهم، ونقشوا أكف المسلمين علامة لاسترقاقهم، كما يصنع بالعلوج من الروم والأحباش[2].

ثم أغلظ ما انتهك يزيد، وأعظم ما اجترم، سفكه دم الحسين بن علي عليه السلام مع موقعه من رسول الله صلى الله عليه وآله ومكانه ومنزلته من الدين والفضل والشهادة له ولأخيه بسيادة شباب أهل الجنة؛ اجتراء على الله، وكفراً بدينه، وعداوة لرسوله، ومجاهدة لعترته، واستهانة لحرمته، كأنما يقتل منه ومن أهل بيته قوماً من كفرة الترك والديلم، ولا يخاف من الله نقمة، ولا يراقب منه سطوة، ولم يكتفِ أشياعه وقادة جيشه بقتل الحسين عليه السلام بل تركوا

= التنكيل بأنصار علي وأنصار أبي عبد الله الحسين، فإنه أباح المدينة في حرم النبي صلى الله عليه وآله: (أباحها ثلاثة أيام، واستعرض أهلها بالسيف جرزاً كما يجرز القصاب الغنم، حتى ساخت الأقدام في الدم. وقتل أبناء المهاجرين والأنصار وذرية أهل بدر وأخذ البيعة ليزيد بن معاوية على كل من استبقاه من الصحابة والتابعين على أنه عبد قن لأمير المؤمنين يزيد.

وانطلق جنده في المدينة إلى جوار قبر النبي يأخذون الأموال. ويفسقون بالنساء. حتى بلغ القتلى سبعماية من وجوه الناس وعشرة آلاف من الموالي. ثم كتب إلى يزيد يصف له ما فعل وصف البطل الظافر.

(فأدخلنا الخيل عليهم... فما صليت الظهر ـ أصلح الله أمير المؤمنين ـ إلاّ في مسجدهم: بعد القتل الذريع، والإنتهاب العظيم، وأوقعنا بهم السيوف وقتلنا من أشرف لنا منهم، واتبعنا من برهم، وأجهزنا على جريحهم، وانتهبناه ثلاثاً كما قال أمير المؤمنين ـ أعز الله نصره ـ وجعلت دور بني الشهيد عثمان في حرز وأمان، والحمد لله الذي شفى صدري من قتل أهل الخلاف القديم، والنفاق العظيم، فطالما حطوا، وقديماً ما طغوا. (الإرشاد: ٢٢٧ ـ مروج الذهب: ٢ ص ٦٥، أبو الشهداء: ص ٩٠).

(١) العبد القن: الذي ولد عندك ولا يستطيع أن يخرج عنك.

(٢) ابن أبي الحديد: ١٥ ـ ٢٤٢.

أشلاءهم عارية في الفلاة تسفي عليها الريح ثلاثة أيام، وأوطأوا الخيل صدر الحسين وظهره وسلبوه ثيابه، وأشعلوا النار في مخيمه، فخرجن الفاطميات ناشرات الشعور، لاطمات الخدود، وجعل القوم ينتزعون الملاحف من على ظهورهن، ومثلوا بالحسين وأهل بيته وصحبه أشنع تمثيل: قطعوا رؤوسهم، وحملوها على أطراف الرماح، وأهدوها ليزيد الخنى، فوضع رأس الحسين في طست من ذهب وصار ينكث ثناياه بمخصرته، وينشد مترنماً متشفياً:

يا حبذا بردك في اليدين ... ولونك الأحمر في الخدين

شفيت قلبي من دم الحسين ... أخذت ثاري وقضيت ديني

ثم ساقوا عيال الحسين عليه السلام وأطفاله سبايا:

ويسوقها زجر بضرب متونها ... والشمر يحدوها بسب أبيها

وصاروا يطوفون بخفرات الرسول صلى الله عليه وآله من بلد إلى بلد ويتصفح وجوههن القريب والبعيد.

تتصفح البلدات صورة سبيها ... أشكال بارزة بذل المثّلِ

وأدخلوا حرم الرسول وهن سافرات إلى مجلس يزيد وأوقفوهن حيث يقام الأسرى من الترك أو الديلم.

ومن مبلغ الزهراء أن بناتها ... عليها الرزايا والمصائب عكف

تطوف بها الأعداء في كل بلدة ... فمن بلد أضحت لآخر تقذف

حكام بني أمية:

ومن جرائم معاوية التي سعى بها جاهداً لهدم كيان الإسلام: تطريقه بني أمية للوثوب على مقام رسول الله صلى الله عليه وآله وخلافته، وقد سعوا بكل طاقاتهم إلى تبديل كتاب الله، وتعطيل أحكام الله، واتخاذ مال الله بينهم دولاً، وهدم

بيت الله، واستحلالهم حرمه، ونصب المجانين عليه، ورميهم بالنيران إياه، لا يألون له إحراقاً وإخراباً، ولما حرم الله منه استباحةً وانتهاكاً، ولمن لجأ إليه قتلاً وتنكيلاً، ولمن آمنه الله به إخافة وتشريداً، ملئوا الأرض بالجور والعدوان، وعمّوا عباد بلاد الله بالظلم والإقتار، حتى أفضت الخلافة إلى يزيد بن عبد الملك والوليد بن يزيد، المفتضحين الفاسقين: صاحب حبابة وسلامة؛ والآخر رامي المصحف بالسهام، وصاحب الأشعار بالزندقة والإلحاد والقائل:

تهددني بجبار عنيد ... أجل أنا ذاك جبار عنيد
إذا ما جئت ربك يوم حشر ... فقل يا رب مزقني الوليد

وذلك عندما تفأل بالقرآن وظهر قوله تعالى: ﴿**واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد**﴾ وعند انتهاء الجولة الأخيرة في الدعاوى المقامة ضد معاوية، تشرأب أعناق أهل المحشر للتعرف على حصيلة الدعاوى، وتتفتح الآذان لسماع حكم التجريم. ﴿**وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلاّ همساً**﴾[1].

الوليد:

تلعب بالنبوة هاشمي ... بلا وحي أتاه ولا كتاب
يذكرني الحساب ولست أدري ... أحق ما يقول من الحساب[2]

ولما ظهر تهاونه بالإسلام كتب هشام إليه:

يا وليد والله ما أدري أعلى الإسلام أنت أم لا؟

فكتب إليه الوليد:

---

(١) سورة طه: آية ١٠٨.
(٢) الوجيز: ٣/٢١.

يـا أيهـا السـائـل عـن ديننـا نحـن علـى ديـن أبـي شـاكـر
نشـربهـا صـرفـاً وممـزوجـة بـالسخـن أحيـانـاً وبـالفـاتـر

الإدعـاء:

إيه معاوية،

لقد استمعت إلى كل صغيرة وكبيرة مما تضمنته بنود الدعاوى وفقرات الإتهام، وان كل واحدة من الجرائم التي اتهمت بها تخلّدك في جهنم، ونظراً لعدالة الحاكم المنفرد بحكمه والمطلق التصرف في شؤون عباده الذي أخبر عن نفسه: **﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفسٌ شيئاً وإن كان حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين﴾**[1].

فحق لك يا معاوية مناقشة كل فقرة من فقرات المحاضر الإدعائية والدفاع عن نفسك.

معاويـة:

لقد كنت في الحياة الدنيا أتمتع بإمكانيات هائلة ومواهب عظمى: من الخداع والمكر والنفاق والتضليل، والكذب والإفتراء، والآن وقد تجمدت كلها في هذا اليوم العصيب، وتعطل مفعولها، وصدق قول الله تعالى: **﴿وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً، إقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا﴾**[2] وقوله تعالى: **﴿يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون﴾**[3] وقوله سبحانه: **﴿هذه جهنم التي كنتم توعدون اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون، اليوم نختم على أفواههم**

---

(١) سورة الأنبياء: آية ٤٦.
(٢) سورة الإسراء: آية ١٣ ـ ١٤.
(٣) سورة النور: آية ٢٤.

وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون﴾[1].

الإدعــاء:

وهل لديك من شفيع حميم؟

معاويــة:

﴿يومئذٍ لا تنفع الشفاعة إلاّ من أذن له الرحمن ورضي له قولاً﴾[2].

الإدعــاء:

وهل هناك أحد من الأمويين من رضي الله له قولاً؟ وهم الشجرة الملعونة في القرآن، وهل هناك من شفعاء يسمع لهم قولاً ما سوى محمد وعترته الطاهرة؟ وهم خصماؤك، والويل لمن شفعاؤه خصماؤه.

ولم يجد معاوية وسيلة يتخلص بها، فعندئذٍ: **﴿قال ربي ارجعوني لعلّي أعمل صالحاً فيما تركت﴾**[3] فحينئذٍ يرتفع الصوت مجلجلاً من الحاكم المطلق: **﴿كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورائه برزخ إلى يوم يبعثون﴾**[4].

الإدعــاء:

يا معاوية: كيف تطلب الرجعة من الله إلى الدار الدنيا لتعمل صالحاً؟

وهذا من خداعك ومكرك الذي لا ينطلي ولا يخفى على الحاكم المطلق العالم بسرائر عباده، والخبير بنياتهم وأعمالهم، وقد قال عنك وعن

---

(١) سورة يس: آية ٦٤ ـ ٦٥.

(٢) سورة طه: آية ١٠٩.

(٣) سورة المؤمنون: آية ٩٩.

(٤) سورة المؤمنون: آية ١٠٠.

نظرائك من المجرمين: ﴿**ولو ردّوا لعادوا لما نهوا عنه**﴾[1].

الإدعـاء:

أي معاوية: ألا فارتقب قضاء القاضي بين عباده بالحق، وحكم الحاكم فيهم بالعدل: ﴿**ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى**﴾[2].

وحينئذٍ تتقطع أنفاس معاوية حسرات على ما فرّط في جنب الله، ويظهر الندم، ولات حين مندم ﴿**أن تقول نفس يا حسرتي على ما فرّطت في جنب الله وإن كنت لمن الساخرين، أو تقول لو أن الله هداني لكنت من المتقين، أو تقول حين ترى العذاب لو أن لي كرّة فأكون من المحسنين**﴾[3].

فيأتي الجواب من حضرة القدس: ﴿**بلى قد جاءتك آياتي فكذّبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين**﴾[4].

ثم يحكي الله سبحانه حالة المكذبين بآياته في يوم القيامة:

﴿**ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة أليس في جهنم مثوى للكافرين**﴾[5].

---

(١) سورة الأنعام: آية ٢٨.
(٢) سورة النجم: آية ٣١.
(٣) سورة الزمر: آية ٥٦ ـ ٥٨.
(٤) سورة الزمر: آية ٥٩.
(٥) سورة الزمر: آية ٦٠.

فهرس الكتاب



دار المحجة البيضاء للطباعة والنشر والتوزيع = بيروت - لبنان ص . ب : ١٤/٥٤٧٩